تَلّ اليَهُودِيــّـَة

رواية

أحمد عبد العزيز صالح

تَلّ اليَهُودِيــَّة

رواية

١٨٢٥م - «الحبشة»

والدي العزيز/ أنطوان- ماري

طالما وَدِدتُ مُنذ سنوات أن أصبحَ ضابطًا بَحريًّا مِثلك؛ أجوب العَالمَ في رحلةٍ طويلةٍ لا تنقطع.

أعلمُ أنك لم تترك فرصة أو محاولة كي أكونَ مِثلك، وأصبحَ يومًا رُبَّانًا كبيرًا لسفينةٍ عملاقةٍ تدورُ حولَ العالم.

لكنك بالتأكيد تذكرُ كَم كنتُ أخشى ليالي البحر الموحشة.

الغموضُ وعدمُ المعرفةِ وسوادُ البحر في الليالي المُظلمة تُصيب رأسي بفزع بالغ يستطيعُ قتلي بكلِّ سُهولةٍ.

بينَ الرياضياتِ والنظرياتِ والأرقام أجِدُني أكثرَ جَسارةً وثِقة.

أكتبُ إليكَ هذه الرسالة؛ لأخبرَكَ بأنني الآنَ أحققُ جُزءًا من أمنيتك، وأقومُ برحلةٍ كبيرةٍ أقودُها بنفسِي، وخلفي عشراتُ الرِّجال.

نعم عزيزي "ماري".. أصبحتُ ربّانًا، ولكن سفينتي تسيرُ فوقَ ماءٍ عذبٍ يُمكنكَ مِلء كفيكَ منه والارتِواء.

الطريقُ للجنوب بحثًا عن موطنِ سُقوط أول قطرة ماء في هذا النهر الكبير شاقٌ وصعبٌ، لكنّ السِّحرَ حَولَه يُنسيني كلَّ هذا التعب، ويَجعلني مُصمِّمًا على الوصُول.

الحُسن في الجنوب غير هذا الذي نراه ونعرفه في "فرنسا"، هُنا الأعيُنُ لا تعرفُ الألوانَ الزَاهيةَ، ولا تشبه لونَ البحرِ والسّماءِ.

لقد تزوجتُ يا والدي العزيز.

لم أصمد كثيرًا أمام سِحر البَشَرة السّمراءِ.. السّمراء يا والدي العزيز لا يُمكنك أن تُصبحَ أمامها كما أنتَ.. تتحول لشخص آخرَ مشدوهًا مأخوذًا غارقًا في سِحرها حتى رأسك.

منذ قابلتُ "نسيم" وأنا أشعرُ بتلك الحالة التي أصابتني عندما اصطحَبتَني مَعكَ للبحر لأول مرة، دُوَارٌ شديدٌ جعل رأسي يدورُ، وأفقدُ الإحساسَ بالوقت والمكان، وكأنني أسقط من فوقِ جبل شاهق مباشرةً في بئر عَينيها.

كنتُ أظن مِثلكَ أنني سأتزوجُ فرنسيَّة تختارها والدتي، ترتدي قبعة فاخرةً ببشرةٍ بيضاءَ وعَينين زرقاوين، وفم بلون الكريز، حتى رأيت "نسيم" واجتاحتني، كأنها إعصارٌ اقتلعني من جُذوري وألقى بي في غياهب فِتنَتِها.

لم يَستغرق الأمرُ أكثرَ من ثلاثِ ليالٍ وأصبحت زوجتي.. زوجة كبيرِ المُهندسين، وقائدِ الرحلةِ.

الكلّ لم يُصدِّق أنني أختارُ فتاةً بلا عائلةٍ للزواج، ولكنه العِشق يا والدي، وأنت حدّثتني عنه من قبلُ، وأنت تتحرى ألا تسمع والدتي حديثنا.

تَبقى لي أيامٌ وأصل إلى هَدفي، وبعدها أعودُ ثانية إلى مصرَ أكمل عملي، وأعمل جاهدًا على أن أزفّ لك خبرَ قربِ وصول حفيدِك الصغير.

لينان

١٤٥ ق.م ـ «توشريت– سيناء»

ليلة بلا قمر يُضيءُ تلكَ المساحةَ الشاسعة من الفضاء.

الخيامُ مُبعثرةٌ تفصلُ بينها تجمعاتٌ صغيرةٌ لبعض الخائفين حول نار الحطب، يبحثونَ عن الدّفءِ ويتبادلونَ الحديثَ بهمس فيما بينهم. الكُلّ في حالةِ قلق وتوتر، وهُم ينتظرونَ عودةَ رسولِ "أونياس الرابع" من عِند الملك.

"أونياس" رجلٌ حكيمٌ نقيّ، يشبه أباه المقتول، أخبرهم بأنه يثق في رحمة "فلومتر" ملك "كمت"، وينتظرُ رسوله ليُخبره بموافقته على دُخولِهم أرضَ مملكتِه والاحتماء بها، بعد أن فروا هاربينَ من "يهودا".

الحياةُ هناك لم تعُد آمنة لـ"الحسيديم" الأنقياء، بعد أن دنس رجال "ياسون" أرض "الهيكل"، وذبحُوا الخنازيرَ بداخله، وقتلوا كاهنهم الأكبر "أونياس الثالث". كان عليهم الرحيلُ والهروبُ قبلَ أن يقتلهُم "مينلاوس" الكاهن الأكبر الجديد للهيكل، كما أمر بقتل "أونياس الثالث" بدم باردٍ.

بجوار الخَيمَة الجانبيةِ جلس "أونياس" الابنُ يستندُ بجذعه إلى حبلها المُشدود، ينظرُ لظلام السماء بصمتٍ وإجلال. عشراتُ الأمور

تتداخلُ برأسِه وتتصارعُ، يطالب كلّ منها عقلَ "أونياس" بأن تكونَ له الأولوية في تفكيره.

الألوفُ من أتباعِه وأتباع والدِه المقتول فرّوا معه من "يهودا" إلى مصر؛ يبحثونَ عن وطن جديدٍ يُمكنُهم العيشُ فيه، وممارسة شعائرهِم وعباداتِهم دونَ تدنيس مثلما حدث بـ"يهودا".

لم يستطع أحدٌ من جماعة "الحسيديم" أن يتعايشَ مع تدنيس بيت المقدس، وتدنيس الهيكل. جميعُهم يتبعُونه؛ حِفاظًا على دينِهم وحياتِهم، الكلّ مسئولونَ منه، وعليه حمايتُهم جميعًا، وضمانُ الأمن والحياةِ لهم.

يتذكّر مقتلَ أبيه، والألمُ يعتصرُ صدرَه ويُدمي قلبَه، لم يستطع الدفاع عن أبيه المغدور به من قِبل "أندرونيكوس"، نائب الملك.

الأيدي التي تُرفع للسماء مُتضرعة للرب ليحفظ الهيكل لا يُمكنها أن تُمسكَ بفأس وتقتُل.

كنوزُ الهيكل المدفونة أمانة بين يديه الآن، بعد أن استطاع أخذها معه قبل الهُروب. يثقُ بإيمان شديدٍ أن الربّ سينتقمُ مِمَّن دنس الهيكل.. ولن يتركَه هو وأتباعَه دُونَ رحمةٍ ورعايةٍ.

زوجتُه تجلسُ بخَيمتهِا، تنظر له من بين قماشِها المقطوع، وطفلاهما الصغيران يفترشان فخذيها. تعرفُ بداخلِها أنّ الربّ يُحبّ زوجَهَا، ولن يتركهم جميعًا دون أن يُرسلَ لهم الرحمة. أخبرها زوجُها كثيرًا عن ذلكَ من قَبلُ، قصّ عليها أمرَ النّبوءة.. نبُوءة "إشعياء" تقول إنهم سيُشيّدون مَذبحًا للربِّ بمُنتصفِ أرضِ "كمت". كثيرونَ لا يُصدّقونَ تلك النبوءةَ، ويُشكّكونَ فيها، لكن زوجها المُؤمن المُخلص يَثقُ بها ويُصدّقها.

أزاحَت رأسَي الطفلين عنها برفق، وخَرجَت تُلامس رملَ الصّحراءِ بجلدِ قدمَيها نَحو زوجِها المُتأمّل في السّماءِ. جَلسَت بجواره تمامًا، وهي تَضعُ كَفها على ذِراعِه وتَربتُ عليها برقةٍ ومَودّةٍ:

- عزيزي أوني، عليكَ الراحة بعض الوقت.

نظر إليها يتأمّل وجهَهَا بهُدوءٍ، ورغم عتمة المَكانِ، فإنّ بوجهها نورًا جعله يقرأ مِلامحِها كما اعتاد دائمًا. النظر إليها يُريح قلبَه ويُطمئِنُ نفسَه... وكيف لا؟ وقد رأى وجهَها وهو يُصلي للرب بالهيكل قبل أن يُقابلها أو يَعرفها.

مَرّت بعقلِه كطيفٍ مُلهم رقيق تبتسمُ له، ويقطر من بين كفيها ماءٌ عَذبٌ تذوّقَ منه قطراتٍ قليلة، فشَعر بالراحةِ والارتواء.

الربّ أرادها له ودفعَه لحُبِّها، كأنّ الحياةَ تجسدت له في جسدِها وروحِها وابتسامتِها التي لا تُفارق وجهَهَا أبدًا.

- لا يُمكنني الراحة، ولم أتلقّ بَعدُ ردًّا من الملك.
- اطمَئِن لن يتخلى عنك الربّ؛ وأنت تعملُ على حمايةِ الهيكل.
- مُطمئنٌ فقط، لِأنك بجواري.
- كُلنا نسيرُ معكَ وخلفكَ، ونطمئنُ لِأننا بجوارك.

كلاهما يعلمُ أن الرب لن يتخلى عنهم جميعًا ويتركَهُم دونَ رحمة، يَثقونَ تمامًا في أن الطريق نحو وطن الأجدادِ هو ملاذهم ونجاتُهم. منذ تدنيس الهيكل وهُم يستعدونَ لتلك الرحلة وينتظرونَ أمرَ الربِّ في التحرّك، أخبرهم الأبّ قبل قتله بأن يفعلوا ذلك، إذا اقتضت الأمور.

لم يُعانِ "أونياس" في دعوة التابعينَ للمُضي معه في رحلتِه. الجميعُ يُؤمنون بأن الرب هو من يُقرر لهم ويأمر، وعليهم الطاعة والتنفيذ.القُلوبُ كلها مُؤمنة بيقين صادق بحتميةِ الحدوثِ والهجرة، منذ ذلك اليوم الذي علمُوا فيه أن الملكَ أرسلَ وزيره "هيليودوروس" ليقتحمَ الهيكلَ.

ارتدى الكهنة ملابسَهم واصطفوا أمامَ المذبح يتضرعونَ للربِّ أن يحفظ الهيكلَ وكُنوزَه مِن كلّ سُوءٍ. استجاب الربّ دعاءهم، وأرسل "الملائكة" تُدافع عن الهيكل، وتُجبر الوزير المغرور على الخروج والمُغادرة.

لم يَرَوا الملائكةَ بأعيُنِهم، ولكنهم رَأوا جُنودَ "هيليودوروس" وهُم يفِرّون من الهيكل، ويُلقون أسلحتَهم، والفزعُ يتمكّنُ مِنهم.

الربّ لا يكُفّ أبدًا عن صُنع المُعجزات.. الرب يُحبهم ويحمي الهيكل. إنهم الأنقياءُ المُخلصونَ، ولا يَبتغُونَ شيئًا سِوى طاعةِ الربِّ وعبادتِه.

الظلامُ حَولَ الخِيام سهّل الأمرَ على "أوري"، وجعله يَتسللُ بسُهولةٍ حتى الخَيمَة البعيدةِ التي تُوجد بها "أريلا" مع عائلتِها.

صوتُ صَفيره الخَفيض جعلَها تَعلمُ بوصولِه وتتسللُ بهدوءٍ لمُلاقاتِه.

إنها تَعشقُ فتَاها ذا الجسد القويِّ الذي يجعله يُشبه في هيئتِه وقوامِه المُصارعينَ. جسد عِملاق، وقلبُ عُصفور صغير، هكذا تراه، وهكذا يكونُ. عَينان واسعتان بأهدابٍ شديدةِ السّوادِ، وبَشَرةٍ تميلُ للسّمرة مع عَظم وجهه البارز.. كل هذا يُزيدُه جَمَالًا وحُسنًا.

الظلامُ أشعَرها بالطمأنينةِ، وجعلها تُلقي جسدَها الصغيرَ بينَ ذِراعيه فورَ رؤيتِه. بينَ ذراعيه تنسَى كلّ شيءٍ يُفزعُها، وتَشعرُ بالراحةِ والأمانِ.

كانا سَيتزوّجَان لولا بَدء الرحلةِ، عائلتُها لا تُمانِعُ ولا ترى في الفتى عيبًا، لكن لا زواجَ الآنَ إلا بعد الوصول، وانتهاء الرحلةِ والمُعاناة.

أخذ يدهَا، وابتعَدا كثيرًا، حتى أصبحت الخيامُ غيرَ مرئيةٍ على الإطلاق.رداؤها الخفيفُ لم ينتظر أكثرَ من ذلك ليُصبحَ مُكومًا حَولَ قدميها، وتحتمي بجسدِه من لفحةِ البردِ.

قلبُه يشعّ تلك الحرارةَ التي تُزيح عنها برودةَ الشّتاء، كأنه شمسُ الصيفِ.

أرادت أن تُخبره بأنها اشتاقت إليه، ولكنّ شَفتيَهَا المَعصورتين بينَ شفتيه لم تتمكنا من الحديثِ. القُبلاتُ ستُخبره بكُلِّ شيءٍ، وتُسمعُه ما يَجيشُ بصدرها.

سَاقَاها تَجدان موطنهما حَولَ جذعِه، وتُصبح كأنها طفلة محمولة بين ذِراعيه، ويَدَاها حولَ رقبتِه؛ تخشى أن يفلتَ منها، أو تفلتَ منه.

كِلاهما يتعجّل الوصولَ والوقوفَ على أرضِ وطنهما الجديد.

مشاجرة دائِمة لم تُحسم أبدًا،هي تُريد ابنًا قويًّا يُشبهه، وهو يُريد ابنة جميلة تحملُ ملامحَها الرقيقةَ، وعَينيَها البُنيَّتَين.

ساعاتُ الليل تنفرط كحباتِ العِقد، ولم ينتهيا من حديث الشّفاه المُتعانقة. عليهما العَودة قبلَ بزوغ نور الصباح؛ حتى لا يَراهُما أحدٌ من تلك الجُموع الكثيفة. طمأنَها أنه سيتحدثُ مع عائلتها، بمُجرد أن يدخلوا مصر، وتستقرَ بهم الأرضُ.

الجميعُ ينتظرون تلك اللحظة التي تصل فيها رحلتُهم إلى نهايتها، ويتركونَ الخيامَ وتحيط بهم جدرانٌ قوية مرة أخرى، كما كان الأمر في "يهودا".كلهم مشغولونَ بالوُصول والشعور بالأمان إلا شخصًا واحدًا، "أونياس" الذي لم يستطِع النومَ والراحة؛ من فرط خشيتِه على ما تحمِله الصناديقُ والتوابيتُ في خَيمتِه من كنوز الهيكل.

١٨٢٥م - «السودان»

انتهَت رحلة "لينان" بالجنوب؛ بعد أن تَتبع منبعَ النيل الأبيض، وأنهى مهمته كما اتفق مع الرابطة الإفريقيَّة. رحلة العودة أسرعُ من رحلةِ الذهاب، فقط عليهم أخذ المَركب الكبير، والسّير مع اتجاه جَريان النهر العظيم.

"نسيم" تشعر بالخوفِ والاضطرابِ؛ وهي تُغادرُ أرضَها ووطنَها لأول مَرّةٍ. لكنها تَلتمسُ الأمانَ من زوجها "لينان"، المُهندس الشاب، الذي وقع في حُبِّها؛ مُنذ رآها وهي تحملُ له قِربة الماءِ الباردِ.

له طلة جذابة وجميلة، بشرتُه بيضاءُ شديدةُ البياض، بعكس كلِّ من عَرَفتهُم من رجال، حَاجبَان كثيفان سوداوان، وشاربٌ لا يختلفُ عنهما، كأنّ حدودَ وجهه مُحددةٌ باللون الأسودِ، لتُزيده هيبة ووقارًا رغم ابتسامته المَرسُومة بدقةٍ فوقَ ملامحِه باستمرار.

فوقَ سطح المركبِ كان "لينان" يجلسُ دائمًا في المُقدمة، فوق مقعدٍ كبير من الخَيزُرَان جَلبه معه من الجنوب، وهو يتطلعُ بتفاؤل وحماس للأمام ينتظرُ الوصولَ بشغفٍ بالغ. عروسُه السمراء تقفُ بجواره، تستندُ إلى حبل الشّراع، كأنها تمثالٌ من الآبنوس.

جَمالُها لم يخفت مُنذ رآها، سمراء ممشوقة، بفم مرسوم وشَفتَين مُكتنزتين شَهيتين ووجنتَيها تَنضحان باللونِ الأحمر رغم سُمرتها الخمريَّة. شعرُهَا أسود على شكل ضفائر مُتعددةٍ رفيعةٍ مَشدودةٍ بحدَّةٍ من فروةِ رأسِها. جسدٌ مفعمٌ بالأنوثة، كتلك التماثيل الإغريقيّة التي كان يُشاهدها مَشدوهًا في باريس.

إنه رجلٌ محظوظ أن يَجِدَ زوجة مِثلهَا بهذا السِّحر والجَمال، وتلك الطاعة التي أذهلته منذ اللحظة الأولى.

لقد غرقَ تمامًا في سِحر الشرقِ، وأصبحَ عاشِقًا مُتيّمًا به، وبكل تفاصيلِه.اتخذ قراره سابقًا بالمكوثِ في مِصرَ والحياةِ بها وممارسةِ عملِه على أرضها، لا يشعر بحنينٍ إلى باريس مُطلقًا، وكأنه وُلدَ منذ البداية في هذا المكان. فقط يشتاقُ لوالدِه ضابطِ البحريّة السابق، وأول أصدقائِه في الحياة.

الخطاباتُ بينهما لا تنقطع، ولا يَكفّ أبدًا عن قصّ كل شيء لوالده أول وأكبر المُتحمسينَ له، وما يقومُ به من عمل. والدُه يُؤمن تمامًا بما يقوم به ابنُه المُهندسُ النابغُ. في مصرَ يُمكنه الاكتشاف وصناعة التاريخ المُشرّف أضعافَ ما كان يُمكن أن يحدث، لو أنه ظل بجواره بفرنسا.

عندَ عودتِه إلى مصر يجب عليه الراحة ولو قليلًا بعد ما بذله من مجهودٍ في رحلتِه إلى الجنوب.لقد كان الأمرُ شاقًا جدًا.. حتى إنّ حمرة وجنتيه اختفت، وحلت محلها سُمرةٌ مُلتهبةٌ كأنه يضعُ قناعًا فوقَ وجهه.

يجب أن يتمتعَ ولو قليلًا مع عروسِه الفاتنةِ قبل أن تنزلقَ قدمُه مرة أخرى، في غياهِب البحثِ والعملِ. أيام ويصلُ مركبهم إلى جنوب مصر، وبعدها يعودُ إلى القاهرة كما كان.بالتأكيد "نسيم" ستُعجبها الحياةُ في المدينة الجميلة ذاتِ المباني المُرتفعةِ الكبيرة.للبيوتِ ذاتِ الجُدران المُرتفعة هيبة وسُلطان لا يُوجدان في الأكواخ والخيام.

لم تَعتَد تلك الحياةَ من قبل، لكنه يعِد خطتَه حتى تتأقلمَ بسرعة، وتتخلى عن مخاوفِها من مشاعر الاغتراب. لن يختلفَ الأمرُ كثيرًا، فهُو يُعامَل من الجميع على أنه رجلٌ أجنبيّ ويُنادونه بـ"الخواجة"، أو "المسيُو". ستُصبحُ زوجتُه الجديدةُ شريكة في عالمِه، وتحصلُ على لقب "مَدام لينان".

يبتسمُ كلما فكّر في ردِّ فِعلِهَا وهي تجلسُ في بيتِه الكبيرِ ذاتِ الجُدرانِ المُرتفعة، وحولها الخادماتُ يُقدِّمنَ لها فروضَ الطاعةِ والاحترام. لن تحملَ قِربة الماء لأحدٍ بعد ذلك، بل ستجلسُ مُتكئَة،

وتطلبُ كُوبًا من الماءِ الباردِ من خادمتِها، إنه يُحبها ويُبهجه أن يتخيلَ تلكَ الحياةَ الناعمة لها.

سيعُودانِ مُباشرةً إلى منزلِه بالقاهرة؛ يَستريحَانِ من عناءِ ومشقةِ السفرِ، ثم بعد ذلك عليه أن يذهبَ إلى ذلك المكانِ على حُدود القاهرة الذي طلبَ منه "ريتشي"، رئيسُه في العمل، أن يُلقيَ نظرةً عليه، ويُخبرَه برأيه.

العجوزُ الإيطالي الماكر "ريتشي" كثيرًا ما يزجّ به في مثل هذه الأمور التي يتجنّبها، وفي الوقتِ نفسِه يخشى أن يرفضها، ويُغضبَ جلالة الوالي. المصريونَ القُدماءُ تركوا آثارَهم بكُلّ مكان، كأنهم يقصدونَ تعذيبَه هو على وجهِ الخُصوص. لا يَمُرّ وقتٌ حتى يكتشفوا مكانًا جديدًا، ويطلبوا مِنه بَحثه ودِراسَته. لا يُريد أن يتذكر شيئًا يُعكر صفوَ مشاعِره، المكانُ الجديدُ كما أخبره "ريتشي" خاوٍ تقريبًا، إلا من بعضِ الحجارةِ الضخمةِ. الوالي بالتأكيد يظنّ أن هناك كُنوزًا أسفلَ تلك الحجارةِ من ذهبِ الفراعنةِ.

نهمُه لجمع الذهبِ لا يتوقفُ أو يفتُرُ، خُصوصًا لو أنه من زمن بعيدٍ لمُلوكٍ سبقُوه في حُكمِ البلادِ، يعتقدُ أنه وريثٌ لكلِّ من سبقوه من مُلوكٍ، وكلّ ما يُوجد تحت الأرض مِلكٌ له.

١٤٥ ق.م ـ «توشريت– سيناء»

رَحَلَ الليلُ بعد أن انتهت ساعاتُ حراستِه للصحراء ومع ذلك لم تظهر الشّمسُ بوضُوح، ما زالت عالقة مُستترةً خلفَ السّحبِ الضخمةِ المُختلطِ بياضها ببقع سَوداء. شروقٌ بملامح الغروب، وقطرات المطر تتساقط سميكة حادة مُتباعدة المسافةِ والزمن.

"أونياس"، كما هو، يجلسُ مستندًا إلى حبلِ الخَيمَة ينظرُ للسّماءِ كأنه يُحدِّثها وتُحدّثه. قطراتُ المطر تسقط فوق جبينه، ثم تختفي بين ثنايا لِحيتِه الكثيفة. يقتلعُه من صمتِه صوتُ جلبةٍ يأتي من مُقدّمة المُعسكر، ينهضُ بهدوءٍ مُتطلعًا لِمصدر الصوت.

الأصوات تَضجّ، وتُفسِّرها آذانُه، لقد عاد رسوله مُمتطيًا جَوادَه ويتجه نحو خيمتِه مباشرةً مُخترقًا الجموعَ المشتاقة لسماع الأخبار. رذاذ المطر يتزايدُ والمسافاتُ بين قطراتِه تكاد تتلاشى، والزمنُ بين كل قطرة وتابعتها يكاد يختفي، حتى إنك تستطيعُ رؤية الماءِ كأنه خطوط مستقيمة تسقط من السماء.

تَرجلَ الرسولُ قبل موضع "أونياس" ببضعةِ أمتار، وهو يمسحُ على وجهه بكفه يُزيلُ أثرَ البَلل قبل أن يقفَ أمامه مباشرةً مُبتسمًا:

- أبشِر يا سيِّدي.. النبوءةُ تتحققُ.

وكأنه قالها بمِلءِ صوتِه، ضَجّ المُعسكر بالصّياح والتهليل، وقفزت الأجسادُ، حتى إنّ خُطوط المَطر المُستقيمة كأنها تبعثرت كلّها، وتداخلت بعشوائيّةٍ والتحام.

قصّ الرسولُ على قائده كلّ ما أخبره به "فيلومتر"، ملك كمت. الملكُ العظيمُ يسمحُ لهم بدخول "كمت"، والاحتماءِ بسلطانِه، ويَعِدهم بالحمايةِ والأمان. لهم أرضُ "ليونتوبوليس" يعيشونَ فيها، ويسكنونَ ويتعبّدونَ، أرض المُعسكر القديم وأنقاض معبد الإله "باشت".

السعادةُ تغمرُ قلوبَ الجميع، ويشعرونَ بعد عناءٍ بالراحة والأمان، وقربِ الخلاص. الخروجُ من الوطن إلى المجهول أصعبُ على النفوسِ من أي شيءٍ سِواه.

"أونياس" يدخلُ خيمتَه يُقبِّلُ جبينَ زوجتِه المُخلصة، وهي تمُدّ يدَها تمسحُ الماءَ من فوقِ وجهه، تَحسبُه من المطر، ولا تعرفُ أن ماءَ المطر اختلط بدموع الكاهن الحزين. جلسَ بين الصناديق والتوابيت يتفحصها، كأنه يتأكد من سلامتها، وهو يتذكّرُ والدَه ووصيتَه، أوصاه

أن يحمي عُباد الرب، رجالًا ونساء وعَجائزَ وأطفالًا، وأن يحفظ كنزَ الهيكل بحياتِه.

كُلّهم يعلمونَ أن الملك "فيلومتر" يحملُ في قلبه محبة لهم هو وزوجته، وأنه لن يتوانى عن قبولهم في مملكتِه وحمايتِهم. الآن عليهم الإسراع في استكمال رحلتهم، والمُضي قُدمًا نحو "ليونتوبوليس"، وطنِهم الجديد.

خارجَ الخَيمَة كُلهم تحتَ المطر، يرقصون ويصيحون من الفرحة.

"أريلا" تتوسط الفتياتِ، ويتحركن معًا في دوائرَ، ويحتفلن بالبُشرى المُطمئِنَة. تتحركُ بنعومةٍ وانسيابيةٍ معهن، رُغم أن عينيها لا تريان غيرَ شخص واحدٍ "أوري" الذي يفعلُ مثلها بين أقرانِه، وكلاهما ينظر مُباشرةً في عَينَي الآخر.

دائمًا كان يراها مُختلفة عن الجميع.. كأنها مُضيئة وسط عتمةٍ لا تنتهي، فبشرتُها شديدةُ البياض وعيناها زرقاوان، وشعرها أحمر داكن، حتى يُعجبه ذلك النمش فوقَ وجنتيها. تجذبُه أينما ذهبت، وتَفتنُه مهما فعلت، فالأحاديثُ بين أعينهما لا تتوقفُ أو تنتهي أو تصلُ للنهاية. رداؤها البسيط يُغلفها بتلك الهالة، كأنه مصنوعٌ من خُيوطٍ من ذهب.

هي تُحب دائمًا تلك الملابسَ ذات اللون النّحاسي أو البرتقالي، أو ترتدي اللونَ الأبيَض ليشعرَ بأنها ملاكٌ جاءه من السّماء.

تراه بين رفاقه أقوَاهُم وأطولَهُم وأكثرَهُم وسامة، ولِمَ لا؟ وقد ورث حُسنَ الملامح من أمه التي أتت من الشَّمال، وتزوجت والده، أحد خدم الهيكل في "يهودا". لا أحدَ يتفوق عليه في قوتِه وصلابةِ بُنيانه، يغلبُ الجميعَ في ألعابهم، ولولا أن الكاهن أخبرهم بحرمة المصارعة لكان "أوري" بطلَ كلِّ الجولاتِ بلا مُنازع.

فتاها القويّ صاحبُ الصلابة والعضلات يحملُ بداخل هذا الجسدِ الفولاذي قلبًا لينًا يشبه قلبَ الملائكة. ا يتأخرُ عن ضعيفٍ أو مسكين.. تَذكُر عندما حمل جارتهم العجوز فوق كَتفه عندما أضناها السيرُ وصعوبة الطريق.

يُحبه الأطفال ويهرولون إليه يطلبونَ منه اللعبَ وتدريبَهم على مهارة الدفاع عن النفس والقتال، ورغم أنهم جميعًا من "الحسيديم" الأنقياء، فإن "أوري" يؤمن بأن الرب يُحبنا أقوياء نستطيع مواجهة الأعداء.

لم يستطيعوا الصبرَ والمكوثَ دقيقة واحدةً بعد بشارة الأمان والترحيب. الكلّ يتحركون بهمّةٍ وحماس، والأيادي تتلاحمُ وتتشارك في التجهيز للاستكمال.

المسافة حتى "ليونتوبوليس" تستغرقُ أسابيع، "أونياس" يضعُ أكبرَ ثقتِه في "أوري" القوي الشجاع. مُنذ بدايةِ الرحلة وهو يعتمدُ عليه، مع رفاقِه، لحماية الصناديق والتوابيت.

لا أحدَ يعلمُ ماذا يوجد بتلك الصناديق الضخمة أو التوابيت الثقيلة. لم يَعتد أحدٌ أن يسألَ الكاهنَ الأكبر عن شيءٍ لم يَبُح به من تلقاءِ نفسِه، حتى زوجته لم تسأله، واكتفت طوالَ الوقتِ بأن قبلت بالنوم في مساحةٍ ضيقةٍ مُرهقة في خيمتهم بجوار الصناديق. جميعُهم يعرفون فقط أن "أونياس" يهتمُ بها كثيرًا ويُوصيهم بالحذرِ والحرصِ عليها طوال الوقت، حتى باقي الكهنة لا يبدو على أحدٍ منهم أنه يعرفُ شيئًا مُحددًا مفهومًا.

فقط الأربعة الكبار من مساعدي "أونياس" الأقربون إليه يهتمونَ مثله بأمر الصناديق والتوابيت، ويُوزِّعون أنفسَهُم حول حَمَلَةِ الصناديق في أربع زوايا، كأنهم حراسٌ مُدرّبون. البعيرُ والخيولُ التي تجرّ العربات الخشبية والتي تحملُ تلك الصناديق تسيرُ دائمًا وسط الجموع. الكاهن يُريدها مَحمية بشعبه وقومِه، ولا تكون في المُقدمة

يراها بسهولةٍ من يمرّونَ عليهم، أو في المُؤخّرة بلا حمايةٍ وإخفاءٍ. لكن الأمر على كل حال ليس بلغز أو سِرّ عظيم، فتلك الصناديق، بلا شك، تحملُ متعلقات "الهيكل"، وكل "الحسيديم" يعرفون أن الهيكلَ وما يحويه كان هدفَ الملكِ مُنذ البداية.

حتى الوزير "هيليودوروس" عندما هَجمَ على "يهودا"، وحاول اقتحام الهيكل كان يبحثُ عمّا بداخِلِه. الغرباءُ فقط يَرَون من الهيكل كُنوزَه وما يحكيه البعضُ عما تركه النبي "سليمان"، لكنهم قومٌ مُؤمنونَ، يعرفون أن الهيكل في حماية الرب، ومن أجل الرب.

الربّ خلقَ الأرض كلها بيدٍ واحدةٍ، بينما الهيكلُ خلقَه بكِلتا يَديه.

١٨٢٥م ـ «القاهرة»

في شُرفة البيت الكبير جَلسَت "نسيم" شَاخصةَ البصر تنظرُ إلى مجرى النيل أمامها، وهي تضعُ كَفيها فوق رُكبتيها كأنها تمثالٌ لإحدى الملكات في مَداخل المعابد القديمة. زوجُها الشابُ المهندسُ المُتحمسُ يقفُ خلفها يُداعبُ قماشُ الستائر وجهَه، يتطلعُ إليها بعشق وافتتان، كأنه ينظر إلى لَوحةٍ فنيةٍ معلقةٍ وحيدةٍ متفردةٍ على أحد جدران المتاحف العريقة.

عدة أيام منذ وصولهما البيت، وهي لا تُغادر الشرفة إلا قليلًا. دائمًا تجلسُ هكذا، تنظر إلى النهر دون أن تفعلَ شيئًا. يعرفُ أن الأمر بالغُ الصعوبة عليها، إذ تحوّلت حياتُها بكل هذا الشكل دفعة واحدةً دونَ تحضير أو تمهيدٍ. تَخجلُ من الجميع حتى من خَدمِها الواقفينَ مُتأهبين مستعدين رهنَ إشارةٍ منها، لتلبية أوامرها وطلباتها مهما كانت، ومع ذلك، تتحاشى الجَميعَ وتَخجلُ أن تطلبَ من أحدهم شيئًا، وتُصر على أن تفعل كل شيء بنفسِها.

عندما حضرت لها مدام "إليت" لتُجهزَ لها ملابسَ جديدةً تليقُ بكونِها زوجةَ مهندس كبير مثل لينان، وَقَفَت صامتة جامدةً تتحاشى الحديثَ معها، أو النظرَ مباشرةً في عَينيها.

ورغم كل ما يعتري نفسها، فإنها لا يُمكن بأي حال من الأحوال أن ترفضَ أمرًا من زوجِها أو حتى أن تُناقشَه أو تسأل لماذا. فقط تَهز رأسَها مُبتسمة مُعلنة الطاعة التامة والقبول.

مدام "إليت" الماهرة صنعت لها عِدةَ فساتين في وقتٍ قياسيّ، واستطاعت ومساعدتها فك ضفائر "نسيم" المتعددة المُعقدة، وجعل شعرها الناعم حُرًا طليقًا يتطايرُ خلفَ رأسِها، كلما داعبه النسيمُ.

أصبحت تُشبه كلّ جميلاتِ المدينة المليئة بالأميرات وأصحابِ الوجاهة وزوجاتِ الرجال البارزين.

اقتربَ منها يضعُ كفيه فوقَ كتفيها، ويُقبِّلُ رَقبتَها كما يُحب أن يفعلَ كلما رآها شاخصة متأملة. يعشقُ شمَ رائحةِ جلدها.. رائحة جلدِها تفتنه أكثر من أي عطرٍ، حتى وإن كان من إسطنبول أو باريس. مُنذ زواجهما وهو يَهوَى تقبيلها أولّ شيءٍ بعد استيقاظِه، رغبتُه لا تتوقفُ في أن يكون رحيقُ فمها هو أول شيءٍ يتذوقه مع كل شروق جديدٍ.

لا يُخرجها من شرودها غيرُ وجوده معها، يُلاطفها ويُحدِّثها ويَقصّ عليها قصصَ رحلاتِه التي لا تنتهي. تعشقُ أحاديثه، وتجلسُ مفتونة بين ذراعيه تنظر إلى فمه وحركةِ شاربه وهو يتكلمُ، أو ممددةً تضعُ رأسها فوق فخذِه، تستمعُ إليه كأنها طفلة صغيرة مشدوهة مبهورة بكل حرفٍ يخرجُ من بين شفتيه.

الزمنُ يتغير، ولم تَعُد شهرزاد تقصّ الحكايات على مسامع شهريار. شهرزاد الآن تجلسُ مُنصتة بإجلال؛ تستمعُ إلى شهريار بمحبةٍ وشغفٍ لا ينقطعانِ.

ورغم كل ما جلبه لها من ملابسَ جديدةٍ مميزةٍ من أجود الأقمشة وأغلاها، فإنه مُتيمٌ باستمرار أن يراها بذلك الرداءِ من القماش المَرن، مثلما رآها أولَ مرةٍ. رداءٌ بلا حياكةٍ.. هو فقط عدةُ لفائف مُتجانسة متكررة تدورُ حول جسدِها. يفتنه أن يُمسك ببدايتِه ويجذبه بأصابعه وهي تلف حول نفسها مُبتعدة حتى يسقط عنها تمامًا، ثم تضحكُ بخجل، وتهرول تختبئ من نظراته العاشقة بين ذراعيه.

"لينان" يُدوِّنُ كلَّ تفصيلةٍ وكل همسةٍ تخرج من بين شفتيها، كأنها أعظمُ وأهمّ اكتشافاته، يكتبُ كيف تنام.. كيف تضحك.. حتى إنه دَوَّن في أوراقه حركةَ أهدابِها الرقيقة عندما تستيقظ في الصباح.

أيامٌ قليلة وعليه العودة من جديد لاستكمال أعماله كمُهندس مُهم في وزارة الأشغال العمومية. رئيسُه "ريتشي" يضع كل ثقته فيه وفي نبوغه وحماسه الدائم، وقدرته المُذهلة على حل المشكلات، وإيجاد طرق بديلة بكل بساطة ويُسر.

ما يشغله الآن هو أمرُ الزوجة الصغيرة الحَسناء، هي لا تتعاملُ مع أحدٍ غيره. ما زالت تتجنبُ الجميعَ، ولا تجدُ راحتها وهدوءَها إلا معه هو.. هو فقط. تَركُها وحيدة في بيته أيامًا، أو ربما أسابيع، أمرٌ مقلقٌ له بشكل كبير. القرارُ المثاليّ بالنسبة له ليشعرَ بالراحة والاطمئنان أن يَصحَبَها معه في كل مكان يذهبُ إليه، إذا تبين له أنه من الممكن أن يبتعد عن البيتِ أكثر من يوم. الخوفُ عليها من الوحدة والانزواء، وحرصُه على رؤيتها طوالَ الوقت والتنعم بكونها بجواره، كل هذا يدفعه إلى هذا الاختيار باقتناع تام ونفس راضيةٍ.

ثلاثة أشهر مرّت حتى الآن على زواجِه منها، لم يفتر حبّه لها وتعلقه بها لحظة واحدةً، بل يشعرُ بأنه يقعُ في غرامِها في كل صباح بشكل أكبر وأقوى. هي مِثلُ المحيط، كلما غاص في أعماقِه ما استطاع الوصول لنهايته أبدًا.

عشراتُ المرات بعد أن يتعبَ جسدُه ويستسلمَ للنوم تأتيه في أحلامه، ويتذكّر مذاق شفتيها، فيتحرك لسانُه رغمًا عنه فوق شفتيه،

يبحثُ عن طعم قبلتِها، حتى يستيقظ ويُعاودَ تقبيلها والارتواء من رحيق فمها من جديدٍ.

هُو غارقٌ في عشقِها، ولا يبحثُ عن شاطئ نَجاة.

١٤٥ ق.م ـ «ليونتوبوليس»

أرضُ "ليونتوبوليس" تحوي الكثيرَ من الحجارة وحطام المَعبد القديم المتهدم. ثمانية عشَرَ قبرًا على يمين حطام معبد "باشت" لقادة مُختلفين من قادة الجيش القدماء.

"ليونتوبوليس" كانت مُعسكرًا كبيرًا ضخمًا من قبل، قريبة من "هليوبوليس"، وتُعد نقطةَ الحمايةِ الأولى لها. الملكُ الكريمُ "فيلومتر" وَهبَ لهم مساحة كبيرةً من الأرض الخصبة حول المَعبد القديم المُحطم، لهم الحقّ في زراعتِها والعيش من خيرها وريعِها.

القلقُ ينتاب "أونياس"، والتوترُ يتمكنُ منه منذ وصولِهم أرضَهُم الجَديدة. نبوءةُ "إشعياء" تُحدد المكانَ بوسط أرض "كمت"، وتلك الأرضُ لا تقعُ بالمُنتصف بأيِّ حال من الأحوال. لا أحدَ من التابعينَ يعلمُ عن الأمر شيئًا، وهو بالتأكيد لن يوضحَ لهم ما يَجيشُ بصدره، لعلّ "إشعياء" كان يقصدُ معنى آخر غير الحساباتِ والمسافاتِ ودقةِ التحديد. عليه أن ينسى أمر تحديدِ مكانِ مذبح الإله الآن، العَوَامُّ لا يُفترض أن يُحيطوا عِلمًا بكل شيءٍ.

أهل "كمت" يُجيدون الترحيبَ بالغرباء، وإظهار الكرم والعطاء، استقبلوهم ورحَّبوا بهم، واندفعَ الكثيرونَ لتقديم المُساعدةِ والطعام والعون لهم. أهل "كمت" ينظرونَ لهم على أنهم قومٌ طيبونَ، هربوا من بطشِ الظلم وقلة الحيلة أمام قوة الشر والقهر.

الطبيعة الجغرافية لا تختلفُ كثيرًا عن أرض يهودا التي اعتادوا العيشَ بها لسنوات.

ذهبَ بعضُ قوم "أونياس" لتمهيدِ الأرض وزراعتِها وتقسيمِها كما تعلموا، وآخرونَ انضموا لفريق الكهنة؛ لتنظيف الأرض من الحطام وبقايا البناء.

كلماتُ "أونياس"، الكاهنُ الكبيرُ وزعيمُهم، كانت تخرجُ من صدره رزينة واثقة مُلهمة مُحفزةً وهو يدعوهُم جميعًا للتعاون والإيثار وبذل الجُهدِ لسرعةِ الانتهاء.

إنهُم يُعيدونَ ما فعله الأجدادُ ويبنونَ وطنًا جديدًا من بدايتِه، الكلّ يعملُ والأيادي كلها تحملُ المعاول. يزرعونَ الأرضَ ويبنونَ المنازلَ، ويبنون هيكلًا جديدًا يُصلون فيه ويَتعبَّدُونَ ويَذبحُون.

أخبرهم "أونياس" بصوتٍ أجش صارم وهو ينظر للسماء:

- الربّ لن يقبلَ عملهم إلا ببناء بيتٍ له والذبح.

أرسل الملكُ يطلبُ لقاءَ الكاهن في قصره المنيف، بالطبع يُريد سماعَ كل شيءٍ وأيّ شيءٍ عن "يهودا"، وما يحدثُ بها. كلّ من حكمَ "كمت" يخشى الشّمال وما يجلبُه الشّمالُ. الملكُ البطلميّ يخشى السلوقيين حكام "يهودا" والشمال، ويَعُدّ أيَّ عدو للسلوقيين كما الأخ والصَدِيق.

ذهب "أونياس" لتلبية طلب الملك، وبصُحبتِه الكاهنُ "آرون"، والكاهن "إيثان"، وبالطبع معهم الشابُ القويّ، وحامي الكاهن "أوري".

الملكُ "فيلومتر" يجلسُ فوق عرشِه مختالًا مُبتسمًا، وبجواره زوجتُه الملكةُ شديدةُ الحُسنِ "كليوباترا الثانية". كلاهما يُكِنّ مَودةً وحُبًا لليهود، ويَعُدّانِهم أصدقاء ومَحَلَ ثقةٍ كبيرةٍ.

توالت عباراتُ الشكر والامتنان على لسان الكاهن وهو يتعهد للملك وزوجته أن يُخبر الربَّ بكلِّ شيءٍ فعلوه من أجل قومِه من حمايةٍ ورعايةٍ وترحيبٍ.

- لكَ كلّ ما تريد أيّها الكاهنُ أنتَ وقومُك.
- نحنُ رعاياك يا مولاي الملك العظيم.

- عليك أن تخبر قومَك باسم العظيم "فيلومتر" بأنهم جميعًا في حمايتي ورعايتي.

- جميعُهُم يعرفون ذلك يا مولاي، ويشكرون صنيعَك ويُقدِّرونه.

الملكُ يبتسمُ ويُعجب بحديثِ الكاهن الذي يِحَملُ له التقدير والعرفان بالجميل، لكنه طوال الوقت ينظر إلى "أوري"، ويتفحصه باهتمام.

الملكُ عيناه على الشابِ الوسيم صاحبِ جسدِ المُصارعينَ، بينما الشابُ عيناه لا تُغادران عَينَي الملكة التي لم تَكُف ثانية واحدةً عن التحديق فيه مُبتسمة.

الملكُ يسأل ضيفه الكاهن عن كلِّ شيءٍ بالتفصيل، كما لو كان يُريدُ منه أن يُخبره باسم كل فرد من قومِه على وجهِ التحديد.

الملكة ترفعُ ذِراعَها المُغطى بالذهب والحُليّ النادرة المأخوذة من كنوز الملوكِ السابقين، وتضعُها حول رقبة الملك، وهي تُقرّب فمها من أُذنيه تَهمسُ إليه بشيءِ ما.

الملكُ يستمعُ إليها وهو يُدققُ النظر في "أوري" بتركيز واهتمام شديدٍ:

- أرى أنّ بقومِك رجالًا أقوياء أيّها الكاهنُ.

"أونياس" ينقلُ بصره بين الملك و"أوري"، وهو يبتسمُ بعد أن فهم المَغزى من حديثِ الملك:

- كلّهم رجالك أيها الملك العظيم، وفي خدمتِك.

- جيشي بحاجة لمثل هؤلاء، هُم الآن يعيشونَ مع عائلاتهم في مملكتي، ويجب عليهم المشاركة في حمايتِها وحماية ملكها.

الضيقُ يتمكنُ من "أونياس" الذي يبغضُ العُنفَ والحروبَ ولا يُؤمن بشيءٍ سِوى عبادةِ الربِّ والتضرع له، ومع ذلك يعرفُ بقرارة نفسه أن عليه طاعة الملك وتجنّب إغضابه بعد كلّ ما قدمه لهم من حمايةٍ وعهدٍ بالأمان:

- هُم رهنُ إشارتك يا مولاي.

يَصيحُ الملك على قائد حرسِه ويأمره بصحبة الكاهن إلى "ليونتوبوليس"، واختيار من ينفعُ من قوم "يهودا" للانضمام لجيشِ المملكة.

الملكُ يُشير بإصبعه إلى "أوري":

ـ وأنت؟

يرتبكُ الشابُ بشدةٍ، فهو لم يَعتَد رؤية الملوكِ من قبلُ، أو الحديث معهم. الحُمرة تملأ وجهَه ويهربُ من نظرات الملك إلى وجه الكاهن الذي يُطمئنه بابتسامةٍ هادئةٍ وإيماءةٍ من رأسِه:

- أمرُ مولاي الملك.
- لا تجعلني أنتظرُ ردَّك مرةً ثانيةً أيّها الشابُ.
- عُذرًا يا مولاي.
- أنت.. ابقَ هُنا بالقصر ولا تُغادر.

أراد الشابُ المرتبكُ أن ينظرَ لوجه الكاهن من جديدٍ، لكنه خشى إغضاب الملكِ فأسرع بالرد مُتلعثمًا:

- أمر مولاي الملك.

الملكة تبتسمُ بنصفِ فمها، وهي تُحرِّكُ أناملَها بين خُصلات شعرها، وعيناها بئرٌ سحيقة يشعر "أوري" بأنه يسقط فيها، ولا يُمكنه النجاة أو مُجرد الصراخ.

عاد الكاهنُ ورفقتُه دونَ "أوري" ومعهما فصيلة من جُنود الملك وقائد الحرس.

الرءوسُ مُتطلعة تنتظر عودة الكاهن ومن معه بشَوق، وبينهم تقفُ "أريلا" على مُقدمة قدميها؛ تنتظر بشوق عارم عودةَ "أوري".

الموكبُ يقتربُ والملامحُ تتضح، ولا تستطيعُ رؤية فتاها بين الوجوه. الجوُ مشمسٌ، ولا يحملُ برودةً، ومع ذلك انتابت جسدها رجفة شديدةٌ وهي تُحركُ مُقلتيها بفزع تبحثُ عن "أوري". الشك أصبح حقيقة، وتأكدت من عدم حضوره، الكاهنُ يُخبرهم بسبب قدوم قائد الحرس، ويطلب مِمّن يختارهم الطاعة والالتزام بأوامره.

البعضُ فرح لانضمامِه لجيش الملك، وأنه سيصبحُ من الفرسان، والبعض انتابه الفزعُ والحزنُ والبغضُ، لأنه يحملُ جسدًا جعل قائد الحرس يختاره، ويُشير إليه للانضمام.

مرَّ الوقتُ ثقيلًا على قلوب المُفارقين، رغم أن قائدَ الحرسِ أخبرهم بأنهم سيعودون لهم ويزورونهم كلما أرادوا، بعد انتهاء فترة الإعداد والتدريب.

الكاهنُ بعد انتهاءِ الأمر أشار بحزم باتجاه منتصف أرض المعبد القديم، وهو يتحدثُ بصوتٍ مرتفع ليسمَعَه الجميعُ:

- مِن الغد، عليكم البدء في بناءِ بيت الرب، وصنع الهيكل الجديد.

الأيادي ترتفعُ للسماء، تدعو الربّ وتطلبُ منه العونَ والرحمة.

دخلَ الكاهنُ خيمتَه، وأشار لزوجته ألا يتبعه أحدٌ حتى هي وطِفلاهما. هي تعلمُ ذلك، وتعرفُ أن زوجَهَا يُريد الخَلوة. هرولت نحوها "أريلا" وهي تنتحبُ ولا تكفّ عن البُكاء ترجو منها لقاء الكاهن وسؤاله عن "أوري". الزوجة المتدينة تربتُ على كتفِها، وتضمّها وهي تحاول تهدئتها، وتطلب منها الانتظار حتى ينتهي الكاهنُ الأكبر من خلوته.

لا يُمكن لأحدٍ اقتحام خَلوةِ الكاهنِ لأيِّ سببٍ، مهما طالت خلوته، يجب ألا يدخل عليه أحدٌ مهما كانت الأسبابُ.

جلسَ على ركبتيه أمام التوابيت واضعًا قبضتيه على صدره، يُتمتمُ بصوتٍ خفيض حتى سمعَ صوتًا يملأ أذنيه:

- عليك البدء يا أوني.. في الغد نبدأ الحفر.

الصوتُ يطوفُ من حولِه، وكأنه يخرجُ من كلِّ الزوايا والاتجاهات بالوقت نفسِه:

- احفر لأبعد نقطة يُمكنك الوصول إليها، ودعني أكمل بعدكم.

- سأفعلُ.

- يجبُ ألا تظلّ التوابيتُ بالخارج أكثرَ من ذلك أيها الكاهنُ الأمينُ.

- أعرفُ ذلك، وأعمل من أجلِه.

اهتزت التوابيتُ والصناديقُ، وغلب رأسَه صوتُ طنين حاد وقوي، كاد يُدغدغ عظم رأسه وصدره قبل أن يعودَ الهدوءُ للخَيمَة كما كان.

الهدوءُ بعد الاضطراب يُشبه شربة الماءِ بعد ظمأٍ.

هذا ما شعر به "أوري" بعد أن انتهى به الأمر بغرفة في أحد أركان القصر وحيدًا يتطلعُ لجدرانها بدهشةٍ وافتتان فاتحًا فمه.

أخبره خادمُ الملكة، ذو الجسد الناعم الأملس، بأن الملكة اختارته ليكونَ أحد حُراسها، وأن تلك الغرفة بجناح الملكة الكبير ستكون غرفتَه الخاصة. قدَّم له ملابسَ جديدةً نظيفة تشبه ملابسَ الحراسِ الذين رآهم بالقصر. وضع أمامه عدةَ قارورات وأمواس للحلاقة، وأخبره بأن يستعملَهَا جميعًا لتنظيف وتعطير جسدِه كل يوم، ومع كلّ صباح. الملكة تُحب رائحة العطور، وتحب أن يكونَ كلّ من حولها ذا رائحةٍ طيبةٍ تختارها بنفسِها بعنايةٍ.

فزع "أوري" عندما شَعَر بيد الخادم الأملس تمتدُ من خلفه لخلع ملابسه. انتفض بجسده، وابتعد خطوتين وهو يتطلعُ إلى وجهِ الخادم الدائم الابتسام بلا سببٍ. نظر إليه الخادمُ بابتسامةٍ خبيثةٍ صفراء، وجلسَ على مقعدٍ من الفرو، وأشار إليه بصوته الرفيع المُزعج:

- اخلع ملابسَك بنفسِك.
- ولماذا أخلعُهَا؟

تتسع ابتسامتُه وهو يُحركُ لسانَه فوقَ شفتيه بحركةٍ هادئةٍ قبل أن تنتهي وهو يقضم شفتَه السّفلى:

- يجبُ عليَّ تنظيف جسدِك بنفسي، وإزالة الشَّعر منه.
- ولماذا يجبُ عليك ذلك؟
- هذا عملي وعليك طاعتي وألا تُجادلني مُجددًا.

التوترُ يجتاحُ "أوري" وهو يمتعضُ من نظراتِ الخادم وحركة لسانه الغريبة المتكررة:

- وماذا إن رفضت؟
- سأخبرُ الملكة بذلك، وسيتم إنهاءُ خدمتِك معها.
- اِفعَلها وأخبرها بأنني أرغبُ في الرحيل.

تحولت ابتسامة الخادم لضحكةٍ صغيرةٍ تخرجُ من أنفِه:

- لكَ ذلك.. كما تُريد.

نهضَ الخادمُ الأملس المبتسم، وتحركَ بهدوءٍ أوقع الريبة بقلب "أوري" باتجاه الباب.

التفتَ بجسدِه قبل أن يُغادر وهو يضربُ بيده على مُقدمة رأسه:

- اعذرني أيّها الشاب، نسيتُ أن أخبركَ بشيءٍ.

يلوي "أوري" فمه، وهو يُجاهد أن يَظهر أمامه صلبًا غير مضطرب:

- فلتفعَل.

- عندما أخبرُ الملكة برفضك ورغبتك في الخروج من هنا ستضطر إلى ترك شيءٍ يخصك.

- وما هذا الشيء؟

تعلو ضحكة الخادم الصفراء، وهو يتلوى بجسده النحيل، ويُحرك يده في الهواء بسخرية:

- رأسك.

قبلَ أن يُغادرَ تمامًا، هرول خلفه "أوري" يجذبه من ردائِه الحريري:

- توقف.. ماذا تقصدُ بحديثِك هذا؟

- من يُغضب الملكة ويرفض خِدمتها، يُقطع رأسُه أيها اليهوديّ المغرور.

طأطأ "أوري" رأسَه لأسفل باستسلام، وجذب الخادم يُعيده إلى غرفته الباردة مرةً أخرى بعد أن أغلق بَابَها. خلع ملابسَه قبل أن يطلب منه الخادمُ، ووقف قاطبًا حاجبيه، وهو يكتمُ غيظه وضيقه. دار الخادم حوله أكثر من مرةٍ، يتفحص جسده بشكل جعل "أوري" يشعر بالغثيان وبالرغبة في التقيؤ.

تحرك الخادمُ نحو أحدِ الأركان، يجلب مُوسًى صغيرًا للحلاقة، له مَقبضٌ من العاج. أمسك الخادم بمُوسى الحلاقة، وبدأ عمله الغريب غير المُعتاد على الشاب المذهول، أزال أغلبَ الشعر عن جسده، وهو لا يتردد في وضع يده في أي مكان دونَ ذرةِ خجل واحدةٍ. أزاح الخادمُ ستارة بجانب الغرفة، وأمر الشاب بالنزول والجلوس بمغطس مُمتلئ بالماءِ، بعد أن سكبَ به كمية كبيرةً من عُطور القارورات.

أخيرًا تركه وهو لا يكُف عن إظهار ابتسامةٍ صفراء لا تحملُ أيَّ معنًى مُطمئن، ولم ينسَ أن يُخبره بأن عمله في حراسة الملكة سيبدأ من صباح الغد.

الشابُ الوحيدُ بغرفته رغم قوة جسده تغلبه الرغبة في البُكاء كأنه طفلٌ صغيرٌ فقد يد أمِه في سوق مليئةٍ بأيادي الأمهات. تعتصرُ قلبَه حرقة الاشتياق إلى حبيبته "أريلا"، يعرفُ جيدًا حالها الآن، وهي تجلسُ وحيدةً لا تعرفُ عنه شيئًا. وعَدَها ألا يتركها أبدًا، وها هو يخلفُ وعدَه بعد أيام قليلةٍ من وصولهم أرضَ الوطنِ الجديد.

الحقيقة كانت أضعاف ما يظنه "أوري"، الفتاة المخلوع قلبُها لم تتوقف ثانية عن البكاء، حتى وصلت بعد عناءٍ إلى خَيمَة الكاهن العظيم. جلست أمامه ترتسمُ لوعتها على كلِّ ملامحِها الرقيقة، وجسدِها المرتجف، وهي تستمعُ إلى الكاهن، وهو يقصّ عليها كلَّ ما حدث. هو لا يعرفُ حقيقة مصير الشاب القريب إلى قلبِه ولكنه أمامَ لوعةِ "أريلا"، لم يجد مَفرًا من طمأنتِها أن فتاها، وزوجَها في المستقبل بالتأكيد، سيعودُ. سيعود فارسًا يمتطي حِصَانًا قويًا، وهو يرتدي ملابسَ الفِرسان ليأخذها معه، ويُزوّجها هو بنفسِه عندما يكتملُ بناء الهيكل.

حديثُ الكاهن يحملُ الطمأنينة والأمل.. لكن قلبها منذ لحظة معرفتها بغياب "أوري" لا يحملُ غير الفزع واليأس.

الليلة الحزينة يسبقها نهارٌ مليءٌ بالأحداثِ المؤلمة.

طوالَ الليل لم تُغمض عينٌ لأوري أو أريلا، أو حتى أونياس.

الكاهنُ حاملُ الأمانة لن يشعر بالراحة إلا بعد بناء الهيكل، عقله يراجعُ ويُفندُ ما حدث في لقاء الملك ويُناقش انضمام جزءٍ غير قليل من رجالِه لجيش الملك. بالتأكيد كلّ ذلك يصبّ في مصلحة قومِه الأنقياء المُخلصين، فأن يكونَ لك رجالٌ بينَ صفوفِ الجنودِ حماةِ الوطن لهُو أمرٌ مهم، ودليل حظوة وثقة لهم في بلاط الملك البطلمي الباحث عن داعمين مدافعين عن مُلكه.

"أريلا" المكلومة تتكومُ فوق فرشتِها من الصوف ولا تجفّ دمُوعُها، شيءٌ ما بصدرها يُخبرها بأن الحزنَ الدائمَ قادمٌ لا محالة. كانت تُحب الحياة في "يهودا"، لم ترغب يومًا أو تحب الرحيل وترك وطنها والهجرة منه لأي مكان آخر. إذا كان تركُ الأوطان يحملُ النجاة.. فأين النجاةُ من قسوةِ الغربةِ ووحشتِها؟

١٨٢٥م ـ «القاهرة»

العجوزُ المخضرمُ "ريتشي" يعرفُ جيدًا كيف يتعامل مع مُساعديه، وأخذ ما يُريد منهم وأكثر، دون أن يُثير حنقهم أو سَخَطهم على العمل المُكثف المُرهق.

يَرى أن المهندس النابغ "لينان" هو أهمّ مُساعديه وأكثرُهم عِلمًا وذكاءً وإلمامًا بعلوم كثيرةٍ تجعله الأفضلَ بين كلِّ أقرانه. إرضاءُ جنابِ الوالي النشيط يجعله يُسند إليه الأعمالَ المُهمة التي يُتابعها الوالي بنفسه. "محمد على باشا" رجلٌ عنيدٌ لا يقبل العمل الاعتيادي، حتى وإن حقق نتائجَ كبيرةً باهرةً. الوالي المتشبثُ بالحياة يُؤمن بأن كنوز هذا البلد لا تنتهي، ولا يكفّ أبدًا عن البحث عنها، والتنقيب بكل حماس، وإيمانه بأنه سيصلُ دائمًا لما يريد.

بحُكم منصبه أمره الوالي بأن يبحث أمرَ ذلك المكان المُسمّى بـ"تل اليهودية". بلغ الوالي أن هذا المكانَ بمنطقة "شبين القناطر"، كان قديمًا تحت يد اليهود، سكنوا التل وعاشوا فيه لسنواتٍ وسنواتٍ، وبنوا هناك معبدًا لهم بديلًا عن معبدهم في "أورشليم".

شبين القناطر سَمّاها الوالي بهذا الاسم بنفسه، بعد أن كانت تُسمى "شبين القصر".

العَوَامُّ يقولون إن بهذا المكان سِحرًا ما، يجعل من بقي من اليهود حريصًا على زيارتِه وإقامة الصلاة وبعض الشعائر والطقوس في خصوصيةٍ بالغةٍ، لدرجة أنه لا أحدَ يعلمُ بالضبط ماذا يفعلون وإن كانوا دائمًا يُردِّدون أن هذا المكان هو إرثُ وسَكنُ الأجداد.

الكلّ يتحدثون عن سِحر أو مسّ من الجن في موضع المعبد القديم، ودائمًا ما يظن العوام أن الأماكن الممسوسة بالجن أو السحر تحوي أسفلَ أرضها الكنوزَ.

والملوك يسبقونَ العَوام في طريق البحث عن الكنوز.

هذا ما وصل إلى جناب الوالي، وهو أكثر من العَوام، يُؤمن ويُصدق بأن الكنوز تحت الأرض لا تنتهي.

تلك الأمورُ الغامضة لا يصلحُ لها غير المهندس الشاب "لينان" القادم من قلب إفريقيا، بعد رحلةِ بحثٍ طويلةٍ عن منابع النيل. قضى إجازةً طويلة مع عروسِه منذ عودته، الوقت مناسبٌ الآن أن يُوكل له "ريتشي" تلك المهمة وتجنب غضب جناب الوالي.

جلس "لينان" أمامه لاويًا فمَه، وهو يستمعُ إليه وإلى تفاصيل مأموريتِه الجديدة. المهمة الجديدة تعني أن يغادرَ بيته، ويذهبَ إلى ذلك المكان الريفي البسيط أيامًا، وربما أسابيع، وربما أكثر من ذلك. "ريتشي" يُخبره كذبًا بأن جناب الوالي بنفسه طلب منه إسناد المهمة لمهندس البحث عن منابع النيل. يكذبُ عليه؛ من أجل إضفاء هيبةٍ وأهميةٍ للمهمة، وضخ الحماس بقلبه، ومنعه من محاولة الرفض.

أسلوبُ العجوز "ريتشي" لا يتغير كأنه يتعامل مع أطفال صغار يُغريهم بالحلوى والهدايا؛ لتحفيزهم وجعلهم يبذلون أقصى ما عندهم. الأمور كلها مُعدةٌ ومرتبة لا ينقصها غير قبول "لينان" المهمة، والتحرّك إلى "تل اليهودية" مع من يرغبُ من مُساعدين وعُمال. سيتم توفيرُ كل ما يُريده الفريقُ ويحتاجه في مهمته مع فصيلة من جنود الوالي؛ لمنع أي إعاقة تعرقلُ عملهم، أو تؤخرُ انتهاءَه.

المهندسُ الشابُ يستمعُ إلى رئيسه وهو يصطنع الاهتمامَ والتركيزَ، بينما هو في حقيقة الأمر يُفكرُ فقط في أمر "نسيم"، هل يتركها بالبيت حتى عودته أو يأخذها معه؟ لا يستطيعُ تركَها بعيدًا عنه، يجب عليه أن يأخذها معه.

الحديثُ بينهما يتحول تدريجيًا إلى أرقام وجداول ومواعيد، وفي النهاية إلى اتفاق أن يبدأ "لينان" عمله مع بداية الأسبوع الجديد.

في مكتب "لينان" وبعد أن تنفسَ الصعداءَ فورَ انتهاء اجتماعِه مع "ريتشي"، جلسَ يحتسي فنجانَ قهوتِه، وهو يتفحصُ بعضَ الأوراق التي أخذها منه، والخاصة بالموقع المعني بالبحث. المعلوماتُ كلها شِبه ناقصة، أو غير مفهومة، الحقيقة أنه ومع انتهاء فنجان القهوة الثالث شعر بأنه لم يفهم شيئًا محددًا من كل الأوراق المنثورة أمامه فوق سطح مكتبه. معلوماتٌ مختلطة عشوائية ومعلوماتٌ منقولة من ألسنةِ بعض الأشخاص، يدّعون فيها أن المكان ممسوسٌ، وأن سكانَه القدامى من اليهود تركوا به شيئًا ما صنع ذلك السِّحر غير المفهوم.

لكن اللافت الأكبر له أن كلَّ تلك القصص يؤكدُ قائلوها أنها حقائقُ حدثت أمام أعينُهم وأعيُن الكثيرين.

تداخلت الأمورُ برأسِه، واهتدى أن يسألَ "بنيامين"، أحد الموظفين في إدارته. الجلسة بينهما امتدت أكثر من ساعة، و"بنيامين" يقصّ عليه قصة "التل" بشكل أثار فضولَه أكثرَ من كل ما قرأ من معلوماتٍ. الرجلُ يحكي له بحماس بالغ أن أرضَ التل أرضٌ مباركة لا يقصدها محتاجٌ إلا وقضيت حاجتُه.

"بنيامين" رجلٌ متعلمٌ بشكل جيد ممن درسوا بمدارس الوالي، وليس رجلًا جاهلًا يترك عقله للخرافة دون فحص وتأكيد.

الفضولُ ملأ قلبَ "لينان"، ومع فنجان قهوته الجديد أخرج ورقة وأخذ يُسطر خطابًا لصديقه ومُعلمه الأول والده الضابط البحري. دائمًا يفعلُ ذلك ويشعرُ بحاجتِهِ أن يحكي لوالده كلّ ما يُثير عقله، ويشعر بأنه مختلفٌ ومهمٌ.

كتبَ في رسالته كلّ ما سمع وقرأ، وطلب من والده أن يرسل له رأيه بأسرع وقت، وإن استطاع الوصول لأي معلومةٍ خاصةٍ بأرض التل أن يكتبَهَا له بكل تفصيل.

إنها المرةُ الأولى التي يعودُ فيها "لينان" إلى بيتِهِ شاردَ الذهن بهذا الشكل، حتى إنه لأول مرة لا يشارك "نسيم" الجلوسَ في الشرفة، ومشاهدة الغروب. ظلّ بمكتبِهِ وحيدًا يُعيدُ القراءة وتدوين النقاط المهمة، ويسجلُ ملاحظات وأسئلة لم يجد لها إجابة تُرضي عقله.

بالتأكيد الأمرُ لا يتعدى كونه خرافة توارثتها الأجيالُ وصدّقها من كانَ بحاجةٍ للتصديق لغرض ما، أو لحَاجةٍ بنفسِه.

لكن أهم الأسئلة التي دوّنها ورسَمَ حولها كثيرًا من الدوائر: لماذا تُركت أرض "تل اليهودية" مهجورةً كلّ هذه السنوات؟.

١٩٧٠م ـ «القليوبية– شبين القناطر»

- بِت يا سِعدة.. إنتِ يا بت.
- أيوه يا أمّه، أنّي جاية أهُوه.
- يا بت اعمليلك هِمّة، جُوزك زمَانتُه راجع يا بت.

"فوقيّة" العجوز الثرثارة لا تكفّ دقيقة عن توجيه اللوم وإعطاء الأوامر لزوجةِ ابنها الوحيد، طوال الوقت تجلسُ مُفترشة مدخل بيتهم الصغير على شاطئ الترعة، تتابعُ زوجة ابنها بترصدٍ وتدقيق ولا تتركُ لحظة واحدةً تمر دون أن تُسمعها عباراتها الناقدة، تعبيرًا عن عدم رضائِها، وشعورها بتقصير الزوجة الشابة.

سِعدة بالنسبة لها فتاةٌ محظوظة، تزوجت ابنها "خفير" العُمدة، وهي لا تستحقُ هذا النسبَ والشرفَ العظيمَ. كان يجبُ عليها أن تقاومَ رغبة ابنِها أكثر من ذلك، ولا تقبل بزواجه من ابنة "كلّاف" شيخ البلد بهذه السّهولة. ابنُها صاحبُ الوجاهة وحاملُ البندقية الميري على كتفِه كان يستحقّ زوجة غيرها، كانت تريد له نعمات ابنة شيخ الخفر، أو سكينة ابنة خولي عزبة الباشا.

لكنه أصرّ على سِعدة، واختارها من بين كل فتيات قريتهم، ولم يستمع لنصائح أمه أو حتى مجرد النقاش في قراره واختياره.

كانت دائمًا تُصر على أن سِعدة، بلا شك، قد صنعت عملًا سُفليًا مخصوصًا للإيقاع بابنها، زينة شباب البلد. ولِمَ لا؟ وهو خفير ميري يهابه الجميعُ، ويملك قيراطين من الأرض، وليس مثل والدها الذي لا يملك غير بيتهم الصغير من الطين.

سِعدة الجميلة البيضاءُ ذاتُ الخُدود الحمراء والجسد المُهتز مع حركتها أسالت لعابَ ابنِها "دهشان"، وجعلته مُتيمًا بها، وعارضَ أمه للمرة الأولى، وهو يصفها بافتتان:

- يا أمه البِت زَي لَهطةِ القِشدة، حَمَار وحَلاوة.

عامان منذ زواجهما، ولم ينتفخ بطنُ سِعدة، لم يأتِ الحفيدُ، ولم يضجّ حوش بيتهم بفوضى لَهو الأطفال.

العجوز الناقمة فخورةٌ بِصدق حدسِها أن سِعدة "جَوازة شُؤم". غالبية الفتيات يَحملنَ على أكتافِهنّ طفلًا قبل مرور العام الأول، وزوجة ابنها تخطت العامين، ولم تلد له حتى "دَكر بَط" على حدّ قولها.

البيت أصبحَ جحيمًا لا يُطاق لثلاثتهم، "الحَمَا" المُتسلطة لا تكفّ عن التهكم على الزوجة، وتوقيع اللوم عليها، والابن ضاق صدرُه من

حديثِ والدتِه المستمر عن ضرورة طلاقِها، وطردِها خارج البيت، والزواج بأخرى تأتي له بالذرية والولد.

والزوجة الحزينة تعاني الأمرِّين من الحَما النكدية ذات الكلام اللاذع، والزوج المُتجهّم طوال الوقت.

"جليلة" والدة سِعدة تُصر على أن ابنتها محسودةٌ، وأنه بالضرورة قد صنعت لها إحداهن "عَمَل" كي لا تُنجب، وتصبحَ أرضًا بورًا، يزهدُها الرجالُ. تقرأ على رأسِها القرآنَ والأدعية، وتحرق لها "العروسة الورقية" وتدهنُ جبينَها برمادِها؛ رغبة في فك العمل، ولكنه لا يحدث، فلا "تَلقُط " ابنتُها من زوجِها.

سِعدة بكل يقين بحاجة لشيخ شديدِ العزم لفك العمل حول سُرّتها؛ كي ينقبضَ رحِمُها وتأتي بالذرية.

دهشانُ الشابُ القويّ الفارعُ الطول وصاحب الصدر العريض والأذرع الصلبة القوية لا يترك ليلة إلا ويُلقي فيها مَاءَه على بابِ رَحِم سِعدة. كان يفعلها في البداية باشتهاءٍ ورغبةٍ في زوجتِه البضة، ذات الوجنتين الحمراوين، والشّفتين الورديتين المُمتلئتين، أما الآن فيفعلها بوجه مقتضبٍ وعصبيةٍ كأنه يضربُ بفأسِه في أرض صخريةٍ بغيةِ الحفر والتفتيت.

لم يعُد يُقبِّلها ويمتدحُ جَمَالها الرباني، كما كان يفعل قبل ذلك، فقط ولدقائقَ قليلةٍ يزيحُ جلبابها ويتحرك ببأس وقوةٍ وهو يزجرُ بعنفٍ حتى ينتهي ويتمدّدَ مُبحلقًا في حطب سقف حجرتهما، ولا يرى تلك الدموع على وجنتي سِعدة، التي تنزِّلُ جلبابها وتلف جسدها، وتدفنُ رأسَها في الحائط المُتعرق من الرطوبة.

"فوقية" الحما الخبيثة تجلسُ تتابعُ بعَينيها ابنها كلَّ صباح بعد أن يستحمّ، وهي تُمصمصُ شفتيها بسُخريةٍ وحسرةٍ:

- عِيني عليك يا بني، العَايط في الفايت نُقصان عقل.

- كله بإذن الله يا أمه.

- ونِعمة بالله يا ضنايا، بس هنقول إيه.. بِيت الحَزينة مِتعَلم بِطِينة.

- يا أمّه.. يا أمّه.. خليها على الله.

- حاضِر يا بني هَتكِتم، وهَحُط البُلغة في حَنكِي.

- لا حَول اللهِ يا ربّ، أنا رَايح الدوار يا أمه.. فوتك بِعَافية.

"سِعدة" تتحاشى النظر دائمًا في وجهِ حماتِها بشكل مباشر، تتعمد باستمرار ألا تتلاقى الأعينُ،

تخشاها.. تُبغضها.. ترجو الإنجابَ فقط؛ من أجل الراحة من لسانِها.

كلّ الأيام مُتشابهة متكررة، تخرج فوقية وسِعدة نهارًا لجلب البرسيم من القيراطين المِلك، ويجلسان معًا في صمت باقي اليوم، لا يقطعُ صمتَهُما إلا بعضُ الأوامر الصارمة بكلماتٍ جافةٍ من "فوقية" تلقيها على "سِعدة" لا لشيء سوى أن ترهقها، وتُعذب نفسها.

١٤٥ ق.م ـ «ليونتوبوليس»

صوتُ ضجيج وضوضاء شديد خارج خَيمَة "أونياس" جعله ينتفضُ مفزوعًا، ينظر حوله، يطمئنُ على وجود الصناديق والتوابيت، ثم يخرجُ مُسرعًا ليرى سببَ الجلبة والضوضاء.

جمعٌ كبيرٌ من الرجال حاملو الفئوس يلتفونَ حول شيءٍ ما، وسط منطقة الحفر. يقتربُ الكاهنُ وخلفه بعضُ الكهنة من معاونيه ليَرَوا ما سبب تلك الضجة. أسفل المعبد القديم عشراتُ الجماجم وعَظم "الحمير"، إنها مقبرةٌ جماعية للحمير أسفل أنقاض المعبد القديم، والكثير من العِصيّ الغليظة.

أمَرهم الكاهنُ برفع كل الهياكل ودفنها في مكان بعيدٍ وإكمال الحفر، لم يصلوا بَعدُ للعمق المطلوب الذي حدده هو بنفسِه لبناء الهيكل.

التوترُ برأسه لا ينقطعُ، ولن ينقطعَ إلا بانتهائِهم وإتمام الحفر. جلس بخيمتِه مع الكهنة الأربعة المعاونين يُلقي عليهم مهامهم بجديةٍ وحماس، ورغبةٍ في سرعة الإتمام. خرجوا جميعًا للإشراف على العمل

بالخارج، وجلس "أونياس" بين الصناديق ساندًا رأسه إلى قبضته، حتى شعر بكفّ زوجتِه وهي تربتُ على كَتفِه:

ـ ما زلتَ قلِقًا يا أوني؟.

– نعم، ما زلتُ.

تحتضنُه من الخلف بعطفٍ بالغ:

– أرح نفسَك قليلًا، كل شيءٍ سيصبحُ على ما يُرام.

التفتَ إليها وحرّكَ أنامله على وجهها بحُب وعطفٍ واضحَين:

– مُطمئنٌ فقط لأنك بجواري.

– كلنا نشعرُ بالطمأنينة لأنكَ بيننا.

قبّل جبينَها وتركته لخلوته، وأحكمت إغلاقَ الخَيمَةِ كما طلب منها.

أخذ يُتمتمُ بصوتٍ خفيض وهو مُتكئٌ على مِعصميه حتى أتاه الصوتُ من بين التوابيت:

– قلبُكَ حزينٌ أيّها الكاهنُ.

– ليس حزنًا، إنه الخوفُ من حمل الأمانة.

- ولماذا تخافُ وأنا أحملها معك؟

- لن أرتاحَ حتى أتِمَّ كلَّ شيءٍ.

- سيحدثُ وينتهي الأمرُ.

- وجدنا مقبرةً للحمير أسفل المعبد القديم.

- أعلم ذلك.

- وماذا تَرى؟

- لقد أتممتُ الاتفاقَ وأخذت الإذنَ بالاستكمال.

- لقد سمعتُ صوتَ نهيق يصدر من الجماجم.

- كانت تطلبُ منك حُسنَ المُعاملة.

- وهل فعلت؟

- بالتأكيد فعلت أيها الكاهنُ، فقط يتبقى شيءٌ واحدٌ.

- ما هو؟

- اِجمَع كلّ النساء الحوامِل من قومك، واجعلهن يُتمِمنَ دفنَ الحمير، ويقضينَ الليلة وحدَهُنّ فوق القبر.

- ولماذا؟

- وهل يجبُ أن تعرفَ؟

- سأفعل.

اهتزت الصناديقُ والتوابيتُ، وساد الطنينُ حتى عاد كل شيء كما كان، وخرج الكاهنُ يُنفذ الأمر، ويجمع الحوامل من النساء.

لا أحد يُعارض الكاهن، كلهم يعرفون أنه ينفذ رغبة الرب، ورغبة الربِّ نافذةٌ لا محالة.

كذلك "أوري" يؤمن مثلهم بأن كل شيء بأمر الربِّ.

الربّ يأمرنا، ويجب أن نُنفذ ونُطيع، وفقط نسأله الرحمة.

لا يعرفُ ما يجب عليه فعله في مكانِه الجديد، فقط ارتدى ملابس الحُراس، وخرج من حُجرته لا يعرف إلى أين يتوجه؟

وقف في ردهةٍ طويلةٍ يتلفتُ حوله حتى انتشله من حَيرتِه ظهورُ الخادم الأملس بابتسامتِه الصفراء الخالية من المعاني.

دار حوله يتفحّص هيئته في الزي الجديد، ويمُدّ يَدَه يهندمُ بعض التفاصيل، ثم يقتربُ منه بأنفِه ليتأكد من رائحتِه، قبل أن يُشير له ليتبعه.

القصرُ كبيرٌ؛ لا ينتهيان من ردهة حتى يَمُرّا بغيرها، جُدرانٌ عالية لا تخلو من النقوش والتماثيل، وفي كلِّ ردهةٍ يقفُ الحُراسُ مُتحفزين بثباتٍ على مسافاتٍ متساويةٍ.

ظن أنه سيأخذ موضعَه مثلهم في إحدى الردهات، لكن الخادمَ استمر في السير حتى اتسعت الردهات وأصبحت بهوًا كبيرًا تتوسطه نافورةٌ ضخمة، ثم عادا للردهات من جديد، لكنها هذه المرة أكثر اتساعًا، وتتراص فيها الغرفُ ذاتُ الأبواب الكبيرة المليئةِ بالنقوش.

بالنهاية وصلا إلى ردهةٍ مختلفةٍ ذات نوافذ متعددة، تسمح لأشعة الشمس بالدخول وجعلها مُضيئة مبهجة.

الحراسُ يقِلّ عددهم حتى أصبح من النادر رؤيتهم، وأصبحت رؤية الفتيات ذوات الملابس الحريرية أمرًا متكررًا ومكثفًا.

في نهايةِ الردهة وصلا أمام حُجرة كبيرة بابها من دَرفتين، نقوشها من الذهب والأحجار ذات الألوان الزّاهية.

أمامَ الحجرة أخبره الخادمُ بأنها حجرةُ الملكة الخاصة، وأن مهمته أن يقف حارسًا عليها، والانتباه الدائم لتنفيذ أي أمر تأمره به وصيفة الملكة. تركه الخادمُ ووقف مشدودَ الجسد مثلما رأى الحراس في طريقهما، وعيناه تتابعان حركة الوصيفات اللاتي يتوقفن من حوله.

الوصيفاتُ جميلاتٌ، ويضعنَ الزينة في وجوههن، وملابسهن تكشفُ عن الكثير من أجسادِهن بشكل لفت نظره، ولكنه تعمّد ألا ينتبه أحدٌ له، وهو ينظر إليهن.

شَخَصَ ببصره في الجدار أمامه، وهو يتذكر حبيبته "أريلا"، إنها أجملُ منهن جميعًا دون أن تتزين، أو ترتدي تلك الملابس التي تكشف عن البطون والأفخاذ.

يشعرُ بحنين بالغ إليها، رغم أنه تركها فقط منذ يوم واحدٍ، لكنها مرّته الأولى التي يبتعدُ فيها عنها، ولا يُخبرها إلى أين يذهب، أو يُودعها ويودع شفتيها بقبلةٍ تروي ظمأه الدائم لرحيقِ فمها.

أخرجه من شرودِه صوتُ صرير فتح باب حُجرة الملكة الضخم من خلف ظهره، وهو يتحاشى الالتفات والنظر، ويتشبث بوقفته المشدودة، ورأسه المتجمد باستقامة فوق جسده.

تقتربُ منه "ساريتا"، الوصيفة الخاصة للملكة ورئيسة الوصيفات. امرأةٌ مُمتلئة الجسدِ بشكل واضح يؤكده طول قامتها كأنه لأحدِ المُصارعين. زنجية سمراءُ من شدةِ سمارِ بشرتِها تظنها تمثالًا من الآبنوس، عيناها صفراوان حول نقطةٍ شديدةِ السواد.

دارت حوله تتأمله، وهو لا ينظرُ إليها كأنه لا يراها، حتى وقفت أمامه مباشرةً وتحركت بهدوءٍ وسألته:

- ما اسمُ الحارس الجديد؟

- أوري.

تجمّدت النظراتُ بينهما لثوان قبل أن تنفرجَ ابتسامتها عن أسنانها الصفراء المتراصة بدقةٍ شديدةٍ:

- اِتبَعني أيّها الأوري.

تبعَها ليدخُلا الحجرةَ الملكيّة الضخمة التي تخطفُ العينَ من النظرة الأولى.

جدرانٌ عاليةٌ مُزينة بالنّقوش الذهبية والستائر الحريرية، وتتراص أمام الجدران تماثيلُ مختلفة، بأحجام صغيرةٍ ومتوسطةٍ، وفوقها أوان مملوءةٌ بالفاكهةِ والكئوس، وقارورات العطر.

الحجرةُ واسعة تبدو كبهو كبير، في جانبها الأيمن أريكة كبيرةٌ مطرزةٌ بخيوط ذهبية، ويتدلى منها ريشٌ طويلٌ متعددُ الألوان. في المنتصف فراشٌ عريضٌ بشكل لافتٍ تتمددّ عليه الملكة مستندة بجذعها إلى وسائد مُغلفةٍ بالحرير، وحولها وتحت قدميها عدة وصيفات، كلّ واحدةٍ منهن مُنهمكة في عملٍ ما.

إحداهن تهندم الأظفار الطويلة لأصابع يدها، وأخرى تنظف أظفار قدميها، وخمسينية ذاتُ خُصلاتٍ بيضاءَ في رأسِها تُمسك بمشط من العاج تمشط شَعرهَا الناعمَ الطويل.

الملكة بيضاءُ البَشَرة ذاتُ الأنف الطويل المُستقيم بحُسن، والشَّفتين الحَادّتين الرّفيعَتَين، والعَينَين البُنّيَّتين بلون شعرها الداكن- تُحملق فيه مُبتسمة بنصف فمها فقط، وهو يقفُ أمامها يحاول تحاشي النظر لجسدها الناطق بالأنوثة، شبه العاري من خلف ملابسها الخفيفة الشفافة:

- ذكّرني باسمِك يا حَارسي الجديد.

يظهر التلعثمُ على صوتِه المضطرب:

- أوري.. أوري يا مولاتي.

- هل أتمَّ الخادمُ عِنايته بك؟

شعر بالخجل من سؤالها، وتوترت نظراته وغلفت صوته رجفة واضحة:

- أخدمُ منذ سنين في المعبد، والخادمُ في المعبد يعتاد النقاء والطهارة.

تنفرج ابتسامة نصف فمها، وهي ترفع حاجبها مُعجبة بردِّه الخالي من الاندفاع والحِدة، تشيرُ بيدها لوصيفتها الأولى "ساريتا" الواقفة خلف أوري منذ دخوله، لتأمر الوصيفة باقي الوصيفات بإشارة من رأسها بالخروج من باب صغير في جانب الحجرة الأيسر.

تقتربُ ساريتا من الملكة، وتفرد كفها لتستند إليه وتنهضُ من فراشها الوثير الناعم، وتقفُ وهي تطقطقُ ظهرها بانحناءةٍ للخلف، وهي مستندةٌ إلى كفّ وصيفتها السمين.

تتحركُ ببطءٍ شديدٍ يليقُ بملكة تنعم بملكها وتقف خلف إحدى الستائر تنظر من النافذة نحو الفراغ المُمتد.

رداؤها شفاف جدًّا يجعلُ جسدَها واضحًا جليًا لِعَينَي أوري الذي يفحصُ الرداء رغمًا عنه دون إرادته قبل أن يفطن لِعَينَي ساريتا التي تراقبه وتبتسم، وهي تراه يتأمل الملكة في وقفتها.

يشيحُ ببصره عن جسدِ الملكة وعن عَينَي وصيفتِها، وينظرُ باتجاه الفراش الخاوي منتظرًا أمرًا يُخرجه من وقفتِه الجامدة غير المفهومة له على الإطلاق.

تلفُ الملكة جسدَها وتتحركُ نحوه بخطواتٍ بطيئةٍ وهو يرى شبحها فقط بطرف عَينيه، ولا يبعد بصره عن فراغ الفراش. تدور

حوله ثم تقتربُ بأنفها من كتفِه تشم رائحته بصوتٍ مسموع، ثم تزفر بهمهمةٍ تدل على طيب رائحته:

- لا أكره شيئًا أكثرَ من الرائحة الكريهة لأجساد الرجال.

حاول أن يردّ عليها، لكنه لم يجد بعقله أي رد يُمرره إلى لسانه.

- عليكَ الاهتمام دائمًا برائحة جسدك يا حارسي الجديد.

- الطهارةُ واجبة لطاعة الرب يا مولاتي.

- طاعتي قبل طاعة الرب أيها اليهودي.

كلماتُها الحادةُ الجافة وهي تضغط على الحروف بقوة جعلته يتوترُ، وينظر مباشرةً في عينيها القريبتين من وجهه، قبل أن يُحولَ بصره مُسرعًا نحو فراغ الفراش دون أن يُجيب.

تتأمل وجهه باهتمام، وتلاحظ خجلَه وحُمرةَ وجهه وتحديقه في فراغ فراشها، قبل أن تتحركَ وتعودَ للفراش، وتتمدد عليه على بطنها وهي تضع كفيها أسفلَ خدها، وتأمره بصوتٍ هامس خفيض:

- دَعنِي أَقِس قوة أصابعك يا مُطيعَ الربّ.

لا يفهم قصدَها، وينظر إلى وصيفتها بارتباكٍ يبحث عن إرشادِه لما يجب عليه فِعلُه. الوصيفة تُنقذه من ارتباكِه، وتدفعه ليقترب من الفراش، وهي تهمسُ له أن يُمسّد جسدَ الملكة.

يشعرُ بالبرودة في أطرافِه، لكنه لا يجد مفرًا من أن يطيع الملكة، ويمُدّ يده المرتجفة لجسدِها كما تُريد.

١٩٧٠م - «القليوبية- شبين القناطر»

ما مِن أحدٍ يرى "سِعدة" إلا ويلفتُ نظرَه جَمَالها وطلتُها المضيئة. مَالها كَجَمَال الطبيعة متناسقٌ متناغمٌ ممتزج الألوان دون صخبٍ أو شذوذ. حتى وهي ترتدي جلبابها الريفي المزركش الواسع، تستطيعُ تمييز نضارة جسدها وحظها الوفير من الأنوثة والتناسق وجمال المُنحنيات. تمشي وهي تحمل "زلعة" الجبن فوق رأسها دون أن تسندها بيدها، رغم زاويتها المائلة، قدرةٌ فائقة على حفظ الاتزان حتى إن خطت فوق حجارة أو فجوات.

حماتُها رغم كل شيء تراعي العادة والأصول، وترسلُ لبيت زوجة ابنِها من خيرهم بين الحين والآخر. كرمٌ يليقُ بوَجَاهتِهم والبقرات الثلاث بحظيرة منزلهم، بعكس "عوض" والد سِعدة الذي لا يملك بقرًا ولا جَاموسًا ولا حتى حِمارًا.

اعتادت "سعدة" الجلوسَ بين يدي أمها "جليلة" المرأة الطيبة الخدومة، التي يُحبها الجميع، وتبيح لها بكلِّ ما في صدرها. تشكو لها سُوءَ مُعاملة حماتها وتجهّم "دهشان" زوجها، وقلة حيلتِها في أمر الحَمل والخِلفة.

تفعلُ كلّ ما توصيها به أمّها وتظل مُمدّدةً على ظهرها بعد أن يقوم "دهشان" من فوق جسدِها وهي مرفوعة الساقين؛ حتى يجريَ ماؤه ويسكنَ رَحِمَهَا، ومع ذلك لم تلقط ولم تتحرك أحشاؤها بالمولود.

"جليلة" المِسكينة تبكي حالَ ابنتِها البكريّة، وتقرأ على رأسِها الأدعية والأوراد، وهي تتثاءبُ وتؤكد لابنتها أن التثاؤب يعني أنها "محسودةٌ ومعمول لها عَمل". أختُها الصغرى تزوجت بَعدَها بموسم حصادٍ كامل، ومع ذلك حَمَلت وأنجبت الولدَ.

قصّت العروسة الورقَ، وثقبتها بأسماء كلِّ من يعرفون من نساء، وهي تقرأ آية قرآنية بصوتٍ خفيض يُغلفه الإجلالُ:

(ومِن شر حاسدٍ إذا حَسدَ).

"سِعدة" محسودةٌ بكل تأكيد، صوتُ طقطقة ورق العروسة يؤكد ذلك، والشراراتُ المنطلقة منها تُخبرهم بأن الحسدَ من عين "قادرة وقوية".

دخلت عليهما جارتُهما "شربات" مهرولة، وهي متقطعة الأنفاس كَمَن قدَمِ جريًا من الصَّعيد:

- إنتِ هنا يا سعدة، بَركة إني لِحِقتك قبل ما تِمشي.

انتفضت جليلة مُضطربة من هيئة شربات الغريبة:

- خِير يا شربات يا ختي، حصل حاجة كَفى الله الشّر؟

- أيوه حصل، والحمد لله إنه حَصل.

- خِير يا ولِيَّة، ما تَوقعِيش قلبي.

- سِي عبد القوي تِعيشي إنتِ.

- لا حول الله يارب، ودَه اسمُه خِير بَرضُه يا وليّة يا خَرفانة؟

- أيوه خِير أومّال إيه، مِش خالتك "بهانة" قالت لك خَلي اِسمَ الله عليها "سِعدة" تِمَلس على فخذ مَيت.

- أيوه بِصُدق، دَا أنِي كُنت نِسيت.

"سِعدة" تستمعُ لحديثهما، وهي تنتفضُ من الرعب والفزع، والعرقُ ينحدر من جبينها يمُر بكل جسدها حتى يقطرَ منه على الأرض.

أخبرتها أمها بذلك منذ فترة طويلة، فالخالة "بهانة" أخبرت أمها بأن "سِعدة" عليها أن "تِمَلس" بكف يدِها على مَيت دَمّه حَار، حتى تَنفك عقدتُها، وتأتي بالولد:

- وهَنِعرف نُخش الدار دِلوقتي يا شربات؟

- أيوه هنعرف، وخالة "بهانة" بنفسها قاعدة على رأس الميت، ومِستنياكِ، وهيّ إللي شَيَّعتني لِيكِ.

- طب ومِستنيّة إيه؟ يَلا بينا قَوَام قَبل ما الرَّاجِل دَمه يِبرَد.

مَدّت "سِعدة" يدها تُمسك بطرف جلباب أمها، وهي تبكي كطفلةٍ صغيرةٍ وترجوها:

- بلاش يا أمة، أبُوس إيدك، أنِي خايفة.

- خايفة من إيه يا بت يا مَوكُوسة؟

- خايفة يا أمة.. خايفة.

- يعني عَاجبِك حَالك ونَأوَرة العَقرَبَة "فوقية" عليكِ صُبح ولِيل؟، فِزّي يا بِت بَلاش دَلَع.

في دقائقَ قليلةٍ كانت "جليلة" وابنتُها تتشحان بالسواد، وتتبعان "شربات" إلى منزل المرحوم "عبد القوي". "سِعدة" مفزوعة وترتجفُ، وأمها تقبضُ على مِعصمِها باستماتةٍ وتجرها خلفها جرًا. استقبلتهن النساءُ المُتشحات بالسوادِ بالعويلِ كتحيةِ ترحيبٍ لمُعزِّيات جُدد، وردّت جليلة وشربات عليهن بصوتِ صراخ أعلى وأشد؛ تعبيرًا عن التضامن والتأثر.

رَمَقت الخالة بهانة "سعدة"، وتحركت بصعوبةٍ بسبب سِمنتها الشديدة تَعبرُ أجساد النساء المتلاصقة، حتى أمسكت بيدها وجَرّتها خلفها هي الأخرى، و"جليلة" تتبعهما، وهي تساعد "بهانة" وتدفع جَسَدَ ابنتِها من الخلف لتُجبرها على التقدم، على باب حُجرة المرحوم.

ربتت "بهانة" على ظهر زوجتِه الثكلى، وهي تستأذنها في الدخول:

- ما تِنضَرِّيش في عَيّل أبدًا يا حَبيبتي.

جسد "عبد القوي" مُمددٌ على فراشة، ومُغطى بالغِطاء العريض.

"سِعدة" ترتجفُ، ومن شِدة رجفتها جعلت جسد "بهانة" يرتجفُ هو الآخر بالتبعية.

"بهانة" امرأة قوية صَلدة لا تتراجعُ عما برأسِها، جذبت كفّ "سِعدة" بقوةٍ وإصرار ورَفعت جزءًا من الغِطاء، وجعلت كفها تتحركُ فوق فخذِ المرحوم العاري. ما إن أحسّت "سِعدة" بمَلمَس جلد المرحوم حتى انتفضت كأنها صُعِقت بالكهرباء، ووقعت بين "بهانة" وأمها مَغشيًّا عليها.

وَضعَت "جليلة" كَفيها أسفل ذِراعي ابنتها الفاقدة للوعي، وجرّتها على الأرض حتى خرجنَ جميعًا من حُجرة المرحوم.

هرولت نحوهن "شربات"، وهي تُمسك بـ"قلة" الماء، وتسكبها فوق وجهها، وهي تصفعُها بيدها فوق خدِّها المُشتعل بحُمرة الخوف.

انتهت المُهمة، ولم تستطع "سِعدة" العودة وحدها لبيت زوجها، فاضطرت أمها أن تصحَبَها وهي التي تتحاشى لقاءَ "فوقية" بقدر المُستطاع:

- مَالهَا البِت يا ختي؟

- لا أبدًا يا حبيبتي مَا مَلهَاش، هِي بَس مدَروَخَة حَبّتين.

تَلوي "فوقية" فَمها بتهكّم، وهي تُحرك يديها في الهواءِ بسُخريةٍ:

- مِدروَخة؟، دِي تلاقيها يا ختي مِدروخة من الشمس.. الدروخة التانية شَكلها مِش مكتوبة لنا.

تكتم "جليلة" غضبَها مِن كلمات العجوز اللاذعة:

- كله بأمره يا أم دهشان.

غادرت "جليلة" وهي تشيط غضبًا من كلام "فوقية" وتدعو الله، برجاءٍ واستعطافٍ، أن ينصرهما عليها، ويُجبر بخاطِر ابنتِها. ورغم أن "سِعدة" لم ترَ شيئًا سوى جسد "عبد القوي" المُغطى، فإنها شعرت بخوفٍ شديدٍ أطبق على صدرها، وظلت تحك كفها، بخشونة الحائط،

بقسوةٍ وعنفٍ، كأنها تريد التخلص من جلدها. أصبحت نظراتُ كل من حولها ويعرفها تقع في قلبها بالغضب والضيق.

كلهم ينظرونَ لها بشفقةٍ، وكأنها أول من تتأخر في الإنجاب!، ليتَها لم تتزوج خفيرَ العمدة، حاملَ البندقية الميري على كَتِفِه.

الكلّ حسدوها على "دهشان" الفارع الطول، ذي الشّارب العريض فوق فمه، والمعطف الأصفر والطربوش الأحمر، والجزمة السوداء الميرى.

موظف مِيري، ويملك قيراطي أرض، ووحيدُ والدته، إنه عريس "لُقطة" لأي بنت من بنات قريتهم.

ترى في نظرات بعضهنّ الشماتة والسخرية، وكأن لسان حالهنّ: غدًا نأخذ موضعك، ونَحلّ محلك ونأتي له بالولد.

انفردت بدموعها ككُل مساءٍ، تنتظر عودة "دهشان" ليتناولَ عَشاءَه، ثم يمتطيها بغِلّ وغِلظة بلا مُقدمات.

كَفّ عن تقبيلِها منذ شُهور، ولم يعُد يُسمعُها كلامَ الغزل كما كان يفعلُ سابقًا، فقط يضرب بخصره فوقها، دونَ أن تتلاقى الأعينُ حتى يتشنّج ويُغرقَ وجهَهَا بعرقِه، ثم يتحاشى وجهَهَا وينام.

١٨٢٥م - «تل اليهودية»

النظرُ في وجهِ نسيم يجعلُ لينان يشعر بذلك الدوار، وكأنه يُحلق في السماء. يقاومُ كثيرًا رغبته وحاجته للنوم، كي لا يُغمض عينيه، ويتوقف عن النظر إلى جَمال وجهها، حتى يغلبه النوم في النهاية، ويغمض عينيه على صورتها التي تصنع له خيالَ أحلامِه.

يفتحُ عينيه في خَيمتِه على صوتِ أحدِ مُساعديه ليُنهيَ تحديقه في وجه نسيم في خياله، ويهب واقفًا، يشدّ بِذلتَه وترتسم الجِديّة على وجهه:

- هل انتهيتُم؟

- نعم يا سيدي، أتممنا تشييد الخيام وتجهيز وترتيب المُعدات، والعمال بالخارج ينتظرون تعليمات البَدء.

لا يعرفُ المهندسُ النابغُ من أين يبدأ على وجه الدقة. المُهمة كلّها لا تستهويه، خاصة في هذا الوقت، يشعر بضآلتِها مُقارنة بما فعله من قبلُ. كيف بعد أن قاد رحلته المهمّة إلى غابات وأدغال إفريقيا بحثًا عن رسم خريطة النهر العظيم يأتي إلى هذا المكان الخالي الفقير يبحثُ عن الذهب لجناب الوالي؟

منذ وصوله ومعه فريقه إلى "تل اليهودية" وهو يشعرُ بخيبةِ أمل كبيرةٍ، كان يظن أنه سيرى مكانًا مليئًا بالآثار والأشياء الثمينة القيّمة، لكنه لم يجد غيرَ تل كبير من الرمال حوله، وفوقه مجموعة من الحجارة الضخمة الصماء بلا أي معنًى، وبعض الحجارة المتراصة بانتظام حوله كأنها جزءٌ من سُور قديم.

المكانُ حولَ التل فارغ مهجورٌ، كأنه متروكٌ منذ مئاتِ السنين. منازلُ الأهالي بعيدةٌ عن التل بمسافةٍ كبيرةٍ، ولا يوجد حوله أي شيء مميز يلفتُ انتباهه أو يستنتج منه أيّ شيء. يقفُ وسط مُساعديه وعُماله المتحفزين بالفئوسِ لا يعرفُ بماذا يأمرهم، هل يحفرُ أسفلَ التل أو يبدأ من نقطةٍ بعيدةٍ عنه؟ الحيرةُ تسيطرُ على عقلِه، ورغم اعتدال الجو ووجود نسمة هواء مُريحة، فإنه يشعرُ بأن الشمسَ تُرهق عينيه ويفتحهما بصعوبةٍ.

يتحركُ وحدَه ومعصمَاه مضمُومَانِ خلفَ ظهره، يدور حول التل مُبتعدًا عن نظرات العمال التي تبحث عن أمر عمل، أو تصريح بالاستراحة.تتراقصُ بذهنه صورةُ والده، وهو يجلسُ معه في حديقة منزلهما، وينتظر منه اختيار مكان لبيت الكلب الصغير في الحديقة. ظلّ وقتها يدورُ ويتحرك يبحث عن المكان المنشود، ووالده يتابعه مبتسمًا، دون أن يُوجهه أو يُساعده في الاختيار. الحديقة واسعة لا تُوجد بها

أركانٌ محمية بأي دعامة، فقط سورٌ خشبيّ قصير يلفها كلها، ويفصلُها عن حدائق جيرانهم. اختار أن يصنعَ البيتَ في أحد الأركان بجوار المدخل الخشبي المتوسط الارتفاع، ولكن نظرة والده جعلته يُوقن أنه لم يُحسن الاختيار. عاد برأس مُتدلّ لأسفل لجلسته بجوار والده شاعرًا بالفشل، ولا ينطق بحرف حتى فعلها والده بصوتِه الحاني العطوف:

- عزيزي لينان الصغير، عندما لا تعرفُ ماذا تفعل، عليك العودة للمنزل؟

- ماذا تقصدُ يا والدي؟

- أنتَ لم تجد مكانًا مُناسبًا لبيت الكلب؟

- بالفعل.

- لماذا إذًا اخترتَ المكانَ البعيد بجوار المدخل؟

- لا أعرفُ.

- أنتَ لم تجد شيئًا يستند إليه البيت، لذا كان يجبُ عليك أن تعودَ لجدار البيت، وتجعل منه ضلعًا لبيت الكلب الصغير.

تذكّر لينان ما حدث مع والده، وهو يستمرُ في الحركةِ والدوران حول التلِّ المُرتفع.

عليه أن يبدأ من الجدار.. لكن أين يوجدُ هذا الجدارُ؟ البداية إذًا ليست هنا، عليه العودة للوزارة، والبحث عن الخَرائط.

في التل ثلاثُ قطع حجريةٍ ضخمةٍ، أكبرُها حجرٌ كبيرٌ وعريضٌ من الصوان فوقَ التل تمامًا يعلوه كأنه قطعة مُسطحة على قمة التل.

قبل أن يُغادر أمر المساعدين والعمال بالتجريف حول الحجارة الضخمة قدر المستطاع.

الوصولُ لخرائط خاصة بهذا المكان أمرٌ شاقّ وغاية في الصعوبة. ساعاتٌ طويلة قضاها لينان في البحث والتفتيش ولم يجد غيرَ خريطةٍ واحدةٍ قديمةٍ مُرممةٍ لتل اليهودية، يظهرُ من هيئتِها وطريقةِ رسمِها أنها تمت بواسطة شخص أراد فقط، وبشكل بسيط، أن يُوضح بعضَ تفاصيل المكان. الخريطة تُشير إلى وجود مبنى مستطيل وحوله سورٌ يُحيطه من كل الأركان. فقط خُطوط بدائية غير مُكتملة تشيرُ لوجود سور وتل يتوسطها. قديمًا كانت تحملُ اسم "رع- حر- محيت- أون" ثم تحول الاسم إلى "ليونتوبوليس" قبل أن يشيعَ اسم "تل اليهودية".

جلس لينان يُدوّنُ ملاحظاته، ويحدد أربع نقاط هندسية بدقة في مخطوطةٍ جديدةٍ من صُنعه وفق الخريطة القديمة.

توضح الخريطة أن مكان التل كان مبنًى، ومِن مساحتِه عليها يتضح أنه كان مبنى كبيرًا ضخمَ المساحة. إذًا النقاط الأربع تُحدد ما يبحثُ عنه بالضبط.. "الجدران".

التل هو نقطة الوسط لجُدران المبنى المختفي من الوجود، وبقايا السورالمُهدم هي بالتأكيد ما رآه في الخريطة للسور حول المبنى المفقود.

عاد للتل متحمسًا، وهو يأمر مساعده "شوكت" أن يبحث له عن أحد شيوخ المكان الكبار في السن ممّن يعرفونَ تفاصيل التل.

عاد لخَيمتِه، وأخذ يرسم في لوحته الكبيرة أبعاد التل في مُنتصفها تمامًا. التل على شكل نقطة أو دائرة، في الهندسة تعلم أن كل دائرة توجد دائرةٌ أكبر منها تحتويها. لا يُمكن أن يكونَ التل مجرد عبث متروك في الوسط بلا سببٍ، التل بكل تأكيد هو فقط نقطة الوسط والارتكاز. "ريتشي" أخبره بأن معبدًا قديمًا لليهود كان بالمكان، وجنابُ "الوالي" وصله أن هناك كنزًا كبيرًا تحت الأرض. المبنى المفقود هو بالتأكيد معبد اليهود القديم وتحت التل المرتفع يوجد ما يبحثُ عنه جناب "الوالي".

عاد "شوكت"، ومعه رجلٌ عجوز قصير القامة منفرج الابتسامة، يرتدي جلبابًا رقيقَ الحال يصلُ بالكاد لمنتصف ساقيه النحيفتين:

- الشيخ غنيم يا سيدي.

جلسَ الرجلُ أمام لينان مُبتسمًا بمودّة ولطفٍ يستمع إلى أسئلته الكثيرة المُتلاحقة ولم تختفِ الابتسامة عن وجهِه، حتى انتهى "لينان" وانتظر إجابته:

- أخبرنِي يا ولدي عن أي شيءٍ تبحث بالضبط؟

- نحن لا نبحثُ عن شيءٍ يا شيخ، جئنا فقط من أجل دراسةِ المكان.

- المكانُ مهجورٌ، لا يُوجد به شيءٌ للدراسة.

يكتمُ غيظه من الرد البارد للشيخ، وتدخله فيما لا يعنيه، وهو يُحدّثه بلطفٍ مُصطنع:

- دَع تحديد ذلك لي، وأخبرني ماذا تعرف بدقةٍ؟

- أنتَ مُصمّمٌ على المعرفة، إذًا لك ما تُريد.

اختفت ابتسامة الشيخ العجوز، وحلت محلها الجدية، وهو يقصّ على مسامع "لينان" ما جعله يرفعُ حاجبيه، ويسقط في بئر سحيقةٍ من الدهشة.

١٤٥ ق.م. «ليونتوبوليس»

"أريلا" الحزينة الباكية تجلسُ دائمًا وحيدةً مُنزويّة منذ غياب "أوري"، لا تتحدثُ إلى أي شخص طوال الوقت، وتكتفي فقط بعملها في جلبِ الماءِ للبناءين. قلبُها يحترقُ شوقًا وقلقًا على حبيبها الغائب، لا تطمعُ في شيءٍ أكثر من أن تتيقنَ أنه بخير، ولم يمسّه مكروهٌ، لو كانت تستطيعُ الذهابَ لذهبت إلى قصر الملك، وبحثت عنه بنفسِها. لكن "أونياس" أخبرها أكثرَ من مرة بأنّ عليها الهدوء والانتظار، وألا تيأس من رحمةِ الربِّ واهتمامِه ورعايتِه لأوري.

يُداوم "أونياس" على بثِّ الطمأنينة في قلوب الجميع، يعلمُ جيدًا مغبة ومشقة الهجرة، وترك الأوطان. يبذل أقصى ما عنده حتى يكونَ الجميعُ مُطمئنينَ لحالِهم ووطنِهم الجديد.

الحفرُ يقتربُ من الانتهاء، وجدران الهيكل ارتفعت بشكل كبير.

عملية البناءِ كانت في غاية المشقة؛ بسبب نقل الصخور والأحجار الثقيلة التي لا يستطيع الرجالُ حملَها، لكن "أونياس" أخبرهم بأن الربّ سيُرسلُ ملائكتَه لحملِها معهم.

رجلان فقط يستطيعان حملَ الحجر الواحد بسُهولةٍ، وهُما موقنان أن من يَحملُه في الحقيقة أيادٍ أخرى غير أياديهم.

عندما يُعطي الربّ، يُعطي بسخاءٍ.

يتركونَ العملَ مساءً، ويجدونَ الحفرَ قد ازدادَ واتسعَ في الصباح، والأحجارُ تراصت وانتظمت بدقةٍ فائقةٍ لم يتصورها أحدٌ.

الكاهنُ وحدَه يعرف مَن فعلها، ويُوصيهم بالصلاة وشُكر الرب. الربّ لن يتركَهُم، ولن تغيبَ عنهم رحمتُه، وهُم يبنونَ بيتَه

. يجلسُ بين التوابيت يستمعُ لصوت حارس العصا ويُنفِّذ تعليماتِه دونَ نِقاش. يعرفُ أنه لا يُمكنه أن يُعارضَ حارس عصا النبي سليمان. أخبره بذلك والدُه الكاهن الأكبر قبلَ رحيلِه وهو يُوصيه أن يتبعَ أوامرَ الحارس، ويُهاجرَ إلى مصر ويُعيد فوق أرضها بناءَ الهيكل، ويدفن كنز النبي "سليمان" ويحميه مهما كلفه الأمر.

هو يعرفُ أنه مُجرد راعٍ للكنز، وأن الحارس يفعل كل شيءٍ بنفسِه وقوته الخارقة، ويحمي العصا والصولجان. الصناديقُ تحوي المتروكَ من النبي لأحفاده، أما الباقي فلا أحدَ يراه، أو يعرف حجمَه وهيئته، أتباعُ الحارس حملوه خلفه هو وقومه في رحلتِهم. أخبره الحارسُ على

أبواب "ليونتوبوليس" بأن آخر أتباعِه ممن يحملون صناديق "سليمان" فوق ظهره ما زال بالقرب من "يهودا".

أخبره الحارسُ أيضًا بأن تلك الصناديق ستظلّ محمولة على أكتافِهم وظُهُورهِم إلى يوم الدين، لن يراها أو يَمسّها أحدٌ من الإنس كما أوصاهُم النبيّ "سليمان" بنفسِه. فقط عليه دفن التوابيت والصناديق أسفلَ الهيكل الجديد، وبناء المذبح وإقامة الصلاة.

جِنّ "سليمان" يطوفون حولَ المكان بلا توقّفٍ، يتبعونَ الحارس ويحمونَ الميراث. الذهبُ والمرمرُ الأبيض في الصناديق، لا يوجد مثلهما في أي مكان، هما للأرامل والأيتام وعُبّاد الربِّ المُخلصين. الحِفاظ عليهما وحمايتهما يتكفل بهما الحارسُ ويرعاهما ويُنظمهما الكاهنُ الأمينُ.

"أونياس" لا يعرفُ ماذا يوجد بالتوابيت، بعضها ثقيلٌ وبعضها خفيفٌ كأنه خاوٍ لا يوجد بداخله شيءٌ. هو فقط يعلم أن مكانها تحتَ الأرض أسفل صحن الهيكل.

في مُنتصفِ الليل وأونياس يجلسُ في خيمته مُتعبدًا وحيدًا كما طلب منه الحارسُ بجوار الصناديق والتوابيت، ساد حوله الطنينُ، واهتزت الصناديقُ وسمع صوت الحارس الرخيم يأتيه من بينهم:

- عليك حملُ الصناديق الآن ووضعها في العمق وسط جدران الهيكل.

- وهل سأحملُها وَحدي؟

- نعم ستفعل.

الدهشة تتمكن منه، لكنه لا يستطيعُ المُعارضة أو التساؤل أكثرَ مما يجب:

- لكنها ثقيلة، أخشى ألا أستطيعُ حملها.

- بل ستستطيعُ، فقط قم واحمِلهَا.

لم يجد بُدًا من طاعتِه، وتفاجأ بأنه يستطيعُ حملَ الصندوق الواحد بيدٍ واحدةٍ. الصندوقُ بيده كأنه كأسٌ صغيرة خالية من الماء، حمل ثلاثة متراصة في كل مرة، حتى انتهى منها جميعًا في أبعد نقطة بداخل عمق الحفرة الكبيرة.

لا أحدَ يراه أو يشعر بما يفعل، كأنّ كل قومه أصبحوا أمواتًا لا يبصرونَ، ولا يسمعونَ ولا يشعرونَ.

قبل أن يعودَ لخَيمتِه رأى التوابيتَ تأتي نحوه وحدها في الفراغ مرتفعة عن رأسه بذراعين، كما لو كان أحدهم يَحملها فوق كتفِه.

المشهد يجعل قلبه يضطرب، والخوف يتخلل روحَه، لكنه يتماسكُ ويُتمتم بآيات من "التوراة" ويتابعُ في صمتٍ.

تراصت التوابيتُ في منتصف الحفرة على شكل دائرة صانعة بينها فراغًا، وحولها الصناديقُ، إلا صندوقًا واحدًا تحرك وظل معلقًا في الفراغ.

أعينٌ مضيئة تقتربُ من الحفرة يراها "أونياس" قادمة من قلب الظلام البعيد، تقتربُ منه وتتضحُ له، خمسة من الذئاب- ابن آوى- تتحركُ متعاقبة في سكينةٍ وهدوءٍ. قفزت جميعًا للفراغ بين التوابيت، وتراصت على جوانبها وأغمضت أعينها كأنها ذهبت في سُباتٍ عميق.

صوتُ النهيق يخرقُ آذانَ "أونياس" حتى إنه وضعَ إصبعيه يسد طبلتي أذنيه، ورغم ذلك لم يستيقظ أو يشعر أيّ من قومه النائمين.

يتحرك الرملُ من تلقاءِ ذاتِه، ويغطي كل شيء، الصناديق والتوابيت والذئاب، ويستقر الصندوق المعلق فوق الرمل بجوار الجدار.

صوتُ الحارس يأتي من الفراغ فوقَ مُنتصف الهيكل:

- انتهى كلّ شىء الآن.

- وماذا بَعدُ ذلك؟

- أتِمّ البناء، وشيّد المذبح وارعَ قومك ولا تخشَ شيئًا على الإطلاق، سأظل موجودًا أقوم بعملي وأنفّذ الوصية، وأرعى إرث سليمان.

في الصباح، الكلّ مشغولون بتتمّة البناء، ولا يسأل أحدٌ عمّا حدث للحفرة، وكيف غطتها الرمالُ، فقط عاد الجميعُ لإكمال عملهم، وسط شعورهم بالسعادة والاطمئنان أن ما حدث ليلًا دليلٌ على أن الرب يرعاهم، ولم يتخلّ عنهم.

فقط "أريلا" تُلاحق زوجة "أوني"؛ تريد مقابلته وسؤاله عن "أوري".

الكاهنُ ظل نائمًا طوال النهار، ولِمَ لا؟ وهو أول يوم له ينام مُطمئنًا بعد أن انزاح هَمّ حماية الأمانة مِن على كَتفيه.

الليلُ يزحفُ ببطء، ومع ذلك ما زالت "أريلا" تنتظر "أوني"، وبداخل قلبها شعورٌ دائمٌ بأن "أوري" ليس بخير، تشعرُ بأنه يُعاني ويتألم.. تُصدق قلبها، وتريد أن تطمئنَ عليه بأي شكل. حدسُها في محله، وقلبُها صادقٌ فيما يشعر، لِأَنّ "أوري" يعاني في موضعه الجديد، ولا يعرفُ ماذا تريدُ منه الملكة الحسناء.

تستدعيه الوصيفة الزنجية من وقتٍ لآخر، وتطلبُ منه أن يُمسّد ساقي الملكة، ويُدلك ظهرها.

لم يَعتد مِن قبل لقاءَ الملوك والملكات، ولا يعرفُ هل ما يفعله أمرٌ مستساغٌ أو جنوحٌ من الملكة عارية الظهر باستمرار؟ فقط يرى الملك وهو يُغادر الجناحَ الملكي في الصباح، ويراه مرةً ثانية عند عودتِه إليه في المَساء.

الملكُ لا ينظرُ إليه، أو يطلب منه أي شيء على الإطلاق، يتحركُ دائمًا وحوله ثلاثة من الحُراس ووزيره وخادمُه الخاصُ، ودائمًا مشدود الجسد رافعًا رأسه لأعلى، لا يلتفتُ لمن يقفون بجوار الجدران.

لا يرى أحدًا يقف أمام حجرة الملكة غيره، دائمًا يفعلها وحدَه منذ وصولِه، يفعلُها منذ الصباح حتى تأذن له "ساريتا" بالعودة لحُجرته في نهاية الردهات.

القصرُ بكاملِه في حالة استرخاءٍ وهدوءٍ من بعد خروج الملك صباحًا؛ للصيدِ مع مُساعديه وبعض الأمراء.

بعد حُلول المساء وتراقص ألهبة المشاعل المُضيئة بردهات القصر، أخبرته إحدى الوصيفات ذاتُ الملامح الآسيوية بأن "ساريتا" تطلبه،

وتنتظره في حُجرتها، يذهب إليها مُطيعًا، فقد اعتادَ الطاعة منذ سكنَ القصر.

حُجرة "ساريتا" أكبر بكثير من حُجرته، لكنها لا تصل على أي حال لربع مساحة حُجرة الملكة.

الوصيفة الآسيوية تغلقُ باب الحجرة خلفها وتغادر وتتركه واقفًا أمام "ساريتا" الجالسة على مقعدٍ من الخشب السميك.

ترنو إليه، وهو يشعر بالارتباك والتوتر، ولا يستطيعُ تثبيتَ بصره في عينيها القويتين المفتوحتين بغرور وتحدٍ.

ملابسُها أقل مما ترتديه طوالَ اليوم، ترتدي قِطعة واحدةً نسيجها من القماش الرقيق تشبه ملابس الملكة، تَشف جسدَها الضخم، وتُظهر تكدسَ اللحم تحته.

تتحركُ نحوه، وتدور حوله عدة مرات وهي تتعمدُ لمسَ كتفِه العارية بأناملها، وأنفاسُها تلفح رقبته محملة برائحة الخمر النفاذة.

تعودُ لجلستها فوق المقعد الخشبي، وهي تُلقي أمام قدميه رداءً من القماش الخفيف، وتشير إليه بيدها بغطرسةٍ واضحةٍ:

- اخلع ملابسَك وارتدِ هذا؟

أنفاسه تتلاحق، ويتمكنُ منه التوترُ، وتتجمد أطرافه، وهو ينقل بصره بين الرداء المُلقى أمامه وبين نظراتها القوية الحادة.

ترنو إليه بحِدةٍ لثوانٍ، كأنها ساعات قبل أن تنفجر ضحكتها الممزوجة بالسخرية والتحدي:

- لا تخجل وتضطربُ أيها اليهوديّ المتحفز المغرور، لا أحد هنا في هذا القصر يخجل من ساريتا.

تُغضبه كلماتُها الفجّة الخالية من أيّ لين، ويُحدّق فيها بكراهيةٍ مرتسمةٍ فوق ملامِحِه، وأحرفِ كلماتِه:

- ولِمَ عليّ تبديلُ ملابسي؟

تنهضُ ببطء، وتقتربُ منه بشدة حتى إنه شعر بثدييها الضخمين يضغطان صدره العريض، وهي تهمسُ بصوتٍ خفيض في أذنيه:

- المَلكة لا تحب مَلمس ملابس الحُراس.

امتقع وجهُه وهو يستوعب الأمر ويفهم أنها تُعده وتُهيئه للمُضي لحُجرة الملكة.

لا أحدَ في هذا القصر يخجلُ من النظر إليه، وهو يُبدّل ملابسه.

الخُطوات من حُجرة "ساريتا" وحتى حجرة الملكة ثقيلة مُتعبة كأنه يجر بقدميه أطنانًا من الحِجارة.

تتمدّدُ الملكة مُتكئة على معصمِها فوقَ فراشِها الناعم، وبيدها كأسٌ من الذهب ترتشف منها الخمر، وهي تستقبلُ وصوله بابتسامةٍ بنصف فمها.

شعورُه بالخجل يتضاعف وهي تُثبت بصرَها فوقَ فخذيه، وهو بهذا الرّداءِ الخفيفِ الذي يكشفُ جسده العاري من خلف نسيجه بكل سُهولة.

تقتربُ منه "ساريتا"، وتمد يدَها له بكأس من الفضة مُمتلئةٍ بالخمر.

يَصدّ يدها بكفه القوية، وهو يتحدثُ بصوتٍ قويّ صارم خرجَ من فمه دون إرادته لا يتناسب مع أجواء الحُجرة:

- لا أشربُ الخَمرَ.

تقطبُ "ساريتا" حاجبيها بدهشةٍ، وتسأله بسُخريتِها المُعتادة:

- ومَن يمنعُك؟

- الربّ يمنعني.

يرتفع صوتُ الملكةِ بضحكةٍ ساخرة، كأنها لإحدى جواري القصر، وهي تعتدل في جلستها وينزلق رداؤها عن إحدى كتفيها، كاشفًا نَهدها المكتنز وهي تتلفتُ برأسِها:

- الربّ؟.. لا أرى بحُجرتي أيّ ربّ!

يكزّ على أسنانه بغضبٍ بالغ، وهو ينظر لها بتحدٍ وصرامة:

- الربّ يرانا ولا نراه.

تعودُ للضحك بصوت أعلى، وهي تتجرع كمية ليست بالقليلة من كأسها، قبل أن تلقيها بعيدًا وترتطم بالحائط، وتُحدث دويًا حادًا يزيد من ارتباكِه وتوتره:

- اطمئِن أيها الحارس اليهودي.. الحُراس يمنعونَ ربّكَ هذا من الدخول لحُجرتي.

تتدخلُ "ساريتا" الأكثر هدوءًا من الملكة، وتمد يدها له بالكأس مرة أخرى، وهي ترمقه بنظرة حادة بينما تُوجه حديثها للملكة:

- الحارسُ اليهودي لا يعرفُ بَعدُ يا مولاتي أن من يعصي لكِ أمرًا أو يتأخر عن تنفيذ رغباتك، تُقطع رقبته، وتُعلق على باب القصر.

كلماتُها مُحددةٌ واضحةٌ لا شك فيها وفيما تحمله من تهديدٍ وتحذير.

يعتصرُ قلبَه الحزنُ وهو يتراجعُ عن ثباتِه، ويتناولُ من يدِها الكأس، ويتجرعها على مرة واحدة بغضبٍ واشمئزاز.

المذاقُ المُر يكوي جوفه، ويسري بعشوائية في عروقه، جاعلًا جسده ينتفضُ رُغمًا عنه.

الكأسُ بعدَ الكأس، وهو يقفُ كما هو يحاول تثبيتَ جسده الذي بدأ في الترنح، ويخفت امتعاضه بعد كلّ كأس جديدة.

الملكة أمامه تتابعه باستمتاع، ولا تكفّ عن الضحك، والعبث بأصابعها بين خُصلات شعرها البّني الطويل.

يشعرُ بتراخي جسدِه، وعدم قدرته على الوقوف وهو يرى الملكة أمامه تتعدد صورها، وتتداخلُ، ولا يعرفُ كم ملكة أمامه برداءٍ عَارٍ.

الخمرُ يصولُ ويجولُ بعقلِه، ويشعر به يتمكن منه ويُخدّر جَسدَه وأطرافه.

"ساريتا" لا تتوقف عن ملء كأسه كلما فرغت، ونثر العطر في أرجاء الحجرة من القارورات الكثيرة المتراصة بجوار فراش الملكة.

جسدُه يتمايلُ، ويشعر بأن فراش الملكة يتحركُ نحوه، ويقترب منه، ولا يُدرك أن "ساريتا" هي من تدفعه من الخلف نحوه.

لم يعُد يعي كم مرّ من وقت، وكم كأسًا احتسى عندما ترك جسده يستريح ويتمدد، ويشعرُ بنعومة ملمس حرير الفراش.

الصورُ تتداخلُ برأسه، ويرى وجه "أريلا" أمامه بملامحها الرقيقة تقتربُ منه مُبتسمة وتلمسُ وجهَه بيدها.

يلثمُ بطنَ يدها بفمه بنشوة، ويضمها لصدره وهو يشعر بالسعادة لرؤيتها أخيرًا.

تلتحمُ الشِّفاه في قبلةٍ مفعمةٍ بالشّوق، ويضمها إليه بحُب بالغ، وهو يهمسُ لها:

- كم اشتقتُ إليكِ يا أريلا.

تتجمد ملامحُها، وتختفي ابتسامتها وهي تبتعد عنه، وتترك ذراعيه، ينظر لها بدهشة ولوعة والدوار يتمكن من رأسه بقوة، وهو يرى ملامحها تتبدلُ، وتحل محلها ملامح الملكة "كليوباترا".

تنهضُ الملكة غاضبة من فوق جسده، وتبحث بعصبية عن ردائها.

تهرولُ نحوها "ساريتا" التي تجلس منذ البداية بأحد الأركان تشاهد وتسمع كل ما يحدث.

تضعُ فوقَ جسدها ثوبها الخفيف، وهي تحاول تهدئتها، وجمح غضبها بينما هي تصيحُ بغضبٍ عارم:

- أخرجي هذا الوقح خارجَ حُجرتي.

تمسك بـ"أوري" الثمل، وتقوده للخارج، وهو ما زالَ مشوشَ العقل والبصر، ولا يكف عن المناداة بلوعة على "أريلا".

تركته يقع من بين ذراعيها، ويسقط بمنتصف حجرته الصغيرة، وتهرولُ عائدة لحجرة الملكة الغاضبة.

لا تعرفُ كيف تتصرف، وبماذا تخبر الملكة التي انتظرت تلك الليلة وغياب الملك في رحلة صيد حتى تتمكن من الحارس الشاب، ومن وسامته وقوة جسده.

الملكة مفتونة بالحارس الشاب منذ رأته أول مرة، وهي من طلبت من الملك أن يُبقي عليه بالقصر، ويصبح حارسًا خاصًا لحجرتها.

الملكُ لا يفكر بها كثيرًا، ولا يهتم بإرضاء رغباتها إلا للتخلص من حديثها معه، يكتفي بالسهر كل مساء بجناحه، وحوله عشراتُ الجواري العاريات يسكب عليهنّ الخمر، ويلعقه من فوق أجسادهن.

وحدَها تبقى بحجرتها تئِنُ من الرغبة والاحتياج، ولا تجدُ في كل خَدمِها وحُراسها من يُشبع رغبتها ويشتهيه قلبها.

حُكم عليها بالزواج من أخيها "فيلومتر"، وفق التقاليد لتنصيبه ملكًا.حملت لقبَ زوجة، لكنها لم تمارس حميمية هذا الزواج إلا مرات قليلة، والملك فاقد للوعي والإدراك بسبب كئوس الخمر.

فقط "أوري" من فعل واقتحم قلبها بوسامته وقوة جسده، وجعلها ترجو أن يصبح عشيقها الخاص في تلك الليالي، والملك خارج جدران القصر.

بقدر ما انتظرت تلك الليلة بقدر ما تشعر بالغضب الشديد، وهي تسمعه يُناديها باسم امرأةٍ أخرى.

لم تضبط الحارس الوقح المغرور مرة واحدة وهو ينظر إليها نظرةَ إعجابٍ وافتتان.

باءت محاولاتُ "ساريتا" لتهدئتها بالفشل، وهي تصيحُ بغضبٍ، وتأمرها بحبس "أوري" وتعذيبه على جَسَارته والنطق باسم امرأةٍ أخرى غيرها، حتى وإن فعلها وهو مخمورٌ لمرته الأولى ولا يعي ما يقول.

١٩٧٠م - «حي الزمالك»

البردُ قارسٌ، والشتاء مُتمكنٌ من الجو، ويفرض سطوتَه عليه، ورغم ذلك فإن "ماجدة" تجلسُ بشرفة شقتها الواسعة الفارهة، تنظر للسماء بصمتٍ مُطبق، وتكتفي بوضع مِعطفٍ من الصوف فوق كتفيها، وحرارةُ مشاعِرها تُنسيها برودة الجو.

"زينب" خادمتُها العجوز تقترب منها، وهي تحملُ كوبًا من الشاي الساخن، تضعه على المنضدة أمامها دون أن تلتفت لها، أو تشعر بقدومِها من الأساس. تنظرُ لها وهي تلوي فمها بحسرةٍ، وتهمسُ لها بتودّدٍ وعطفٍ حقيقي:

- الشاي يا سِتي.

تَنتَبه لها "ماجدة"، وتفيق من شُرودها الشديد، وتبتسمُ ابتسامة باهتة، وهي تقبضُ بيديها على كوب الشاي الساخن، تبحثُ في حرارته عن دفءٍ غائبٍ عن الشرفة الباردة.

تربت "زينب" على كتفِها بحنان، وهي تقاومُ رجفة من شِدة برودة الجو:

- يا سِتي الجَو تلج، خُشِّي جُوه بَدَل ما تاخدي دُور بَرد.

- عادل اتأخر قوي يا دَادَة.

- مَعلَيش يا سِتي؛ الغايب حجّته مَعاه.

تهزّ "ماجدة" رأسها، وتعود لشرودها مرة أخرى بعد أن أشعلت سيجارتها الرفيعة، وتنفث دخانها بفوهة الكوب الساخن.

تكرر تأخر "عادل" خارج المنزل منذ شهور طويلة، تجلسُ وحدَها كل مساء تعاني الوحدة والملل حتى عودته بعد الفجر، واكتفائه بإلقاء تحية فاترة عليها قبل أن يبدلَ ملابسه، ويُخفي جسده تحت غطاء الفِراش.

ندر الحديثُ بينهما منذ وقتٍ طويل، مجرد جُمل صمّاء في الصباح قبل خروجه، ومثلها وأقل عند عودتِه في آخر الليل.

لم يَعُد يفعل مثل السابق، ويتصل بها بين الحين والآخر؛ ليطمئن عليها ويخبرها بسعادةٍ ومُداعبةٍ بأنه يشتاقُ إليها.

لم يُلهِه أبدًا من قبل عمله كمحام كبير ذائع الصيت عن الاهتمام بها وتدليلها.

سبعُ سنوات منذ زواجهما لم يتغير مثلما حدث في الشهور الأخيرة، بعد عودتهما من عيادة الطبيب الإنجليزي، وتوقيعه الكشف رقم مِئة عليها؛ لمعرفة سبب عدم قدرتها على الإنجاب.

أخبرهما بكلمات مقتضبة بأن الحَمل بالنسبة لها شِبه مستحيل؛ بسبب تلك التكيّسات فوق رحِمِها.

عادا ليلتها، ولم ينطق "عادل" بحرف طوال الطريق، حتى نزلت من السيارة وتركها، وتحرك وَحدَه لقضاء ليلته برفقةِ أصدقائِه. بمُجرد أن ابتعدَ عن بصرها تركت دموعَها تنسابُ فوق وجنتيها، وهي تبكي سوء حظها وفشلها في تحقيق رغبته في إنجاب أطفال يحملون اسمَه واسمَ عائلتِه العريقة.

طرقا أبوابَ مئات الأطباء، وكان آخرها ذلك الإنجليزي الذي جاء لمصر لمدة قصيرة. لم يُفلح معها أيّ دواء أو وصفة، لجعل أحشائها تُعلن عن وجود جنين.

بُرودة الجو وبرودةُ كفيها جعلتا كُوبَ الشاي يتخلى عن حرارته بين يديها، ويستسلم لبرودة الشرفة.

الحُزن بداخلها لا يتركُ لها مجالًا لتشعر بالبرودة، فقط تشعر بتلك الغصة بحلقِها، وهي تفكر في زوجها وتشعر بقرب نفاد صبره،

ومُضيِّه في طريق البحث عن زوجةٍ غيرها. ماذا يُجبره على الاستمرار في هذا الوضع والحياة دونَ إنجاب أطفال يملأون حياته، ويتمتعون بشهرته ونجاحِه وثرائِه؟

يُحدثها عقلها المضطرب بأنه بكل يقين سيفعل ويتزوجُ بغيرها.

لم يَعُد يطيقُ الجلوسَ معها بالمنزل، أو الحديث معها أو الخروج معها، كما كان يفعل من قبل، حتى إنه لم يعُد يناديها بـ"ماجي" كما كان يُدللها من قبل. مُتجهمٌ طوالَ الوقت، ولا يتواجد بالبيت إلا للنوم فقط، لم تتوقف يومًا عن تناول الدواء ولكن ما فائدة الدواء ولم يأخذها زوجها بين ذِراعيه منذ شهور وهي تخجلُ، ولا تملك شجاعة التدلل عليه وإخباره بأنها تحتاجه، وتحتاج أن تشعرَ به بين سَاقيها.

تتمددُ بجواره بعد عودتِه، ودموعُها تسيل بلوعةٍ رغمًا عنها، ولا تستطيعُ أن تخبره بأنها متيّمة بعشقه، وتشتاقُ إليه، وإلى لمساته وتذوق رحيق فمه.

يكاد يقتلها الشك، وهي تعتقد أن "عادل" قد تزوج عليها، وأن ذلك سببُ زهده فيها، وغيابه الدائم خارجَ البيت. بعدما ينام تُفتش في ملابسه، تبحث عن دليل وتبحث بأنفِها بين نسيج قماش ملابسه،

لعلها تفطنُ إلى رائحة إحدى النساء. لو أنها وجدت الدليلَ لارتاحت وكَفّت عن الأمل في أنه ما زال يُحبها، ولن يتخلى عنها ويتزوجَ غيرها.

خادمتُها العجوز تُلح عليها بلا مَلل أو فتور أن تُحضر "أم وداد" لتَقرأ لها الفنجان، وتخبرها بحقيقة زوجِها وما يُخفيه. ترفضُ بشدة وتُعنفها على اقتراحها الساذج في قراءة الفنجان، وكيف لها أن تفعل ذلك؟ وهي المُتعلمة المثقفة خريجة الجامعة؟

تهرولُ "زينب" نحوها تخبرها بهمس بأن "عادل" قد عاد، ودلف لغرفتهما.

تنهضُ مُسرعة وتتوجه ناحيته وهي تخلع معطفها الثقيل، وتصبح فقط بقميص نومها العاري القصير الذي يُظهرُ فخذيها الشهيتين، وذلك الأخدود بين نَهديها، وتصبحُ مُثيرةً فاتنة كما كان يُحب أن يراها دائمًا من قبل.

تساعده في خلع ملابسِه وتدور حوله وهو لا يَنتبه لهيئتها، ولا يهتمُ باهتزاز نَهديها أو لمعة جلد فخذيها العاريتين. تبالغُ في دلالِها وإبداء حُبها له حتى وإن لم يفعل مثلها أو حتى بشكل أقل.

تنتظر بشَوق أن يفتح فمه، ويُحدثها في أي أمر، لكنه لا يفعلُ، وكأنه يترك لسانه بالخارج قبل أن يعود للبيت.

يقتلها برودُه وصمتُه، حتى تفعلَها أخيرًا وتضع يدها فوق كتفِه، وهي تضمّه إلى صدرها من ظهره:

- مَالَك يا عادل؟

يتحركُ من بين ذِراعيها وهو يتجه نحو الفراش بجديةٍ، كأنه سيتأخرُ على عمل مُهم، وهو يُتمتُم بهدوءٍ:

- مَالِي؟

بأصابعَ مُرتجفةٍ متوترةٍ تُشعل سيجارةً جديدةً وهي تجلس على مقعد زينتها الصغير، وتتحدث بتوتر بالغ:

- فِيك إيه يا عادل؟ وسَايبني كِده ليه؟

يتعمدُ عدم النظر إليها، وهو يتمدّد تحت غطاء فراشه، ويغطي رأسه، ويرد ببرودٍ يسحقُ كبرياءَها:

- أظن إنتِ عارفة إني راجع تَعبان من الشغل، ومِش فاضِي للكلام الفارغ بتاعك ده.

تسحقُ سيجارتها بقدمِها، وهي تترك الغرفة وتعود للشرفة تضم ذراعيها حولَ صدرها، وكل جسدها يهتز من فرط غضبها، وما تشعرُ

به من حزن. عقلُها لا يتوقف عن التفكير، بالتأكيد هناك امرأةٌ أخرى أخذته منها:

- هل أنجبت له ابنًا؟ أو أن بطنَها ما زال منتفخًا بالجَنين؟

غضبُها العارم لم يجعلها تُدرك أنها تقفُ بالشرفة بقميص نومها العاري المثير، حتى لمحت "ممدوح" جارهم المُلحن الشاب، وهو يُحدّق في بياض جسدها المُضيء في ظلمة الليل. رَمَقته بنظرة غضب، قبل أن تعود للداخل وتُغلقَ باب الشرفة بعنف بوجهِه. تنادي بغضبٍ وتوتر على زينب التي تأتي إليها مفزوعة، وترى احمرار وجهها من الغضب والضيق:

- مَالِك يا سِتي، في إيه كفى الله الشر؟

- بقولك إيه، بُكرة الصبح بدري تجيبي اِسمَها إيه دي، بِتاعة الفِنجان.

تقطبُ "زينب" حاجبيها بشدةٍ، وهي مُندهشة من عدول سيدتها عن رأيها، ولا تُصدق أنها تطلب منها ذلك، رغم توبيخها لها من قبل:

- قصدك "أم وداد"؟

ترمقها "ماجدة" بنظرة غضب وهي تشيحُ بيدها في وجهها:

- مَعرفش بقى أم وداد ولا أم قِرد، المهم تكون عندي بُكرة الصبح.

تتلعثم "زينب"؛ وهى ترى هذا الكَمّ الهائل من الغضب المتجسد بملامح سيدتها، وترد بحماس:

- حاضر.. حاضر، مِن النجمة هَتكُون عندك يا سِتي.

- طب رُوحي يلا اعملي لِي فنجان قهوة.

تتنفسُ "زينب" الصّعداء لأنها ستبتعدُ من أمام السيدة الغاضبة:

- حاضر.. حاضر.

تلتقط بيدها معطفها من فوق أحد المقاعد تُخفي جسدَها بداخلِه، وهي تتذكر نظرات الانبهار والإعجاب الوقحة بوجه جارهم الشاب. تشعر بضيقٍ بالغ أنه استطاع رؤيتها بتلك الهيئة، وهو لم يحلم من قبل بأن ترد له ابتسامته كلما صادفها بمدخل البناية في دخولِها أو خروجِها. وَقح أرعَن لا يعرفُ الذوق أو الأدب، وينظر بتحديق وإعجاب لجارته المتزوجة. بالتأكيد عمله كملحن مع المطربات والراقصات يجعله يظن أن كل النساء بلا شرفٍ أو ضمير.

تسبّه في عقلها وتسبّ زوجَها النائمَ بالداخل وهو من جعلها تَفقدُ عقلها، بسبب برودِه وإهمالِه لها، وتخرج هكذا للشرفة، وتقدم جسدها البض المتناسق هدية في ليلةٍ شتويةٍ لجارهم الوقح المفتون بها.

١٨٢٥م ـ «تل اليهودية»

غادر الشيخُ "غنيم" بعد عِدة ساعات قضاها مع "لينان"؛ يقصّ عليه كلّ ما يعرفه عن التل.

المهندسُ النابغ الذي يؤمن بالحساب والعلوم يرفضُ بشدة تصديق رواية الشيخ العجوز المؤمن بالخرافة، ومحاولته إيقاع الخوف بقلبه، وهو يسردُ قصص المسّ والسحر، ووجود الجن بأرض التل.

يجلسُ في خَيمته يتأمل "نسيم" كما يجب أن يفعل دائمًا، وهي تجلسُ أسفل قدميه وتضعهما في الطبق النحاسي المُمتلئ بالماء الساخن، وتمسدهما له بحُبٍ وسعادةٍ.

يهربُ من كل ما يُؤرق عقله بالجلوس برحاب حُسنها، وجَمال ابتسامتِها.

ورغم أن بيوت الفلاحين تقع بعيدًا عن خيامهم، فإن سماع جلبة تأتي من خارج الخَيمَة جَعلَه ينهض بقلق، ينظر ماذا يحدث بالخارج. مُساعدُه "شوكت" يتجه نحوه بعُجالةٍ واضطراب ويُخبره بأن الفلاحين يتشاجرون مع جنود الوالي، ويُريدون منهم الرحيلَ، وتركَ التل بعد أن وصل إليهم أنهم جاءوا لأخذ الحجر المُبارك.

الأمورُ تتعقد بعقل "لينان"، وهو يتذكرُ ما قصّه عليه الشيخُ منذ قليل.

كلهم يعتقدونَ أن حجرًا "ممسوسًا" وبه سِحرٌ قديم تركه اليهود يجعل من يأتي إليه ينعم بخير وفير، وبركة عظيمة هائلة لا تنتهي. الفلاحونَ يريدونَ الحضورَ كل صباح بحيواناتهم إلى الحجر حتى يزداد اللبنُ بضروعها، وتحل البركة بها، وتسمن أسرع من أي حيوانات أخرى.

هكذا أخبرهم أجدادهم عن التل وبركتِه.

التل مباركٌ يلقي بركته على ضروع الماشية وحتى الطيور، وكل من يقترب منه ويلمس بقدمه الحجر.

الشيخ "غنيم" حدّثه عن ذلك، وأخبره بأنه يحرس التل خلفًا لأجداده، ويُلبي رغبة كل محتاج ضعيف يبحث عن الخير والبركة فوق حجارة التل.

أعدادُ الفلاحين تتزايدُ ويأتون من كل القرى المجاورة.

تنتشر الشائعة في الريف أسرعَ من رائحة النُشادر.

جنودُ الوالي رغم عددهم الكبير، لا يستطيعونَ مواجهة كل هؤلاء الغاضبين القادمين بحماس، يحملونَ فئوسهم كأنهم يستعدونَ للدخول في معركة في بداية الخليقة.

تهدئة الغاضبينَ هي الحلّ الوحيد لمنع مجزرة قد تحدثُ في أي لحظة.

توجّه "لينان" بنفسه نحوهم؛ يحاولُ منع الصدام المرتقب، وهو يلمحُ الشيخ "غنيم" يقف بمُقدمتهم، وعلى وجهه ابتسامة نصر وزهو بعددهم الوفير الذي لا يتوقف عن التزايد.

حكمة "لينان" وعقلانيته أكبر من شعوره بالغضب من الشيخ والفلاحين، وإدراكه أن الشيخ هو من نشر الشائعة، وبث بهم الغضب تجاه حملةِ الوالي للتل:

- من فضلك يا شيخ غنيم، دَعني أتحدثُ معك على انفراد.

صيحاتُ الغضب تعلو من خلف الشيخ المُغتبط، ترفض ذهابه مع المهندس ذي الملامح الأوروبية، لكنه بكل هدوء يشيرُ لهم بيده النحيفة بحسم، ويتحركُ مع المهندس الشاب بخُطوات الفائز المغتر بنفسِه.

لم يترك له مجالًا للحديث، وهو يلقي عليه شروطه الصارمة، كي يجعلَ الفلاحينَ الثائرينَ يعودوا من حيث أتوا، ويتركوا أفراد الحملة دونَ عِراك.

"لينان" يعرفُ حجم التفاوت بين طرفي النزاع ويطيعُ الشيخ الصارم في كل طلباته بشرط واحد أن يتركوهم لينتهوا من مهمتهم، حتى لا يغضب عليهم الوالي، ويبعث لهم بعدد من الجنود لا تخيفهم فئوسُ الفلاحين.

عادَ الشيخُ المنتصرُ ينادي في أتباعه بحماس، ويطلب منهم العودة، وهو يتحدثُ بقوةِ وبأس قائدٍ عسكري منتصر، يخطب في شعبه الثائر من أجلِه.

"لينان" يُهدّئ من غضب قائد الجنود ويطلب منه ضبط النفس، وعدم قتال الفلاحين، وأن يثق به وبقراره في طاعة الشيخ المُتسلط وتنفيذ طلباته.

"شوكت" يستمعُ لتعليمات "لينان" الجديدة، وهو مُتأففٌ من رضوخ رئيسه هكذا بكل سُهولةٍ لعجوز جاهل يقود حفنة من الفلاحين، لا يعرفون أهمية ما يفعلون، وأنهم جاءوا فقط من أجل

دراسةِ المنطقة، والبحث والتنقيب، ولم يأتوا من أجل أخذ الحَجر المبارك.

الأغبياءُ الحمقى كيف تصوّروا أن أحدًا يُمكنه حمل أو مجرد تحريك حجر بكل هذا الحجم والوزن؟

"لينان" يعودُ لخَيمته، وتفزعه رؤية "نسيم" مرتعدةً تبكي؛ من خوفها مما يحدث، يضمّها إليه ويربت عليها، وهو يُقبّلُ رأسَها بلوعةٍ ويطمئنها ويتخذ قراره رغم صعوبته بضرورة عودتِها لبيته بالقاهرة.

مضت الليلة ثقيلة على الجميع، حتى جاء الصباحُ وتحرّك "لينان" بحزم نحو القاهرة يُعيد "نسيم" لبيتهما رغمًا عنه، من فرط خوفه عليها مما قد يحدث مستقبلًا بعد أن أمر "شوكت" بالبدء في تنفيذ ما اتفق عليه مع الشيخ غنيم.

تُنقل خيام أفراد الحملة بعيدًا عن صحن التل، ويظلّ الشيخ وأتباعُه معهم طوال الوقت، لضمان عدم المَساس بحجارته.

عشراتُ الوصايا ألقاها على مسامع "إليت"، مديرة منزله، تخص رعايتها لزوجته أثناء غيابه في أرض التل.

"نسيم" لا تكفّ عن البكاء، وهي تسأله العودة معه، وألا يتركَها وحدها. رقيقة عاشقة لا تريدُ الابتعادَ عنه والبقاء دونه في البيت، لا

تشعر بأنه وطنها وأرضها، فقط تشعر بالراحةِ والأمانِ بوجودِها معه وبين ذِراعيه.

مات أبوها أمامَ بصرها تحت سَاقي فرس نهر غاضب، وماتت أمّها بلدغة بعوضة أصابتها بالحُمّى حتى صرعتها بعد أيام قليلة.

وحيدة تتحرك بين أفراد قبيلتها، أينما ذهبوا، حتى وجدها "لينان" ووقع في حُبّها وتزوجها، وهي سعيدةٌ لا تُصدّق أن الرجل الأجنبي الوسيم صاحب البشرة شديدة البياض أحبها، وتزوّجها في يوم وليلةٍ.

تبكي وتفترش الأرضَ تُمسك بقدمه؛ ترجوه ألا يتركها وحدَها ويعود إلى التل.

لا تعرف معنى "بيت"، البيتُ بالنسبة لها أن يكون معها وبجوارها.

دموعُه تَغلبُه، وهو يقبل رأسَها وتنساب دموعُه من عينيه، وتسقط فوقَ وجنتيها. يَعِدها بالقدوم، كلّ بضعةِ أيام، ويُطمئنها أنه يفعلُ ذلك؛ بغرض حمايتِها وإبعادِها عن مخاطر عمله. بصعوبةٍ بالغةٍ استطاع الخروج من البيت؛ مُتوجّهًا لمبنى الوزارة.

تحدث مع "ريتشي" بغضبٍ شديدٍ، وهو يقص عليه كل ما حدث بالتل، وكيف خرج عليه الفلاحونَ يحملونَ الفئوس يريدون الفتك به وبأفراد فريقِه.

العجوزُ الهادئُ يبتسمُ ببرودٍ، ويطلبُ منه العودة للتل دون خوف، وفي الصباح كل شيء سيتغيرُ ولن يعود الفلاحونَ لإزعاجه مرة أخرى.

يجلسُ في حُجرة مكتبه يُلملمُ أفكاره، حتى وضع بين يديه أحدُ المساعدين رسالة وصلت من باريس.

يشعرُ براحةٍ وهو يفتحُ الرسالة بشَوق وعُجالةٍ، وهو يعرف أنها بالتأكيد من والده. كَم يحتاجُ في هذا الوقت لكلمات والده، كي يعودَ إليه هدوءُه مرةً أخرى:

" عزيزي لينان، الابن الحبيب، الباحث في أسرار الشرق.

وصلتني رسالتك، وما تحمله من أسئلة تخص أرض "تل اليهودية"، التي قطنها اليهود قبل الميلاد.

لم يكن الأمرُ سهلًا للوصول لمعلومات غزيرة مؤكدة. لكنني على أيّ حال، وبعد بحثٍ مُضنٍ بأوراق الكتب القديمة بمكتبة باريس العتيقة، وجدت ما تبحثُ عنه وتريد معرفته.

القصة كلّها تبدو غريبة مجهولة منسيّة بلا سببٍ واضح.

لا أحدَ يعرفُ بالضبط لماذا تختفي معلومة مهمة تخص "هيكل سليمان" وهو أكثر ما يهتم به اليهود ويبحثون عنه؟

هل هُم من يُريدون إخفاء تلك القصة؟، أو أن مَن حَكَمَ مصر منذ قرون هُم من أرادوا طمسَها ومحوَها حتى لا يعود اليهود، ويبحثوا عن ماضيهم وإرثِهم وهيكلِهم المقدس.

الأمر بدأ برحلة قادها كاهنُ الهيكل والمعبد "أونياس الرابع" بعد مقتل والدِه، وحمل مع أفراد قومه ما كان بالهيكل، من كُنوز حتى تلك البقعة المُسماة الآن بأرض "تل اليهودية".

تصديقًا لنبوءةِ "إشعياء"، أقام "أونياس" هيكل سليمان بتلك الأرض، بمُساعدة قومه وقبول وترحيب من الملك البطلمي حاكم مصر وقتها "فيلومتر" الذي كان يخشى المصريين، ويبحث بوجود اليهود عن مُساندٍ وداعم له ولحُكمه.

ما وجدتُه يؤكد أن "أونياس" شيّدَ بالفعل الهيكل بتلك الأرض، رُغم معارضة بعض قومِه ورفضهم أن يكون الهيكلُ بمكان غير أرض المقدس، لكن الكاهن كان صاحب القرار، والآمر الناهي، وأقام الهيكلَ فوق معبد قديم مهجور.

عزيزي لينان المتحمس بغير رعونة..

بحثَ الكثيرونَ على مر العصور عن كنوز الملك سليمان بكل مكان، ولا عجبَ أن يبحث مثلهم "والي مصر" الشغوف بجمع كل كنوز الأرض ومن سبقوه من ملوك.

وجدتُ أوراقًا تتحدثُ عن معجزة مقترنة بأرض التل، وعن وجود مسّ شيطاني يسكن حجارة التل، لكنني كما تعلمت بعملي بالبحر، لا أصدّق وجود العاصفة إلا بعد رؤية السحب تتحركُ فوق رأسي.

ما قرأته أصابني بالفضول في معرفة حقيقة تلك الأرض الغامضة المَنسية لسببٍ ما.

ثِق تمامًا أنك ستجد الإجابة، وتُدوّن بيدك حقيقة ذلك التل، وتكشف حقيقة وجود الهيكل وكل حقائق تل اليهودية.

والدُك المُحبّ والمُؤمن دائمًا بنبوغك

يطوي رسالةَ والده، وهو يشعرُ بحماس شديدٍ يُعوض كلّ ما مرّ به من أحداث منذ أمس، وهو يتحرّك مرةً أخرى إلى أرض التل.

١٤٥ ق.م - «ليونتوبوليس»

دموعُ «أريلا» لا تجف، ولا تهدأ مشاعرها، وهي تشعر بهذا الكَمّ من اللوعة؛ لغياب «أوري» منذ ذهب للقصر، ولم يرجع لها مرة أخرى.

تجلس وحيدةً بالساعات بعيدًا عن الأعين، متكومة على نفسها، تحتضن ركبتيها وتبكي بخشوع، وهي تدعو الرب أن يعودَ حبيبُها من جديد، وتعود لها روحُها وتهدأ نفسها.

لا تتوقفُ عن الدعاء والصلاة طوال الوقت أن يعود الغائبُ، وترتوي بالنظر لوجهه.

كلماتُ «أونياس» دائمًا مقتضبة مختصرة، لا تُشعرها بالاطمئنان، اكتمل القمرُ مرتين ولم يأتِ «أوري» كما أخبرها الكاهنُ، تشعر بأنه ليس بخير.. تُحدثها نفسها أنها لن تراه مرة أخرى.

الكلّ مشغولون بما يفعل، وبإتمام الهيكل، وطاعة الكاهن، ولا أحد غيرها يشعر بغياب «أوري».

تبالغُ في العمل حتى تظل قريبة من خَيمَة الكاهن، لعلها تسمعُ ما يجعلها تطمئن.

فقط زوجة الكاهن صاحبة القلب الرقيق تشعر بها وبلوعتها، ولا تكف أبدًا عن طمأنتها بأنه لا بُد أن يعودَ.

الكاهنُ يعطي تعليماته للجميع لإعادة تشييد السور الُمتهدم حول الهيكل الجديد، يُريد حمايته وإضفاء الخصوصية على وطنهم الجديد.

الأرضُ مُعدةٌ وممهدةٌ لصنع السور حول الهيكل، فوق بقايا السور القديم المتهدم.

يجلسُ مع مساعديه بصحن الهيكل، ينظر للفانوس المتدلي من السقف، ويضم يديه لصدره، ويدعو الربّ أن يحمي قومه، ويُحيطهم بالبركة.

العهدُ من ملك البلاد يُشعره بالأمان والطمأنينة، ووجودُ المئات من قومه في صفوف جنود الملك يؤكد له أن الملكَ لا يُزعجه وجودهم، ولا يحمل لهم نية سوء.

لأيام متعاقبةٍ لم يسمع فيها صوت الحارس، ولم يَحْتَج لمناداته، والهيكل يرتفعُ بنيانُه وتتضح معالمُه بشكل يقتربُ من الكمال.

فقط يُفزعه صوتُ نهيق الحمير كلما اقترب من قبرها الكبير، لا أحدَ غيره يسمع صوت نهيق الحمير، كلما مرّ بجانبها أفزعه سماع صوتها، ويُتمتمُ بدعائِه للرب، وهو يُحدِّثها ألا تغضب أنه أخذ مكانها وأرضها.

الأمانة تسكنُ باطنَ الأرض كما أمره حارس عصا «سليمان».

لا يتوقفُ عن الذبح، وإرواء الأرض بالدم المُبارك، وهو يُصلي بخشوع، ويطلب الرحمة والحماية من الرب.

الكاهنُ مُخلصٌ مؤمنٌ ويعرفُ أن الرب يحميه ويوحي إليه بما يفعل، ويحمي قومه ويحبهم. قومُه مخلصون، لا يكفّون عن عبادة الرب والذبح، وقد عاد لهم الهدوء بعد أن أصبح لهم وطنٌ وأرضٌ ومذبحٌ.

الأطفالُ يلهونَ بفرح حولهم، والملك لا يتوقف عن إرسال المُؤن والطعام لهم مع جنوده، وكلّ من حولهم من أهل «كمت» يُبادلونهم المودة والترحيب.

الكلّ سُعداء مُطمئنون إلا شخصًا واحدًا فقط، «أوري» الذي فاق من بعد الليلة المشئومة ليجد نفسه مُعلقًا من ذراعيه بالحديد الصلب في قبو مُظلم لا يرى فيه شيئًا.

لا يتذكرُ شيئًا على الإطلاق منذ تناول كأسَ الخمر من يد «ساريتا»، وهو يرى الملكة أمام بصره تتعرى وتتلوى بجسدها المُغري فوق فراشها، لماذا وجد نفسه مُعلقًا هكذا؟

لا يتذكرُ شيئًا، والخوفُ يتمكن من قلبه، وسط عتمة القبو الموحشة، مُتعب برأس مُنهك ويشعر بالظمأ.

الوقتُ يمرّ، ولا يعي كم مر عليه من نهار أو ليل، وسط العتمة الدائمة، المرارةُ تزداد بحلقِه، وهو يرجو فقط شربة ماء يروي بها عطشه البالغ.

أصابع قوية تُمسك خُصلات شعره الطويل، وترفع رأسَه المتدلي لأعلى، لا يرى تفاصيل وجه من يقف أمامه، لكنه يعرف أنها «ساريتا» فور سماعِه صوتَها:

- أتعبك الظلامُ يا عاشقَ أريلا؟

يكاد عقلُه ينفجرُ، وهو يسمعها تنطق باسم حبيبته، كيف علمت بأمرها ولماذا تحدثه عنها؟

مفزوعٌ مبهوتٌ مُشتتُ العقل يصرخُ في ظلمة ملامحها:

- أريلا!!!.. ماذا حدث لها؟، ولماذا تذكرينَ اسمها؟

تضحك ساخرةً من لَوعتِه وفزعِه، وهي تزيد من جذب شعره بيدها بغلظةٍ وعنفٍ:

- إذًا الحارسُ المغرورُ مفتونٌ بتلك الفتاة.

يصرخُ بلوعةٍ، وهو يُجاهدُ في جذب وثاقِه الحديدي دونَ فائدةٍ:

- حلّي وثاقي أيتها الساقطة.

تصفعُه بقوةٍ فوق وجهه، وهي تردّ صياحه بصياح أشد قوة:

- الساقطة هي أريلا التي سمحت لنفسها أن تسكنَ قلبَ خادم الملكة وحارسها.

الأمور تتضح بعقله، رغم أنه لا يعرف كيف حدث ذلك ومتى، الملكة عرفت بأمر «أريلا»، وتشعر بالغيرة منها وتريد عقابه:

- أتوسل إليكِ، لا دخل لأريلا بما يحدث بالقصر.

تترك شَعره وتمد يدها القوية، تقبض بقوةٍ مفرطةٍ على ما بين فخذيه، وهو يُجاهد لكتم ألمه:

- كيف لا دخلَ لها، وقد جعلت الملكةَ العظيمةَ تشعرُ بالضيق وتفسد ليلتها بعد أن تعطرت وتزينت وانتظرت الانتشاء؟

يَئِنُ بصوتٍ مكتوم من عنف قبضتها، والألم يعتصر جسده وقلبه:

- صدقيني لا أعرف ماذا حدث ولا أتذكر شيئًا على الإطلاق.

تقتربُ من أذنه، وهي تهمسُ بصوت واضح، ويدها ما زالت تعتصر خصيتيه بلا رحمةٍ:

- لكن الملكة تتذكرُ كلَّ شيء.

تفلتُ من فمه صرخة ألم رغمًا عنه، وهو يتحدث بأحرف متقطعة:

- لم أقصد.. صدقيني لم أقصد.

- هل تشعر بالظمأ؟

قالتها وهي تُرخي يدها، وتحركُ أناملها برفق فوق خدِّه المُتعرق، وأنفاسها ذات الرائحة الكريهة تلفح وجهه:

- نعم، أعطيني جرعة ماء.

تُحرك إصبعها فوق شفتيه الجافتين، قبل أن تمرره بهدوء بينهما لنهاية فمِه حتى كاد يتقيأ:

- ومَن يروي ظمأ الملكة؟

فطن لمقصدها وهو يُرجع رأسه للخلف، بقدر ما يستطيع لتجنب وصول إصبعه لبلعومه:

- سأفعل.. سأفعل كل ما تريده الملكة.

تُخرجُ إصبعها ويشعر بها تبتعد للخلف عدة خطوات، ويسمع صوت سقوط الماء على الأرض دون أن يستطيع رؤيته:

- ومن أخبرك بأن الملكة تريد شيئًا؟

الغضبُ يفتكُ بقلبه وعقله، وهو يقاوم رغبته في سبّها والصراخ بوجهها المظلم بظلام القبو الحار، لا يعرف ماذا يفعل أو بماذا يُجيبها ويخبرها.

لم يَعتَد المبارزة بالكلمات مثلها، ولا يعرفُ كيف يُخلص نفسه من شرها وخبثها، وَقعُ أقدامها يُخبره بأنها رحلت وتركته وحده وسط كل ما يعصف برأسه من أفكار ومخاوف.

ماذا ستفعل الملكة بـ«أريلا»؟ وماذا ستفعل به، وكيف يُمكنه إرضاءها وجعلها تبتعد عن حبيبته، ولا تفكرُ في إيذائها.

الألمُ يتمكنُ مما بين فخذيه، وكأن قبضة الخادمة الشريرة لم تتركهما بعد. دموعُه تسيلُ وهو يُنادي الرب بحرقةٍ وألم، ويطلب الرحمة، الربّ لا يتخلى عن مُحبيه المخلصين، ولن يترك يد الملكة الشريرة تطالها وتُوقع بها الأذى.

«أريلا» فتاةٌ طيبة، تحب الرب، وتَخدم في بيته، ولن يسمح لأحد أن يؤذيها.

وقع أقدام عديدة قوية تقترب منه، ويفتح عَينَيه عن آخرهما؛ يحاول رؤية القادمين نحوه.

أيادٍ غليظة تحل وثاقه الحديدي بغلظة، حتى إنه شعر بيده تنجرح، ويسيل منها دمه الساخن من عنف الحركة وسرعتها، يجرّونه خلفهم حتى تسلل لبصره نور الشمس ليسقط فوق عينيه كضرباتِ سياطٍ رفيعةٍ حادة.

جنودُ القصر يجرونه وهو عاري الصدر، لا يغطي جسده غير سرواله القصير، حتى الساحة الخلفية للقصر، ويعيدون ربط يديه بمسبح خيول الملك.

يتركونه في الخلاء، وأشعة الشمس الحارقة تُلهب رأسه وجسده، ويزداد جفاف حلقه وشعوره بالعطش الشديد،.

الدوار يتمكنُ من رأسه، وهو مكوم لا يستطيع الحركة، ويشعر بالوهن بكل جسده، حتى اقترب منه الخادمُ الأملسُ بابتسامته الصفراء وملابسه الحريرية الناعمة وبيده قارورة صغيرة.

يقفُ فوق رأسه، وخلفه قرصُ الشمس، لا يستطيع النظر إليها ومواجهة لهيبها:

- أين اختفت قوتُك أيها الحارسُ صاحبُ الجسد الضخم؟

دونَ أن يرفعَ له رأسَه يحدثه بصوتِه المُنهك:

- أعطني جرعةَ ماء.

يضحكُ الخادمُ بقوةٍ وسخريةٍ، وهو يضعُ قدمه بحذائه الخشبي فوق فخذِه العارية:

- لماذا أعطيك ماءً وهو أمامك بالفعل؟

الخادمُ الشريرُ يُريده أن يشرب من مسبح الخيول الملوث بأجسادِها وفضلاتِها.

يُجاهدُ لرفع رأسِه ويبصقُ عليه بفمه الجاف المتشقق، والخادمُ يزيد من ضحكته الساخرة، وهو يفتح القارورة، ويسكب ما بها من زيت أسود سميك فوق رأسه وجسده، قبل أن يتركَه ويرحلَ.

الذبابُ يجذبه الزيت ويتجمع فوق جلده، يُشعره بالجنون، وهو مقيد الأيدي لا يستطيع منعَه أو إبعادَه.

ألمٌ لم يُجرّبه من قبل، ورغبة عارمة في الصراخ، وجسده يتشنج رغمًا عنه، والعطش يفتك به، وهو يتلوى، ويفركُ جسده المغطى بالزيت بحجارة المسبح، حتى بدأ يشعر بجلده يتمزق، ويسيلُ منه دمه الساخن، ويزدادُ تجمع الذباب عليه، ولا يشعر بنفسه وإلا وهو يستسلمُ، ويفعلها ويلقي جسده بماء المسبح، ويتركُ الماء المشبع بالتبن والشعير يروي ظمأه.

يختلط الماءُ بالزيت بدمه ودموعه، حتى إن الخيول تفزع وتتراجع للخلف، وهي تضرب بحوافرها الأرض من جلبة وعنف حركة جسده المُتشنج بالماء.

بالكاد وبعد أن هدأت حركته يتركُ رأسَه يستند إلى حافة المسبح، وضوء الشمس الحَادّ يخفت تدريجيًا حتى يختفي تمامًا، ويتمكن الظلام والهدوء من عقله، ويرى «أريلا» تجري نحوه، وتضمه إلى صدرها.

يضمها لصدره بلوعة ويبكي بحرقة، وهي تربتُ على رأسه، وتطلبُ منه الصبر والهدوء.

يشعرُ بأحدهم يجذبه بقوة من بين ذراعيها، ويحكمُ قبضته عليه، وهو لا يستطيع المقاومة أو الفرار، وجنودٌ بملابس معتمة سوداء

يجرّونَ «أريلا» على الأرض، وهي تصرخُ وتناديه لينقذها منهم، وهو مُقيدٌ لا يستطيعُ إنقاذها.

يُشهرون أسلحتهم الحادة الطويلة، ويرفعونها حتى آخر ما تستطيع أذرعهم القوية ليضربوا بها جَسدَ «أريلا» الرقيق.

يصرخُ بمِلء قلبه لينتفضَ جسدُه بقوة، ويفتح عينيه ويجد نفسه بحجرته ممددًا فوق فراشه، وفوق جسده ضمادات كثيرةٌ، وأمامه يجلس الخادمُ الأملس بابتسامته الصفراء الدائمة، ونظراته التي تقعُ في قلبه بالبغض والكراهية.

يضع الخادمُ يده فوق أنفه، وهو يحركُ رأسه مُعبّرًا عن تقززه، واستنشاق رائحة كريهة:

- للحارسِ المغرورِ رائحة منفرة تشبه رائحة الخيول.

ينظرُ إليه ولا يتذكر متى عاد لحجرته وكيف، فقط يشعر بألم ينتشر بكل جسده ويلمحُ تلك الجروحَ والندوبَ تنتشر فوق صدره وبطنه.

إحدى الوصيفات تقتربُ منهما، وهي تحملُ بين يديها طبقًا كبيرًا ممتلئًا باللحم المشوي، ذات الرائحة الطيبة الشهية.

يشعرُ فجأة بالجوع، وكأنه تذكّر فجأة أنه لم يتناول أيَّ طعام منذ وقتٍ طويل.

ينقضّ على الطعام يلتهمه بجوع بالغ، والخادمُ يتابعه بسخريةٍ وخبثٍ، ويأمر الوصيفة بصوته الرفيع:

- بعد أن ينتهى، نظفي جسده جيدًا حتى يتخلص من تلك الرائحة الكريهة.

يتركهما ويتوجه لحجرة "ساريتا"، ويخبرها بحماس أن الحارس اليهودي فاق من غيبوبته وبدأ في التهام اللحم.

١٩٧٠م ـ «القليوبية– شبين القناطر»

"أهل الهَوى يا ليل فاتوا مضاجعهم

واتجمعوا يا ليل صُحبة وأنا معهم

يطوِّلُوك يا ليل ويقصَّرُوك يا ليل

يطولوك يا ليل من إللي بيهم

وإنت يا ليل بس إللي عالم بيهم"

لا شيء يُضاهي تلك الليالي، و"دهشان" يستند بظهره إلى حائط دَوَّار العمدة؛ يستمعُ لصوت "السِّت" المُنبعث من راديو "العمدة".

العُمدة وشيخ البلد وحدهما من يملكان راديو في "الجِهَة" كلها، ويتمكنان من سماع صوت السّت العذب كيفما أرادا.

في تلك الليالي بنوبة حراسة "دهشان" التي تتكرر مرتين في الأسبوع يأخذ مكانه خلف حائط الدوار يسترق السمع لصوت الست، وهو يضع "الكنكة" النحاس فوق النار، ويُعِد لنفسه كوب الشاي الثقيل "الحِبر" ويستمتعُ بصوتها. يجدُ في صوتها وكلمات أغنياتها السلوى والتعبيرَ عما يجيشُ بصدره.

الحياةُ أصبحت جحيمًا لا يُطاق، وهو مُجبرٌ كل صباح ومساء على سماع كلمات أمه، وتوبيخها له على قبوله الحياة المنقوصة مع "سِعدة" التي فشلت في إنجاب الولد.

ضميرُه يرفضُ الانصياع لتوجيهها، والزواج بأخرى.

كيف يفعلُها؟ وهو عاشقٌ مفتونٌ بسِعدة، غارقٌ في عِشقِه لها حتى رأسِه.

لم تعُد الأمور تسير بينهما كما كانت بالبداية، ولم يعد يتغزل فيها، ويُسمعها حُلوَ الكلام. لكنه، بلا شك، ما زال يُحبها مِلء قلبه.

ومِن أين تأتيه الرغبة في مُغازلتها ومُداعبتها و"فوقية" والدته تُسمعه مُرّ الكلام، كلما خطت قدمه بيتهما. تنتظر أحفادها بفارغ الصبر، وتُمنّي قلبها برؤيتهم قبل أن تغادر الدنيا، وتسكن مباني "الجبانة" القصيرة ذات الأبواب الحديدية المُحكمة الإغلاق.

بقرارة نفسِه يؤمن بأن "عين الحسد" هي السببُ في سوء حظه، وعدم إنجاب "سِعدة" للولد، وكيف لا؟ وقد حسده عليها كلّ ذكور قريتهم، حتى المتزوجون منهم.

مَن في ذكور القرية لم يُثبّت بصره عليها مُبتسمًا وهو يتفحصُ جَمَالها، وتناسقَ جسدها كلما مرت أو تحركت، وجسدها يتمايلُ برقةٍ

ودلال مهما جاهدت لجعله صلبًا متماسكًا يعارض ويقاوم الحركة اللينة المتراقصة مع خُطواتها.

"سِعدة" التي لم تنظر قط لأعين أيٍّ من مُعجبيها،

كانت تخصُّه وتهبه تلك النظرة العاشقة كلما مَرّ من أمام بيتهم في طريقِه لدوار "العمدة".

فَتَنَته وفتَنَهَا، وانتظرت مروره كل صباح مثلما يفعل، ويبحثُ عنها بشَوق حتى يلمحها ويبتسمَ لها وهو يشد معطفه الأصفر، وينفخ صدره ويُهندم شاربه بأنامله، وهو يرمقها بنظرته وابتسامته قبل أن تخجل، وتُخبئ وجهَهَا خلف الإيشارب الفوشية.

كان لا بدَ من زواجه بها، مَن غيره يليق بها ويستحقّ الفوز بها وبجمالها من بين كل شباب القرية؟

هي الأجملُ بين كل الفتيات، وهو الأوسَمُ بين كل الفِتيان. لم يملّ قط من النظر بوجهها، وتأمّل ملامحِها المُضيئة في ظلام حجرتهما.

تزوّجها وانطلقت الرصاصاتُ المُبتهجة من بنادق الخفر تحتفل بهما، والكل حولهما يُصفقون ويُهنئون ويُباركون.

لكنه يعلم من نظراتهم أنهم يحسدونه على الزواج مِنها.

تأكدَ من ذلك وهو يستأذنُ "العمدة" قبل الزواج وسَمِعَه وهو يرفعُ حاجبَه اليمنى:

- البت البيضا الحلوة، بنت جليلة بتاعة العيش؟

حتى العُمدة، صاحب الطين والدوار والستة عُقود من الزمان حَسَدَه على "سِعدة"، أجمل بنات "الجِهَة".

صوتُ "الست" يُلهبُ مشاعره ويُؤجّج مشاعره المُتداخلة المُضطربة:

- هل يستجيبُ لإلحاح أمه العارفة بمصلحتِه ويتزوجُ بأخرى؟ أو ينتظرُ الفرج من عند الله واستجابة رحِم "سِعدة" لماء ذكورته؟

الأيامُ الأخيرةُ بينهما أصبحت جافة متوترةً، لكنه على أي حال لا يملك جمحَ رغبتِه نحوها كل ليلة وهو يزحف بجسده فوقها، ويلتهم جسدها بشَهوةٍ كأنه في كل مرة يفعلها لأول مرة.

الجَو يَزدادُ برودةً، و"إمبابي" رفيقه في الحراسة يقترب منه بجسده البدين، ويسقط بجواره يفرك يديه فوق لهيب "رَاكية الولعَة":

- مَالَك يا وَلَا يا دهشان مِسَهِّم كِده ليه؟

يلوي فمه، ويهُز رأسه بيأس ولا مُبالاة وهو يفقد تركيزه مع صوت "الست"، بقدوم رفيقه صاحب الصوت الغليظ المُزعج:

- ولا حَاجَة يا عم إمبابي.

نفخة غرور من أنف "إمبابى"، وهو يزجره بكوعِه مُعتزًا بحذاقته:

- ولا حَاجة إزاي يَا وَلَا، وإنت بُوزك قدامك شِبرين؟ تِكُونش الست فوقية لِسّتها بتِتعَارك معاك عَشَان تتجوَّز على مراتك؟

لا مجالَ للهروب من تدخله، وفضوله الدائم في الحديث في الأمور الخاصة:

- يَعني مَنتَش عارف المَرار إللي أني فيه يا عَم إمبابي؟

- يا وَلَا يا خايب، اسمَع كَلام أمك واتجوّز،

حَد يطول يتجوّز على مِراته من غير ما حَد يعيب عليه؟

صوتُ رفيقه المُزعج وكلامه الخالي من المشاعر والإحساس بما يحمله قلبُه من عشق حقيقي لزوجته- يُصيبه بالضيق، ويُزيد من شعوره بالاختناق:

- وهُو أني يَعني خَايف من كلام الناس؟

- أومّال خايف من إيه يا وَلَا يا مدَهنِن أنت؟

يرمقُه بنظرة اشمئزاز رغم حاجته لأن يُخرج ما بصدره، حتى لو كان سيفعلها مع "إمبابي"، غليظ الصوت والَمشاعر:

- أني بحب سِعدة، ومِش عايز أتجوز عليها، وفي الوقت ذاته طِهقت من كلام أمي.

يَمُد "إمبابى" ساقه البدينة، وينحني على أحد جانبيه، لصُنع فراغ يسمح لذلك الصوت ذات الرائحة الكريهة المقززة في الخروج، ومقاطعة صوت "الست" للمرة العاشرة:

- مممم.. يبقي مفيش قدامك غير حَل واحد.

ينتبه له، ويُقاوم الرائحة الكريهة بطيئة الاختفاء من حولهما:

- اِلحقني بيه يا عم إمبابي، ويبقى لك الحلاوة.

يهتز جسد إمبابي وهو يضحك، ويفقد القدرة على منع تعدد خروج الأصوات ذات الرائحة الكريهة بتتابع منتظم، مما جعل دهشان يضحك رغم تقززه البالغ:

- مِش أقل من دكرين بط سُمان ووزة عتجية.

- غالي والطلب رخيص، بس اِلحقني بالحل أني في عرضك.

يُخفض صوته ليُكسبه هيبة وأهمية، وهو يمد يده يتناول كوب الشاي الخاص بدهشان:

- عَلقها برقبة عالم، واطلع منها سالم يا وَلَا.

يخلع طربوشه الأحمر، ويهرش رأسه بعنف، ويفرك وجهه بكف يده:

- قصدك إيه؟

يرشفُ آخر ما تبقى بكوب الشاي بصوتٍ مُرتفع، ويتجشأ وهو يضرب بكفيه فوق بطنه المنتفخ:

- قصدي تُروح لحَد من الشيوخ، يفكلكم العَمَل ويحل العُقدة.

يقطبُ دهشان حاجبيه بقوةٍ ودهشةٍ لا تخلوان من القلق والاضطراب:

- عَمَل؟

- أيوه عمل، وأقطع دِراعي عَمل سُفلي كمان.

الخوف يتسرب لقلب دهشان، وتزوغ عيناه، وهو يشعر بصدق تحليل رفيقه، وهو بالأساس مُوقن من قبله أن عين الحسد هي من صنعت به كل ذلك:

- يا سنة سُوخة يا عم إمبابى.. ودي حُوسة إيه دي بس يارب.

يَمُد إمبابي المُعتد برجاحة عقله يده نحو الكنكة، وهو يسكب بها ملء كفه شاي:

- ولا حُوسة ولا حاجة؟

- إزاي بس؟

- سِيبني إنت بس يومين تلاتة، وأنا أدلك على إللي يشيل عنك البلا ده، ويريح بالك.

يربتُ بتوسل على كتفه البدينة:

- لَاجْل سِيدنا النبي يا عم إمبابي ما تِنسَنيش.

- عَيب يا وَلَا حَدِيتك المَاسِخ ده.. دَا أنت أخويا الصغير، وإحنا أكتر من الأهل، أما أقوم بقى بدل ما جَنَاب العُمدة يلمح مدخل الدوار من غير خفر ويبهدلني.

يسكبُ الشاي في الكوب الألومنيوم، ويترك دهشان وحدَه مع أفكاره المُتداخلة المُرتبكة.

عقلُه يرتاح لكلام إمبابي، ويشعرُ بدنو الحل، وقدوم الولد، بلا شك فعلها أحدهم وصنع لهما "عَمَل مغلظ"، يمنعهما من الإنجاب،

ولِمَ لا؟ وقد حسده كل شباب القرية على زواجه بـ"سِعدة". كلام إمبابي به الكثير من الوجاهة، يُعلقها برقبة عَالِم، وينتظر النتيجة، ما الضرر في زيارة شيخ من الشيوخ المشهورين بفك الأعمال، لمُساعدته ورفع السحر والضرر عنه وعن زوجته؟

يشعرُ بالارتياح ويترك رأسَه يرجع للخلف يستند إلى حائط الدوار، ويُغمض عينيه وصوت الست يتضح في عقله من جديد:

"ناس من قلوبها تقول يا ليل

وناس على الأرغول تقول يا ليل

وإحنا معانا بدر طالع في ليلة قدر

فيها حبيب القلب وافي ووافي الندر".

١٨٢٥م - «القاهرة- قصر الوالي»

مُقابلة جناب الوالي «محمد علي باشا» حظوة لا يصل إليها الكثيرون، «ريتشي» العجوز من هؤلاء، ممن يملكون تلك الحظوة والقُدرة على الوصول لديوان الوالي بكل سهولة كلما أراد ذلك.

الوالي لا يهدأ أو يكفّ عن إعطاء الأوامر هنا وهناك، يُريد من الجميع العمل ليل نهار، بلا توقفٍ أو سكون، لا يتركُ شبرًا واحدًا بأرض مصر إلا ويفتش فيه عن كنز مدفون أو فائدة مُمكنة.

العملُ مستمرٌ بالشَّمال والجنوب والشرق والغرب بنفس الوقت وبنفس الإرادة والعزيمة وفق تعليماته الصارمة التي لا يناقشه فيها أحدٌ، لا يستمع لمُعترض ولا ينتظر نصيحة من أحد، فقط يغضب ويثور ويأمر بالسجن أو قطع الرقاب.

يُطربه سماعُ صوت صراخ مُعارضيه بسجن القلعة، ولا يستهوي قلبُه أكثر من سماع أحد رجاله يخبره بالنجاح وإتمام العمل، أو العثور على كنز قديم مدفون. رؤية الذهب تجعل وجهه يتهلل، وابتسامته تتسعُ بين شعر ذقنه الكثيف.

لم يُوكّل ريتشي بأي مهمة مهما بلغت صعوبتها إلا وأتمها كما أراد وأكثر.

زيارةُ ديوان الوالي مساءً أمرٌ غير معتاد، لذا أمر جناب «الوالي» جنودَه بسرعة إدخال «ريتشي» كبير المهندسين.

عددٌ لا بأس به من الرجال يجلسون حول الوالي، ويقف بالمنتصف الشيخ «مصطفى» يتحدث بصوته الرخيم، وعمامته تهتزّ باهتزاز رأسه، وهو يقصّ على مسامع جناب «الوالي» قصة تلك السيدة التي تدّعي أن بها «مَسّ»، وأن الجن يسكن جسدها، وتسيطر على العامة وتقرأ لهم الطالع، ويزدادُ عددُ مريديها كلّ يوم، وهي تدّعي القدرة على التنبؤ، ومعرفة الغيب.

الكلُّ بمن فيهم «ريتشي» الذي اتخذ له موضعًا في صمتٍ وسكون، يستمعون لقصة المرأة صاحبة الجسد المسكون بفضول وتركيز.

جنابُ «الوالي» يجلسُ مُتكئًا باسترخاءٍ، وبيده خرطوم «النرجيلة»، يسحب منه الدخان، وتنتشر رائحة «جوز الهند» منها، ولا تحملُ ملامحُه أي تعبير واضح، وهو يستمع مثلهم للقصة على لسان الشيخ الذي يُقدّره ويحترمه ويتخذه من المقربين.

انتهى الشيخ من سرد قصته، وانتظر بصمت وإجلال، اختفاء دخان النرجيلة من أمام وجه «الوالي» وقراءة ملامحِه وردِّ فعلِه.

انفرجت ابتسامة «الوالي» وهو يوجه حديثه لقائد حُراسه:

- أيها المُقدَّم، اقبض على تلك المرأة، وألقِ بها في النيل.

شد قائدُ الجنود جسدَه، وهو يرد بصوتٍ قوي صارم، قبل أن يُشير برأسه بحماس لأحد جنوده لتنفيذِ الأمر:

- أمرُك يا جناب الوالي.

علاماتُ الدهشة المرتسمة فوق وجوه الحضور- وخاصة وجه الشيخ «مصطفى» الذي شعر بتأنيب الضمير لتسببه في مقتل السيدة- جعلت ابتسامة «الوالي» تتحول إلى قهقهة عالية جذبت مثلها من أفواه الحضور، رغم أنهم لا يعرفونَ سببَ الضحك:

- لا تَجزع أيها الشيخُ الطيبُ، إذا كانت مسكونة بالجن وينفذون أوامرها لن يتخلوا عنها ويتركوها تغرق، وإذا كانت تكذب وتدّعي القدرة والوصول، فقد لقت جزاءها المُستحق.

الشيخُ المضطربُ يحرك يديه لأعلى وأسفل، وهو يمدحُ بتلعثم حكمة الوالي وسدادَ رأيه.

يلتفتُ «الوالي» إلى «ريتشي» ويعطيه الإذن بالحديث عن سبب حضوره، يقفُ أمامه ضامًّا يديه أمام جسده، وهو يسردُ عليه بحماس آخر أخبار «وزارة الأشغال العمومية» وإنجازاتها الكبيرة، ثم يقطبُ حاجبيه ويقصّ عليه ما وجده «لينان» وحملته إلى أرض «تل اليهودية» من رفض واعتراض من الفلاحين، وكيف وقفوا له بالفئوس يمنعونه ويمنعون رجاله من القيام بعملهم.

الغضبُ يتمكنُ من جناب «الوالي»، ويلقي خرطوم «النرجيلة» من يده بعنف، وهو يعتدل ويصيح بغضب في قائد الجنود:

- كيف يجرؤ أحدٌ على أن يعترضَ أمرًا لي، أيها القائد؟

يرتبكُ القائد ويُسارع بالرد بحزم وصرامةٍ وفزع من غضب «الوالي»:

- سأذهبُ بنفسي إلى هناك يا جناب الوالي.

يضرب «الوالي» بقبضته فوق طاولة بجواره، حتى إنها تميل وتقع من قوة ضربته:

- لا أحدَ يقفُ أمام أمر لي أيها القائد.

يتنحنحُ الشيخُ «مصطفى» بخوف، وهو ينهض مرة أخرى ويقف بجوار «ريتشي»:

- إذا سمح لي جناب الوالي.

يرمقه بنظرة لم يختفِ منها الغضبُ البالغ.

- ما يحدث هناك بأرض التل أبعد ما يكون عن اعتراض الفلاحين على أمر لمعالي الباشا، والي البلاد.

يستمع «الوالي» وقد بدأت نفسُه في الهدوء وعاد مرة أخرى للاتكاء، وهو يتناولُ من أحد خدمِه خرطومًا جديدًا لنرجيلة جديدة تفوحُ منها رائحة جوز الهند:

- فسّر لي ما تُريد أيها الشيخ.

الكلّ في صمت مُطبق، والشيخ الوقور يقص عليهم كل ما يعرف عن أرض التل:

- البسطاءُ من كل مكان يقصدون حجر التل؛ للبحث عن البركة والعطاء وحَل الأعمال، ودَرء الأزمات والصعاب، ورثوا الإيمان ببركة حجر التل من أجدادهم، وأن به سحرًا تركه كاهن يهودى قديمًا يجعل من يقصده ويبتغي بركته لا يعود خالي الوفاض. تقصده العاقر فتعود ببطن منتفخ، وقد نما بأحشائها الجنين، حتى الحيوانات والماشية بمجرد أن تطوف حول الحجر تدبّ البركة

بضروعها وتنتفخُ باللبن ويتضاعفُ خيرها. البُسطاءُ يُصدِّقون ويؤمنون ويتبادلون القصص المختلفة عن بَركة حجر التل وسِحره، لا يعترضون أمر «الوالي» ولا يقصدون غير الحفاظ على حجر التل، والإبقاء على أمل حصولهم على البركة وفك الأعمال، والعلاج من شر السحر الأسود.

الشيخُ يعرفُ الكثير والكثير عن أرض التل، وكيف كان في البداية معبدًا لمعبود مصري قديم كان رمزًا للخصوبة، ومن بعده أقام اليهود الهاربون من «أورشليم» معبدًا وديارًا لهم، وسكنوا تلك الأرض أعوامًا طويلة، حتى إن هناك قصصًا تُروى أنهم أقاموا هيكلًا فوق أرض التل، حتى تم هدمه بعدها بأكثر من ثلثمائة سنة.

«الوالي» يستمعُ بتركيز وإنصات، ولا يقاطع الشيخ، غزير المعرفة حسن البيان.

بعد أن انتهى من سرد قصته ووضع كل معلوماته أمام جناب «الوالي»، نظر «الوالي» إلى قائد جنوده، وهو يأمر بصوت هادئ اختفى منه الانفعالُ:

- عليك بالفلاحين.

١٤٥ ق.م ـ «ليونتوبوليس»

الهيكلُ «قدس الأقداس» هو المخدعُ الذي يضاجع فيه الإله عروسَه «ماترونيت»، دون الهيكل لا يُقابل الإله عروسَه.

«فالملكُ دونها ليس بملك، وليس بعظيم، ولا يُسبّحُ أحدٌ بحمده».

الحياة استقرت بـ«أونياس» وقومه، وعادت الفرحة لهم، بعد عناء وليالٍ طويلة من الخوف والهروب. اختفت الخيامُ وحلّت محلها البيوتُ الراسخة المُشيّدة بحب واهتمام، ولم ينسوا أن يتركوا تلك الرقعة في الجدار بلا تزيين، كي تُذكّرهم بهدم الهيكل القديم.

يُتمّ بنفسه زواجَ من يريد الزواج من أبناء المهاجرين، بعد أن أتموا البناء، وأصبح «قدس الأقداس» مُشيدًا مرتفعًا، والذبحُ يعود من جديد. الفرحة منتشرةٌ سائدةٌ، وكل من ذهب لجيش الملك عاد بزي الفرسان الجديد، والتقى أهله، فقط شخص واحد لم يعد ولم يظهر، ولم يسمع عنه خبرًا واحدًا منذ غادر أرض التل.

تجلس «أريلا» بالساعات فوق التبة المرتفعة، لا تكفّ عن البكاء والرجاء أن يعود «أوري» من جديد، أن تعود لها روحُها التي غادرت جسدها بمغادرته أرض التل بصحبة الكاهن.

كلما ارتفع صوتُ التهليل احتفالًا بزواج أحد من قومها شعرت بانقباضة صدرها ولوعة فراق حبيبها الغائب.

الأيامُ مُعادةٌ متشابهة دون وجوده بجوارها، يُسمعها حُلو كلامه، ويخبرها في كل لحظة بأنه يعشقها ولا يرى في الوجود سِواها.

موكبٌ كبيرٌ له رائحة جميلة تسبقه يحمل وفدًا قادمًا من القصر من عند «الملكة». رجال لهم ملابس نظيفة مهندمة، وعربة مغطاة تنزل منها كبيرة الوصيفات «ساريتا».

أول وفد يأتي من القصر بملابس رقيقة، ورائحة جميلة، وعدد أقل من الجنود. يستقبلهم «أونياس»، ويرحبُ بساريتا باهتمام شديدٍ، وهي تتلفت حولها بعين الباحث المُدقق قبل أن تدلف معه لداخل بيته الجديد الملاصق للهيكل. يضع من معها من مساعدين بعض اللفائف المُعطرة هدية الملكة بين يد زوجته، وتخبرهم كبيرة الوصيفات بأنها هدية حب وترحيب من الملكة العظيمة.

ملامح «ساريتا» تحملُ الكثيرَ من الألفة والود، وهي تخبرهم بأن الملكة قررت اختيار وصيفات جُدد لها من قومه الطيبين.

وجهُ الكاهن يتحولُ للتجهم والاضطراب، لا يريدُ ذلك وبنفس الوقت لا يستطيع الرفض، هو راعي بيت الإله، وكنز الملك سليمان وراعي قومه، لا يريد لفتيات الهيكل العمل كخادمات بقصر الملكة، ولكن متى وجد بنفسه القدرة على المنع أو الاعتراض؟

كبيرةُ الوصيفات تقرأ ملامحه وتفطن لما يدور بعقله، بخبرتها وما تخفيه عن أبصارهم من خبث وشر لا يتوقف أو ينتهي:

- فتاتان أو ثلاث أمرٌ بسيط أيها الكاهن خادم الرب، ولا أظنك تريد رفض طلب الملكة وجعلها تغضب من ضيوفها.

تهديدها واضحٌ وحاسمٌ برغم ابتسامتها الواسعة الثابتة فوق ملامحها السمراء.

تقفُ برأس مرتفع وبصر متفحص أمام بيته وزوجته قادمة من بعيد برأس منكس وخلفها الكثير من الفتيات، تتفحصهن «ساريتا» وتلحظ تلك الفتاة المتحفزة التي تحاول تخطي زوجة الكاهن وسبقها في الوصول.

تبتسمُ بخبثٍ بالغ، وهي تتفحصها وتتطابق ملامحها مع كلمات «أوري» وهو محمومٌ مريضٌ ينادي عليها، تقترب «أريلا» وتقف أمامها بأعين مفتوحةٍ مشتاقة، ونظرات مستعطفة كي تختارها.

الفتيات يشعرن بالخوف، ويختبئن في أجساد بعضهن بعضًا، فيما عدا «أريلا»، تتقدمهن بحماس، وتكاد تنطق وتطلب بنفسها الذهاب للقصر.

تقتربُ منها «ساريتا»، وتداعبُ خُصلات شعرها الأحمر الداكن، وهي تنظر بثبات في عينيها الزرقاوين المُشتاقتين:

- ما اسمك أيتها الجميلة.

- أريلا.

تبتسمُ كبيرةُ الوصيفات بسعادةٍ وانتصار، كانت تظن أنها ستجد صعوبة بالغة حتى تعثر على عشيقة الحارس المغرور، لكنها وجدتها بسهولة شديدة وأسرع مما توقعت، تربتُ عليها وهي تحدِّث نفسها أن العشق يفعل ذلك وأكثر.

العشقُ جعل الفتاة تتقدم بنفسها بغيّة الذهاب خلف فتاها والبحث عنه، تختار فتاتين ممن يختبئن خلف زوجة الكاهن بلا تركيز

أو تدقيق، وتصحبهما مع «أريلا» العاشقة في عربة خلف عربتها نحو القصر.

الخادمُ الأملسُ هو صاحبُ تلك الفكرة الخبيثة، طوال الأيام السابقة وهو يتابع الحارس المريض، وجسده الممزق، وهو يسمعه في مرضِه يُنادي على «أريلا».

جعل «ساريتا» بنفسِها تسمع هواجس الشاب المحموم، وهو يهمسُ لها أن عليهما التخلص من تلك الفتاة، إذا كانا يُريدان إرضاء الملكة، وتقديم الحارس لها ليشاركها فراشها، ويُسعد لياليها الخالية من جسد الملك المخمور كلّ مساء.

الملكة التي تصغر زوجها بعدة سنوات، لم تقض ليلة واحدة بفراشها وهي تشعر بالرضا والسعادة. اعتلى جسدها مرات قليلة، لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، جسده الضخم الذي تفوحُ منه رائحة الخمر ودهن اللحم يتمدد فوقها وهي تتململ منه، ومن رائحته، وتقاوم رغبتها في التقيؤ، وبيدها قارورة عطرها الصغيرة تقربها من أنفها كي تهرب من رائحته الكريهة. تتحاشى قبلاته وتبغضُ رؤية أسنانه البنية، وتساقط قطرات عرقه فوق وجهها، كأنها قطراتٌ من لهيب حارق. تدفع ثمن أنها أخته من نفس دمه، وزواجهما مقدسٌ

داعمُ لشرعية حُكمه وتنصيبه على العرش بعد أبيه، ومكوث أمه الملكة «كليوباترا الأولى» ملكة لسنوات حتى بلوغه.

لم تشفع حياتها كملكة تنعم بالخدم والذهب والجواهر وملمس الحرير أن تجعلها تشعر بالرضا والسعادة للحظة واحدة منذ زواجها. بحثت في كل الوجوه حولها عَمّن يُرضي أنوثتها المشتعلة وتنعم معه بطعم القُبلات، دون جدوى.

حتى هؤلاء من سمحت لهم كئوس الخمر أن يتذوقوا لحمها، ومشاركتها فراشها في ليالي خروج الملك للصيد، بمجرد أن تستيقظ في الصباح وتغادر كئوس الخمر عقلها، تأمر بقطع رءوسهم خفية عن الملك وهي تشعر بكَم هائل من الضيق والحُزن.

لا يمكن لها تقبّل أن يُصبح جسدها متعة مباحة بالمجان لحُراس حُجرتها.

تتمدد أسفل كفّي «ساريتا»، باكية شاردةً، وهي تُحدث نفسها وتلومها على فعلِها، وتشعر فقط بالارتياح عندما يعود خادمها الأملس، ويهز رأسه بابتسامته الصفراء مُعلنًا عن قطع رأس ساكن فراشها أمس.

لا تريدُ سَد جوع فرجها، تبحث عن ذلك الشعور الغائب عن وجدانها، أن ينبضَ قلبُها بالحب نحو أحدهم.

تتذكر «برت» رفيق طفولتها، وهما يلعبان معًا بقصر أبيها، ويضحكان، ويخبرها ببراءته بأنه سيتزوجها عندما يُصبح شابًا فارسًا يحملُ السيف حول خصره. كانت تحبّه مِلء قلبها، ولم تتخيل أن تفقدَه مهما كانت الأسباب، لكنّه حدث وفقدته عندما استيقظت ذاتَ صباح، ووجدت كلَّ من حولها يتحركون بهرولةٍ وتسمعهم يتحدثون عن حرب أبيها مع سُكان الشَّمال.

اختفى «برت»، ولم يعُد له وجودٌ إلا بقلبها وصورتِه تلاصق عقلها، حتى بعد أن تزوجها «فيلومتر»، وهو يحملُ لقب الملك.

لم تتمالك نفسَها عندما وجدت «أوري» أمام بصرها مع وفد الكاهن، ووجدت ملامح «برت» مُرتسمة فوق وجهه. خفق قلبُها واستيقظ فؤادها، وهي ترى وجه حبيبها القديم مُتجسِّدًا أمامها فوق ملامح اليهوديّ الشاب.

عندما تحبّ المرأة يُصبحُ عقلها جرسًا بلا أصوات، فعلتها للمرة الأولى وطلبت من زوجها أن يُبقي الشاب بالقصر ويحرسَ حجرتها.

فقد وجدت أخيرًا ضالتها وما بحثت عنه لأعوام، حتى طعنها باسم عشيقتِهِ، وهو ثملٌ لا يُدركُ ما يقولُ.

أرادت قتله على خيانته، لكنها أبدًا لم تستطع أن تفعلها، قبل أن تُقطع رأسه في الصباح، عادت وأمرت بأن يَبقى على قيدِ الحياة. لن تفقدَ حبيبَها مرة أخرى، مهما كلفها الأمر. في المرة الأولى كانت صغيرةً لا تملك من أمرها شيئًا، أما الآن فهي الملكة تأمر وتطاع وبيدها كلّ شيء.

أشار عليها خادمُها الأملس الخبيث أن يأتي بعشيقة الحارس، ويتخلص منها، كي يُصبح لها وحدَها.

«ساريتا» تُوسوس للخادم أن يأتيا بالفتاة، ويُبقياها على قيد الحياة ولا يقتلاها؛ كي يستخدماها وسيلة ضغط على الحارس حتى يُطيعهما، ويُنفذ ما تريده الملكة على أكمل وجه. هُما بالنهاية يريدان إرضاء الملكة، والنّيلَ من ذهبها وجواهرها، فإذا ماتت «أريلا» قد يُجن الحارس المغرور، ويفقدان عطايا الملكة، ويفقدان كل شيء، حتى إنه من الممكن أن يفقدا رقبتيهما قبل فقد الذهب.

١٩٧٠م - «حي الزمالك»

بجلبابٍ أسودَ مُزين بخُطوط طوليّة من الخيط الأحمر الداكن جلست "أم وداد" بجوار صاحبة البيت، بينما "زينب" تُعِد لهما القهوة وتجهز للضيفة عملها.

"ماجدة" مُرتبكة مضطربة تتحاشى النظر في عَينَي ضيفتِها، تشعر بالخوف والتوتر، والندمُ يتمكن منها بعد أن سمحت لنفسها بالانزلاق في مَنطق خادمتِها، والاستعانة بقارئة فنجان.

توَدّ العُدولَ عن قرارها وطرد الضيفة ذات الملامح الغريبة، بوجهها شديد الاستطالة وعَينَيها الضيقتين المُحاطتين بالكحل الكثيف، والخطوط الثلاثة المُتابينة الطول، المرسومة فوق ذقنها. لكن بعد فوات الأوان، وقد سبق السيفُ العذلَ، فها هي تجلس بجوارها وتتفحّصها وتتفحص أثاث البيت باهتمام وتدقيق.

تقتربُ "زينب" وهي تحمل فناجين القهوة، وعلى وجهها ابتسامة انتصار أن سيدتها أطاعتها واقتنعت بحديثِها، ووافقت على حضور "أم وداد".

تحتسي صاحبة البيت قهوتَها بارتباكٍ كأنها تتجرع دواءً شديدَ المرارة بتعجل، تُريد سرعة الانتهاء ومعرفة ماذا يُخفيه عنها زوجُها المُهمل لها بوجهه العبوث منذ شهور.

تنتهي من فنجانها، وتضعه بيد ضيفتها التي تلتقطه منها بجديةٍ وصرامةٍ، وتُقلبه فوق الطبق المسطح، وتُحركهما كقِطعةٍ بإحدى يديها، وهي تتمتمُ بعباراتٍ غير مفهومة، وتضع اليد الأخرى فوق الركبة العارية لصاحبة البيت الجالسة بتوتر بفستانها القصير.

تقطب حاجبيها، وهي تتفحص خطوط البُن في الفنجان، وتُحدق فيه وهي تقتربُ منه بوجهها وتبتعد وتقترب عدة مرات متتالية، قبل أن تتحدثَ دون أن ترفعَ بصرَها عنه:

- قلبُك موجوع يا سِتي، وذهنك مشغول وتحت "سُرتك" عقدة مربوطة، وفيه واحدة كرّابة متربصة لك وبَاصّة عليكِ.

يختفي ارتباك "ماجدة"، ويحِل محله فضولها، وهي تندمجُ مع صوت قارئة فنجانها وتسألها بشوق:

- مِين دي يا أم وداد؟

تدخل "زينب" وهي تضربُ بظهر يدها اليمنى فوق بطن يدِها اليسرى:

- حتمًا ولا بد دي إللي شاغلة سي عادل بيه.

ترمقها "ماجدة" بنظرة ضيق لتدخلها، وهي تنتظرُ الإجابة من فم قارئة فنجانها التي لم تتوقف عن التحديق في جوفه بتركيز:

- صحيح الكلام ده يا أم وداد؟

تزفر "أم وداد" وهي تترك الفنجان من يدها، وتُدلك صدرها ببطن يدها، وتحرك كفها برقةٍ وعطفٍ فوق ركبة صاحبة البيت:

- يا سِتي الرجالة عدم المُؤاخذة ما يملاش عِينيهم إلا التّراب، تلاقيها واحدة عِينيها عليه، وهي إللي شاغلاه، ومش بعيد هي اللي عَملالك العَمل.

ترتعد "ماجدة"، ويرتجف جسدُها رغمًا عنها وهي تسألها بتلعثم وتوتر مرتفع:

- عَمَل؟

تمسحُ أم وداد اللعاب الأبيض من جَانبي فمِها وهي تفتحُ عَينيها الضيقتين عن آخرهما، وتتحدث بصوتٍ أقرب لصوت مذيع الراديو، وهو يُلقي الأخبار على آذان المُستمعين:

- أيوَه عَمل ونُص كمان، دَا باين زَي الشمس في عِين الفنجان.

تدخل "زينب" للمرة الثانية، وهو تشعرُ باللوعة على سيدتها التي تحوّلَ وجهُها إلى اللون الأصفر، وتندى جبينها بحبيبات العرق رغم بُرودة الجو:

- يَا مَا قُلت لك يا سِتي مَعمُول لك عمل، واتنَأورتِ عليّ.

الصداعُ يلفّ رأسَ صاحبة البيت، ويجف حلقُها وتشعر بدوار وفزع ورجفة تجتاحُ جسدها، وأنفاسُها تتلاحق وتجعل صدرها يصعدُ ويهبط بقوة، كأنها تَعدُو منذ ساعات:

- قومي يا زينب هَاتِي لي غِيار من بُتوع البيه.

تهبّ "زينب" مُطيعة، وصاحبة البيت لا تعترض أو تناقش أو تسأل عن السبب، وتكتفي بالشعور بكفّ "أم وداد"، وهو يترك ركبتها ويتحرك على شكل دوائر فوق صدرها، وهي تهمسُ لها بصوت مُفعم بالجدية:

- ما تقلقيش يا سِتي، كل مشكلة ولها حل.

تعود "زينب" مُتحمسة كَمَن قام بعمل بُطولي، وهي تحملُ جزءًا من "بنطال" صاحب البيت، وتضعه بيد الضيفة التي تطبقه بعجالة، ويختفي بين ثنايا جلبابها الأسود.

ارتباكُ "ماجدة" يختفي وهي تشعرُ بالضيفة تنهضُ وتقفُ أمامها، وتضمّ رأسَها لجسدِها وتحرك كفها فوق رأسِها، وتتمتم بعباراتها السريعة غير المفهومة.

إنها فقط الخطوة الأولى، مهما كانت قسوة وصعوبة الطريق، بعدها تُصبح كلّ الخطوات سهلة متوقعة.

"ماجدة" تجلسُ في شُرفتها شاردةً مؤمنة بيقين أن قلب زوجها مشغولٌ بغيرها، كما أخبر الفنجان "أم وداد".

كل من تعرفهن من نساء يمرُرن بعقلِها وهي تحاول أن تبحث بينهن عن سارقة زوجها:

تُرى مَن تكون؟

هل تعرفها، أو هي واحدةٌ من هؤلاء النساء اللائي يزُرنَ مكتبَه، ولا تعرفهن ولا تعرف عنهن شيئًا على الإطلاق؟

عقلُها يكادُ ينفجرُ ولا تشعر برفيقِها الجديد، "ممدوح" جارهم الوقح، وهو يقف في شرفته ينظر نحوها، ويتفحصها بجُرأتِه الغريبة ونظراته الوقِحة. تنتبه إليه وترتبكُ وتغضبُ، لكنّ شيئًا بنفسِها يُحدثها ألا تنهض وتهرب من نظراته. يجبُ ألا يشعر بضعفِها وارتباكِها وتُفهمه بتجاهلها له أنه بلا قيمة ولا يشغلُ بَالَهَا. رغم غيظِها منه ومن

وقاحتِه، فإنها لا تستطيعُ إخبارَ زوجِها بشأنه، وكيف تفعلها وهي الآن تعلم أنه غارقٌ في حب امرأة أخرى غيرها؟

تقتربُ منها خادمتُها بفنجان القهوة الرابع، هذا المساء، وتضعه أمامها وهي تلمحُ الجَارَ المُحدّق في سيدتها، ولا يَكترث لوجودها:

- مِش عارفة يا سِتي الجدع المِسَهوك دَه ماله كده؟

تلوي "ماجدة" فمها بعدم اهتمام، وهي تهز رأسَها بلا مُبالاة:

- سيبك منه يا دَادة، وماتبُصيش عليه ده شكله فاضي.

- آه والنبي يا سِتي عندك حق، ده شكله فاضي ومقطوع السّبح لا شُغلة ولا مَشغلة.

قالتها قبل أن تتركَ سيدتها، وتختفي بداخل الشقة.

تُشعل "ماجدة" سيجارتها الطويلة، وهي تشد على كتفيها معطفها الثقيل، ليمنعَ عنها البردَ ونظراتِ الجَار الوقِح.

الحزن على حَالِها يُسيطر عليها، كيف يزهدها زوجها رغم جمالها الشديد الذي يجعل جارها المحاط بالمُغنيات والراقصات يقف كل هذا الوقت يرجو منها مجرد نظرة؟

بكل تأكيد لا يبحثُ "عادل" عن عشيقة، هو فقط يبحث عن أخرى تأتي له بالولد، وتستطيعُ الإنجاب.

أخبرتها "أم وداد" بأن هناك حَلًّا لكل مشكلة، بالتأكيد تعرف طريقة تجعلها تحمل وتنجب الولد، الأطباءُ لا يعرفونَ كيف يُخلصونها من دائِها، ولا يَنشغلون بشيء غير "الفيزيتا"، وتعدّد الزيارات والتحديق من خلف نظاراتهم الطبية في صور الأشعة والتحليل.

سمِعَت الكثيرَ من القصص على لسان خادمتها عن نساء مثلها لم يُنجبن إلا بعد زيارة الأضرحة والشيوخ.

صوتُ عقلِها يُقاطعها ويوبخها على تفكيرها الخالي من أي علم أو عقل، تصرخُ به ويصرخُ بها في نقاش مُحتد وهي تريد منه الرضوخ والاستسلام وسماع نصيحة الخادمة العجوز الخبيرة والتجريب.

التجريبُ لن يُفقدها ما هو أكثر من زوجها وبيتها وحياتها.

النّقاش مرتفعٌ محتدٌ يقاطعه صوت نغمات رقيقة تتسرب لرأسها وتُوقف النقاش. الصوتُ يأتي من شرفة جارها المُمسك بالعود ويعزفُ وهو مُحدّقٌ فيها.

ترتبك.. تتوتر.. تضطرب بشدة، والأعينُ تتلاقى وتنهضُ متخبطة، حتى إن معطفها يضرب فنجان قهوتها الفارغ، ويتحطم فوق رخام الشرفة.

تُلقي جسدها بعد أن خلعت مِعطفها على باب غرفتِها، وتتلوى فوق فراشِها، لا تعرفُ بماذا تشعر أو ماذا تريد؟

منذ فترةٍ طويلةٍ لم يلمسها زوجُها، جسدُها جائعٌ مضطربٌ يَئِنُ من الرغبة والاحتياج.

أشعلتها نظراتُ الجار الوقحة، وكشفت ما تُخفيه بداخل نفسِها.

ما بين فخذيها يُشعرها بالألم، ويلح عليها أن تبحث له عن الارتواء.

موعدُ عودة "عادل" يقترب، تخلعُ قميصها القصير، وتخلع معه كرامتها، وتترك جسدها عاريًا تمامًا فوق فراشِها، بعد أن أشعلت المدفأة. بالتأكيد سيفهمُ حاجتها عند رؤيتِها، ولن يتأخر عليها، ويسد جوعَ جسدها.

لم يستطع منعَ نفسِه عن جَمالِ جسدها منذ زواجهما، طوال الوقت تستطيع فتنته وإغواءه بحُسنها وأنوثتها التي لا تُخطئهما العين.

صرخت بوجه خادمتِها عندما اقتحمت غرفتها ورأتها بهيئتِها الفاضحة، لتفزعَ من صراخها وتهرول تختبئ بداخل المطبخ.

الوقتُ بطيء ثقيل، وهي لا تتوقف عن الحركة العصبية، وفرك جسدها بالفراش.

صوتُ أقدام "عادل" يظهرُ ويقتربُ، تتمدّد على بطنها تُخفي وجهها عن نظراته وهو يقف خلفها ويرى عُريها فوق فراشهما.

حياؤها وبقايا كرامة خافتة يجعلانها ترتجف وهي تنتظر انقضاضَتَه عليها، يشق صوتُه صمتَ الغرفة وهو يتحدثُ بصوت خالٍ من أي مشاعر:

- اِلبسي حَاجَة يا ماجدة؛ الجَو برد.

لو أنه طعنها بخنجر في قلبها، لكان أهونَ عليها من جُملته.

تجذبُ غِطاء الفراش بأصابع مرتعشة، تُخفي خلفه جسدها، وهي تتابعه، مَصدومة غير مُصدقة، وهو ينتهي من تبديل ملابسه، ويدفن وجهه في وسادته ويعطيها منظر ظهره الدائم منذ شهور.

لا تستطيعُ منعَ دموعِها، وهي تترك له الغرفة والفراش، ورغبتها في قضاء ليلةٍ سعيدةٍ مُلتهبةٍ تحت جسدِه.

تتحركُ نحو شرفتِها دامعةَ العينين تقاوم التعثر في قماش غطاء الفراش، ورغبتها في التقيؤ.

تُلقي جسدها فوق مقعدها، وتجتاحُ كتفيها وجزءًا كبيرًا من ظهرها العاري برودةٌ لا تقل عمّا وجدته من مشاعر زوجها في غرفة نومهما الذي لم يعد يَفتنه جسدُها أو تُلهبه أنوثتُها.

صوتُ صفير طويل يشق صمت الليل البارد لترفعَ رأسَها، وتجد أمامها جارها المحظوظ دائمًا، وهو يُحدق فيها ويضع كفيه فوق رأسه، لا يصدق أنه يراها على تلك الهيئة.

ترتبكُ.. ترتجفُ.. تحاول ستر الظاهر من لحمها وتهبّ مرتبكة، لكن الغطاء الطويل ينجح هذه المرة في جعلها تتعثر، وتقع ويظهر صدرها أمام بصر الجار المُحدق فيه.

تهرول، وهي تتخبط بلا إدراك حتى تجد خادمتها العجوز في طريقها، وتترك جسدها يسقط بين ذراعيها، وهي تبكي كما لم تبكِ من قبل.

١٨٢٥م ـ «تل اليهودية»

لأول مرّة مُنذ مُدة طويلةٍ يُعاني "لينان" من الأرق، ولا يستطيعُ النوم بهدوء كما اعتاد أن يفعل، و"نسيم" بين ذِراعيه.

صخبٌ مرتفعٌ مختلط بصوت صراخ من حناجر مختلفة، جعلته ينتفضُ وينهضُ بسرعة البرق. المنظرُ مخيفٌ ومفزعٌ، والغبار الكثيف من أقدام الخيول يجعله يَسعل، ويرى بصعوبة جنود "الوالي" وهُم يُلهبون ظهور الفلاحين الفارين أمامهم بسياطهم.

لا أحدَ يفهمُ ماذا يحدث ولماذا يحدث؟، حتى يقترب منه قائد الجنود وهو يُخبره بصوته الأجش الصارم بأن جناب "الوالي" يطلب منه العودة لعمله، ويفعل ما يُريد دون الالتفات لأحد.

مبهوتٌ لا يُصدّق ما يرى، ولا يستوعبُ حجم الصراخ والعويل الصادرين من كل اتجاه.

لم يُمهله القائد فرصة الرد، وتركه وعاد يسدد ضربات سياطه بتلذذ وحماس، وترتفع ساقا جَوادِه الأماميتان من فرط جذبه لِلجَامِه، وهو يرى بعض جنوده يأتون باتجاهه، والشيخ "غنيم" مُقيدٌ من مِعصميه، ويهرولُ بفزع خلفهم، والدم يسيلُ على جبينِه ويُغطي

وجهه. عدةُ ضربات فوق جسد الشيخ العجوز قبل أن يفيق "لينان" من صدمة ما يرى، ويَعدُو نحوه، ويقف بجسده بينه وبين سوط القائد الصارم.

ينهارُ جسدُ العجوز ويسقط على الأرض والمهندسُ الشابُ المفزوعُ يصيحُ بعنفٍ وحدّةٍ بوجه القائد، ويطلبُ منه الرحيل مع جنوده، وترك الأمر له، وإخبار جناب "الوالي" بأنه سيتكفل بكل شيء، وسيجعل الفلاحين بعيدًا عن نِطاق عملهم.

ولأنه بالفعل قد أتمّ عمله، لم يجد القائد غضاضة في الرحيل، بعد أن ترك رسالة جناب "الوالي" على أجساد كل الموجودين بأرض التل من فلاحين.

الشيخُ ممزقُ الملابس والجسد، والدم يُغطي كل جسده، فلا تعرف أين مكان جروحه بالتحديد. "لينان" يجرّه حتى خيمتِه، ويجثو فوق ركبتيه، ينظفُ جسده بأحد قمصانِه الفرنسية، وهو مصدومٌ لا يُصدّق ما حدث. بالتأكيد كل ما حدث هذا الصباح هو وَعدُ العجوز "ريتشي" له، لَيتَه ما عاد للقاهرة، واشتكى للعجوز مِمّا وجده من الفلاحين، من جُمود وتَصدٍّ لعملِه.

نظراتُ العجوز إليه تُدمي قلبه وتُعذبُ ضميره بشكل بالغ وقاسٍ. لم يتخيل أن يكونَ ردُ الفعل بكل هذه القسوة والسّرعة. ظن فقط أن الأمرَ لن يتعدى مُجرد تنبيه على الفلاحين ألا يقفوا بوجه الحملة، ويعطلوا عملها.

العجوزُ الغارقُ في دمائه يُقاوم ما يشعر به من ألم، يكتفي فقط بالكَز على أسنانه؛ من شِدة ما يشعر به.

الفلاحُ لا يبكي.. ويصيحُ مثل النساء.

يرى بصعوبة نظرات "لينان" المفجوعة، ويسمعُ عبارات اعتذاره، وتأكيده له أنه لم يعلم بكل ذلك قبل أن يحدث.

العجوزُ المُتألمُ يربتُ على يده، ويترك فوقها آثار دمائه، وهو يُشير إليه بإغماضة واهنة من عينيه أنه يعرف ذلك ويُصدّقه.

يومٌ عصيبٌ على الجميع، و"لينان" بخيمته لا يريد الخروج منها، وحُزنه يصل لعنان السماء.

يقرأ رسالة والده الأخيرة عشرات المرات، وبداخله ذلك الصوتُ الذي يلحّ عليه أن يترك تلك المهمة، ويعود إلى باريس.

نعم يعود إلى وطنه، ويترك أرض "الوالي" للوالي.

مُساعده "شوكت" يدلفُ لخيمتِه بين الحين والآخر ويُلقي عليه أسوأ الأخبار تباعًا.

خمسة من الفلاحين حتى الآن لقوا حتفهم؛ بسبب إصاباتهم البالغة، وجُنود "الوالي" يعودون من جديد مع شيخ "الجِهَة"، ويجرّون خلفهم عشرات الفلاحين الشبان للتجنيد.

الثور الهائجُ ينتقمُ من النملة الصغيرة التي اقتربت من طعامِه، ويهدمُ فوق رأسِها الجبل.

عقله يكاد ينفجرُ من شدة غضبه، وهو يشعر بأن كل ذلك بسببه، وبسب حِرصه على أن يقوم بمهمته على أكمل وجه؛ من أجل إرضاء جناب "الوالي".

الغضبُ يُسيطر على كل عقله، ويتخذ قرارًا نهائيًا بالعودة إلى بيته بقاهرة المُعز، وأخذ "نسيم" والرحيل والعودة إلى باريس. هناك يستطيعُ الحياة بهدوء واستقرار، والعيش مع زوجته بلا ضجيج، بعيدًا عن بطش جنود "الوالي".

الليل يُخيم على أرض التل، وهو كما هو، منذ الصباح يتمدّدُ فوق فراشِه، ولا يكترث للعتمة من حوله حتى عَبَر خيمتَه مصباحُ مُساعدِه، وبعد أن استطاع فتح عينيه ومواجهة الضوء لَمَحَ خلفه صبيًا

صغيرًا يقفُ خلفه، ويحمل لفافة من القماش الخشن. يضعها أمامه، ويخبره بأنها من الشيخ "غنيم"، يتركه وَحدَه، بعد أن أشعل له مُساعده مصباح خيمته، ليقوم بفضول ويتفحص "لفافة" الشيخ. طبقٌ من الفخار، وقطعة حجرية صغيرةٌ عليها نقشٌ مصريّ قديمٌ.

الفضولُ يتمكنُ منه، ولا يعرفُ ما القصد من وراء تلك الأشياء، كما لو أنه لم يجلس لساعات يفكر في السفر والرحيل.

قام مُتحمّسًا يتفحصُ الخرائط من جديدٍ والقطعة الحجرية.

انقضى الليلُ دون أن يشعر وهو غارقٌ بين خرائطه وتخميناته، حتى انتشر نور الصباح وخرج مُتحمسًا يبحث عَمّن يدله على بيت الشيخ العجوز.

بيتُ الشيخ هو أقربُ البيوت للتل.

الشيخُ ما زال مُتعبًا مُغطى بلفائف طبية بدائية بسيطة، وتحدّث بوهن بالغ، وهو يرحب بقدوم المُهندس الشاب للاطمئنان عليه:

- هل وصلتك اللفافة؟

- نعم، وبسببها جئتُ إليك الآن.

يبتسمُ الشيخُ بضعفٍ، وهو يُشير إليه بالاقتراب:

- أرضُ التل لأهلِّ التل.

يُقطبُ "لينان" حاجبيه مُستفسرًا عن مَقصدِ الشيخ:

- ماذا تعني القِطعة الحجرية، وماذا يعني ذلك الطبق؟

يَسعلُ الشيخ بوهن، ويُشير إليه ليهدأ وألا يتعجّل المَعرفة:

- سأخبركَ بكلّ شيء، ولكن أعطِني وعدَك أولًا.

- وَعدِي بماذا؟

يُحرك الشيخُ إصبعَه بجديةٍ وصرامةٍ، وهو يُثبتُ بَصرَه بعينيه:

- أن تبقى أرضُ التل لأهل التل.

لا يجدُ "لينان" مفرًا كي يصلَ للمعرفة والفَهم سوى بالإيماء للشيخ برأسه:

- نعم أعِدُك بذلك.

١٩٧٠م - «القليوبية- شبين القناطر»

تُعِدّ "جليلة" كوبًا كبيرًا من الزنجبيل، وتُقدِّمه لابنتِها بثقةٍ بالغةٍ.

خمسة أكواب متتالية كلَّ صباح بعد انتهاء "الدورة الشهرية" لخمسة أشهر مُتتالية، سَتحلّ العُقدة وتجلبُ الحملَ والولدَ. "سِعدة" مغلوبة على أمرها، لا ترفضُ أو تعترضُ على أيّ فعل، تُطيعُ أمها باستسلام، وتنفذ كل تعليماتِها؛ أملًا في أن يحدثَ المُراد، وتأتي لـ"دهشان" بالولد.

"شربات" رفيقة كل صباح تدخلُ عليهما صحنَ الدار، وتُلقي جسدها المُكدّس باللحم فوق الحَصيرة الصفراء، وهي تُخرجُ من ثنايا جلبابها كيسًا من البلاستيك، وتُخرج منه عقربًا صغيرًا تُلقيه أمامهما.

تفزعُ "سِعدة" وتصرخُ، وهي تزحفُ بردفيها للخلفِ لا إراديًا، والجَارة البَدينة تضحكُ من فزعِها وهي تغمزُ لأمها غير المستوعبة:

- والنبي يا جليلة يا ختي لَيِحصَل إللي بالك فيه؟

تُقاومُ "جليلة" فزعها هي الأخرى من العقرب الميت الساكن بلا حراكٍ، وهي تسألها باندهاش:

- إيه دَه يا ولِيّه؟

تزيحُ شالها الأحمر القاني من فوق رأسها، وتحكمُ وضعَه حول كَتفيها، لُمقاومة برودة الجو، وهي تتحدثُ بزهو بالغ:

- دي وَصفَة ماتخُرّش المَيّة.

تقطّب "جليلة" حاجبيها بتساؤل، وهي تنقل بصرها بين العقرب الميت ووجهِ جارتِها المنتشي بفخر:

- وَصفة إيه دِي يا ولية؟

تمسك العقرب بجَسَارةٍ وشجاعةٍ وتقلبه في الهواء، وهي تنظرُ لوجه "سِعدة" المذعُور:

- العَقرب ده هو إللي خَلّى البت بنت نبوية العَارجة تِحبل بعد أربع سنين.

تستطردُ وهي تدّعي العِلم والمعرفة المُطلقة:

- تِلفّي العقرب في شَال، وتُربطيه على وسطِ اِسم الله عليها سِعدة.

"سِعدة" تسمعُ وهي ترتجفُ من الخوف، ولا تُصدِّق أنهما ستفعلانَ ذلك، وستضعانَ عقربًا حول خَصرها، حتى وإن كان ميتًا.

تسأل "جليلة" بقلق:

- مضمونة يا ختي الوَصفة دِي؟

تردّ "شربات" بحزم واستنكار:

- يا وليّة بقولك حَبّلت البِت بِنت نبوية، أهِي عِندك ابقِي اسألِيها لو مِش مِصدقاني.

ذهبت مُقاومة جسد "سِعدة" المرتجف سُدى أمامَ إصرار والدتها على تنفيذ الوصفة، بمُساعدة جارتها المتحمسة، ولم تستطع منعهما من لف "الشال" حول خَصرها، وشعورها بصلابةِ جسد العقرب الميت، وهو ينخرُ في لحمِها.

تمشي بخُطواتٍ مُتعرجة مُضطربة لدرجة أن من يراها يظنها تقفزُ حتى وصلت إلى بيتها، وتخطت بعُجالةٍ نظراتِ حماتِها المترقبة، لتختفيَ من أمامها خلف باب حُجرتها، وتَحلّ "الشال" وتُلقيه من نافذة الحجرة، وتترك جسدَها يسقط ويتشنج، وهي تبكي بحرقةٍ وتندبُ حظها.

العاجزُ المُحتاج يُصدّقُ الخُرافة، ويروّجُ لها.

الزوجة الشابة ذاتُ الوجه المُضيء والجسد المُفعم بالأنوثة ذبلت روحُها، وخَفَت ضيّها وتحولت ملامحُها للشحوب؛ من فرط ما تشعر

به وما تراه كل صباح ومَساءٍ. "دهشان" يُعاملها بجفاءٍ، وكأنه بذلك يُلقي اللوم عليها، كَمَن ارتكبت جريمة نكراء، لا يُمكن غفرانها.

حَمَاتها سوداءُ القلب والنية، تُعاملها بتعالٍ وسخريةٍ، وتستنكرُ عليها حتى شربة الماء، تُشعرها في كل لحظةٍ بأنها مذنبة مُقصّرة لا تستحقّ الحياة. حتى أمها الطيبة لم تفعل شيئًا مُطلقًا غير النّحيب ورثائِها، كما لو كانت عارًا يلاحقُ الجميع.

مَن يخرجُ عن السياق والمألوف يُعامل كالمُجرمين والمُذنبين. خرجت "سِعدة" عن السياق، ولم ينتفخ بطنُها بعد الزواج، كما يحدث لمُعظم البنات. أجرَمَت بحَق العُرف والتقليد، وأذنبت بحق زوجها القويّ البنيان، ولم تحمل بأحشائِها نتيجة مجهودِه وعَرقِه طوال الليل. أصبحت حُجرتُها ذاتُ اللون الأحمر الفاتح هي كل عالمِها طوال فترات بقاء زوجها بالخارج، لا تُغادرها إلا مُضطرةً لتلبية إحدى الرغبات السخيفة لـ"فوقية" حماتها المُتسلطة.

أخبرتها صديقتُها "صُبح"، وهما تغسلان الأواني بالتّرعة بصوتٍ يكسوه الحياءُ المُصطنع:

- دَلّعي الراجل يا بت ونَاغشيه شِوية، أمي قالت لي لو الراجل من دُول وشّه اتقلب...

تتلفتُ حولها مُستطلعة، وتستطردُ هامِسة:

- مَيّته بتنزل صَايصة، مَفيهاش روح.

تتذكرُ تحذيرَ صديقتِها، وهي تُحكم غلق نافذة حجرتها ظنًا منها أن العقرب قد تعود له الحياة ويدخل من جديد.

تقفُ أمام مرآة دَرفة الدولاب الداخلية، وتُحدق في صورتها المعكوسة بحسرةٍ بالغةٍ. الوجومُ مَرسُومٌ على وجهها بشكل واضح، لم تكن أبدًا كذلك من قبل، كانت دائمًا مُبتهجة، بملامح مُبتسمة، وروحُها المُتفائلة تحيطها بهالةٍ من الجَمال والنور. تُلقي جلبابها وبعض القطع الصغيرة، وتتفحصُ جسدَها وهي تلمسه بأصابعها، وتُحدث نفسها أنها جميلة، بل فائقة الجَمال.

تبتسمُ رغم مشاعرها المُضطربة المفزوعة قبل لحظات، وهي تتذكر ذلك اليوم عندما لَمَحَها ابنُ شيخ البلد ورأى ساقيها مكشوفتين، وهي تغسلُ "المَواعين" على شاطئ الترعة، ووقع به حِمارُه في "فحل الغِيط".

وقتها ضَحِكَت عليه الفتياتُ والنساءُ، وصاحَت بهنّ السّت "معذورة"، بائعة اللبن، بعد أن فطنت لسبب شُرود الشاب:

- لِمِّي لحمك يا بت إنتِ وهِيّ، بَلاش مَياصة وقِلة أدب.

تعالت أصواتُ الضحك والتهكم على ابن شيخ البلد، وبين من ضحكن كانت "فوقية"، التي دققت باهتمام فيها، وقررت أن تُصبح زوجة لابنها الوسيم صاحبِ البالطو الميري.

تدورُ حول نفسِها، وهي تستنكرُ أن يهبها الله كل هذه الفتنة والأنوثة بلا رحم خصب تخرج منه الذرية. شُعيرات صغيرة تراها مُنتشرةً بعشوائية فوق فخذيها وساقيها. تغلفُ جسدها بجلبابها من جديدٍ، وتمر بجوار حماتها دون كلام أو نظراتٍ.

رائحة "السّكّر" تخترقُ أنفَ "فوقية" لتنهضَ وتقفَ خلفها، وهي تحدق في طبق السكر على النار وتفطن للسبب، وتُتمتمُ بتهكم لاذع:

- على إيه يا وَكسة؟.

قبل أن تعودَ لمكان جُلوسِها، تستطردُ مرة أخرى بصوتٍ أعلى؛ لتتأكد أنها تَسمعها:

- بيت الحَزينة مِتعلم بِطِينة.

تكتمُ غضبَها وشعورها بالانكسار، وتستمر فيما تفعل وهي تصرخ بداخلها تستجدي الرحمةَ والكرم:

- يا رَبّ.. يا رَبّ.. يا رَبّ.

تُغلق باب حُجرتها، وتعملُ بنشاطٍ وحماس، وهي تجلس أمام دَرفة الدولاب، والحُمرة تكسو جسدَها، والعرقُ يتساقط من جبينها، ويجعل خُصلات شعرها مُبتلة ملتصقة بوجهها لتُزيدها جمالًا وإثارةً.

"دهشان" يفتحُ الباب، ويقفُ متجمدًا خلف جسدها وتلتقي نظراته بعَينيها المعكوستين في مرآة دَرفة الدولاب. ترتخي كَتِفَاه المَشدودتان رغمًا عنه، وتتجمّد الكلماتُ فوق شَفتيه. فرغم كل شيءٍ وكل نقص، فإنه يُحبها بكل كيانه، بل يعشقُها عشقًا يجعله يراها في كل مرة كأنها أولُ مرة.

سفحُ ظهرها النقي اللامع ورَدفاها خلفها كأنهما من مرمر نادر نفيس يجعلان جسدَه يسقط في تلك الرجفة التي لم تقلّ قوتها درجة واحدةً منذ زواجهما.

لا يُوجد سؤالٌ أو حديثٌ أو حرفٌ واحدٌ بينهما أكثر من تلك النظرات، وصوت الأنفاس المُرتفعة.

يُحكم غلقَ ترباس باب الحُجرة دون أن ينظر نحوه، ويخلع البالطو الميري، ويتبعه بكل ملابسه.

صوتُ "فوقية" يأتي من خلف الباب، وهي تحاول فتحَه، وتنادي عليه بجفاءٍ، وكأنها فطنت لما يحدثُ.

يُجيبها بحسم وقوةٍ:

- مِش وقته يا أمه.. مِش وقته.

صوتُها يبتعدُ، وهي تُتمتم بضيق واستنكار:

- يا خيبتك يا فوقية في العَيل إللي حيلتك.

قِطعة "الحلاوة" تسقط من بين أصابع "سِعدة"، وهي تزحف بجسدها للخلف، وتعض على شفتها برقةٍ واستكانةٍ، وشبح ابتسامة على وجهها. تفعل بوصية "صُبح"، وتعتني بأن تُهيئ "دهشان" لها برغبةٍ وشهوةٍ، دون أن يتسللَ لقلبه أي ضيق، وهي تشعر بأنه مختلفٌ عن كل الأيام السابقة. لم تتوقع عودته في هذا الوقت، ولا تلك الرغبة الواضحة على وجهه وجسده.

كلمات "إمبابي" أزاحت الضيق عن صدره، يشعر بأن الوقتَ اقترب ليحوي بطنُ "سِعدة" ولدَه وترضى أمه عليه.

رائحة السكر المحروق تملأ فراغ الحجرة، وهمهمات "سِعدة" تصل لمسامع "فوقية" الغاضبة التي لا تستطيع البقاء أكثر من ذلك، وتبتعد وهي تسبّ ابنها العاشقَ المفتونَ من كل قلبها.

١٤٥ ق.م ـ «ليونتوبوليس»

أصواتُ الغضب القادمة من مقبرة "الحمير" تُفزع الكاهن، وتجعله يستيقظ وينتفضُ بفزع وهو يتلفت حوله، ولا يرى غير زوجته الطيبة، تنام بلا حراك بأنفاس هادئةٍ منتظمةٍ، ولا تسمعُ نهيقَ الحمير المرتفع الصاخب كما يَسمعُه.

يضعُ مِعطفه حول جسدِه، ويهرولُ ناحية المقبرة، الكلّ نِيامٌ بداخل مساكنهم الجديدة، ولا يشعرون بتلك الجلبة الصادرة من المقبرة.

يقفُ بمُنتصف المسافة بين بيتِه والمقبرة، ويعودُ مرةً أخرى باتجاه الهيكل. يجلسُ بمنتصفه على رُكبتيه، ويسند رأسَه إلى قبضتيه، ويُتمتمُ بآياتٍ من "التوراة".

لم يُخبره حارسُ "سليمان" بالكثير عن حمير المقبرة.

ينتابُه الخوفُ والقلقُ، ولا يعرفُ ما يجب عليه فِعله، يُرتلُ وينادي ربه بخشوع ورجاء، ويطلب مِنه الرحمةَ والعَون.

صوتُ الحمير يزدادُ ويرتفعُ، ورأسُه يكادُ ينفجرُ من الخوف والتوتر.

يسمعُ اسمَه بوضوح بحناجر الحمير، إنها تطلبه، تُريده هو بنفسِه.

ينتظرُ سماع صوت الحارس دونَ جدوى، يُتم صلاته، ويحكمُ مِعطفه فوق جسده، ويتجه نحو المقبرة مرةً أخرى.

المقبرة مُحاطة بأحجار ضخمة من كل الزوايا، يقتربُ ببطءٍ وخشوع، وهو لا يكف عن الترتيل والدعاء، واستجداء عون الربّ الرحيم.

الحِجارةُ تتحرك.. ظن أنه تخيّل، أو هُيِّئ له، لكنها بالفعل تتحركُ.

تنفرجُ زاويتها، وكأنها تصنعُ مدخلًا كبيرًا وممرًا للعبور.

الضوءُ يتخللُ الحِجارة، وتزداد رقعته بانفراجة زاوية الممر.

يقتربُ خُطوةً بخطوةٍ بأقدام تُعاني وتُجاهدُ للثبات.

خلفَ الضوء بوابة كبيرةٌ لا يعرفُ مَن صنَعَهَا وكيف ومتى؟

صوتُ حناجر الحمير يَخفتُ ويَهدأ، كلما اقترب من المَمر.

الضوءُ قويّ، أقوى من تحمّل بصره.

ينتابه دُوَارٌ حادّ يجعل قدميه تتجمدان، وتتوقفان بلا حراك أمام بؤرة الضوء، وهو يضع كَفّيه أمام وجهه؛ هربًا من شِدة وهج الضوء:

- اقترب يا أونياس.

يُفجعُه سماعُ الصوت الهادئ الرخيم، يُحاولُ أن يُبعد كَفيه لعله يرى أيّ شيءٍ:

- مَن؟.. من أنت؟

الصوتُ يُجيبه بهدوءٍ واتزان:

- اقترب ولا تَخَف.

يخفتُ الضوءُ بالتدريج، ويرى ممرًا طويلًا من الحِجارة مُضيئًا بشكل كامل بلا مصدر واضح ومعلوم.

ممرٌ من الحجارة الصفراء الجبلية، وأرضه من البِرسيم الأخضر النضر قصير الطول.

بترددٍ يضعُ قدمَه على البِرسيم، ويتحركُ للأمام، يشعرُ بوزنِه يقلّ بشكل كبير، وخطواته كأنها قفزاتٌ فوق أرض بلا جاذبية.

يُحافظ على اعتدال جسدِه مع خُطواته بالاستناد إلى حوائط الممر الجبلية.

تتلاحقُ خُطواتُه بتناغم فوق البرسيم اللين، وهدوءُه يعودُ لقلبِه بلا سببٍ واضح.

الممرُ طويلٌ للغاية أو هكذا شعر، الممرُ يتسعُ والحوائط تتخلى عن نقائها، وتنتشر فوقها الطلاسم والرسومات.

رءوس حمير فوق أعمدةٍ رخاميةٍ تُزين الممر، حتى يجدَ نفسَه أمام صحن واسع بلا سقفٍ، وفوق رأسِه سحبٌ قريبة بيضاءُ، تتحركُ بلطفٍ وتتداخلُ كأنها تلهو مع بعضِها بَعضًا.

يجدُ نفسَه أمام "عرش" مرتفع يجلس عليه "حمار" بجسد إنسان، فوق رأسِه تاجٌ من الذهب والفِضة. قويّ البنيان بكَتفين عريضتين، وقوام يفوقه في الحجم والطول بثلاثةِ أضعاف.

هيئتُه الغريبة جعلت جسَدَه يرتعد، وهو يُحدّق فيه لعله يتبين أنه مجرد رجل مِثله، ويرتدي قناعًا.

يتفحّصه جيدًا، ويتأكد أنه بالفعل، كما يراه، حِمارٌ بجسدِ إنسان.

ـ مَن أنت؟

نطقها وهو مفتوحُ العَينين، مُتيبسُ الأطراف، ويتابع باندهاش الجسدَ الواقفَ أمامه، وهو يبتسم وتظهر أسنانه من جوانب فمه:

- أنا صاحبُ الأرض.

يُجيب بقوةٍ وحسم:

- لقد وهبني الملك الأرض ولم أسرقها.

تتسعُ ابتسامتُه ويقولُ:

- لكن الأرض مِلكي أنا، وليست أرضَ الملك.

يهتفُ بدفاع:

- لم أعرف عنك شيئًا، وعرفت فقط أن كلّ الأرض بيدِ الملك.

يرتفعُ صوتُ ضحكته مختلطًا بحشرجةٍ نهيقه، ورقبته تميلُ وتزداد طولًا:

- الملوك لا يملكون أيّ أرض يا عابدَ الربّ.

يتساءل بضعفٍ:

- ماذا تريد؟

تختفي ابتسامته، وتحلّ الجدية محلها:

- بل ماذا تريد أنتَ أيها العابدُ؟

يندفعُ بحماس ويقول:

- أنا لا أريدُ شيئًا، أنا فقط أنفذ رغبة حارس الملك "سليمان"، وأحمي قومي.

- أعرفُ ذلك.

يتساءلُ بارتباكٍ:

- هل أخبرك الحارسُ؟

- نعم فعَل.

يتساءلُ بهدوءٍ وطمأنينةٍ:

- وهل أخطأت في شيءٍ؟

تعودُ له ابتسامتُه حتى تظهر أسنانه:

- لا، لم تُخطئ، ولكن.

- ولكن، ماذا؟

يُحرك إصبعه في الهواء مُحذرًا:

- ولكن أبنائي يحتاجون إليك.

يردّ بحماس ونبرةٍ قويةٍ صارمةٍ:

- سأفعلُ كلَّ ما تريد وأكثر.

يقفُ وهو يُصدرُ نهيقًا قويًّا مفزعًا، ويضربُ بقدميه الأرض ثلاثَ ضرباتٍ مُتتابعةٍ، ويتحركُ خُطوة للوراء قبل أن يمد رقبته

للأمام، وينزل من فوق العرش، ويتحركُ حوله في دوائر، ثم يقف خلف رأسه، ويضع كفه العريضة فوقها:

- لقد أنعمتُ عليك من روحي، ووهبت قومك خصوبة لا تتوقف أو تقل.

يستطردُ وهو يضغط بكفه فوق رأسِه دون إيلامٍ:

- حتى حيواناتك وطيورك وكل ما تملكون، وهبتها خصوبة وضروعًا تفيضُ بالخير.

كل ذلك فعلته من أجلك، ومن أجل قومك، وحارسُ الملك يعلمُ ذلك.

صوتُ الكاهن يأتي من أعماقِه، وهو مُغمضُ العَينين باستكانةٍ:

- قومي أنقياء، لا يحملون بقلوبهم أيّ شر.

يتركُ رأسَه ويتحرك خُطوة لليمين، ثم خُطوة للوراء، ثم يعودُ في خُطوات ثابتة نحو العرش من جديدٍ:

- عليك وضع الحجر الكبير بالمنتصف أمام مدخل معبدك بعد أن تجعلَ كل نساء قومك يَلمِسنَه بأجسادِهنّ.

لا يفهمُ السبب في ذلك الطلب، لكنه يُجيبه بلا تردد:

- نعم، سأفعلُ.

يُشير إليه بتلك يديه:

- الآن اقترب.

لا يجدُ الكاهنُ مفرًّا من طاعتِه لينهضَ ويتحرك نحوه ويصعد عدة درجات، حتى يقف فوق عرشه بين يديه.

يضمّه بقوةٍ في صدره بين ذِراعيه، وصوت نهيقه يعلو ويرتفع، ويشعر بأنه يخترقُ صدرَه، ويَنفذ من ظهره من قوته وحِدّته:

- ضَع الحَجر كما أريدُ، ولا تتوقف عن سَكب الماء فوق مقبرة أبنائي، لا تجعلها تجف أبدًا مهما حدث.

الرجفة تنتقل من جسد الكاهن لصوته، وهو يُجيب بطاعةٍ مطلقةٍ:

- نعم سأفعلُ.. نعم سأفعلُ.

١٩٧٠م - «القاهرة- قصر النيل»

لا يقبلُ "عادل" بمكتبه القضايا الصغيرة، لا يليقُ بمكانته كمحامٍ كبير وذائع الصيت أن تُوكل إليه قضايا صغيرة يقوم بها أيّ مُحامٍ صغير. اعتزازُه بنفسِه كبيرٌ، ويجد حساسية كبيرةً في ذلك ويُزعجه ويُشعل غضبه أن يُقلل أي شخص منه ومن براعتِه في الدفاع عن موكليه.

يكفيه فخرًا أنه لم يخسر قضية واحدةً طوال سنين عملِه، لذا جلسَ كَمَن يختبئ وهو يتابُع مع المعلم "فتوح" وصيته وتوزيع تركتِه. فعلُها مُضطرًا لما يجمعهما من صداقةٍ طويلةٍ مُمتدةٍ منذ التقي به أول مرة، وأخرجه من قضية جلب المُخدِّرات كما قالوا "زَي الشعرة من العَجين".

أبناءُ المعلم كثيرون، فقد تزوج ست مراتٍ، وأنجب من خمس مِنهن.

المعلمُ يداعبُ شنبه الكبير وهو يُحدق بسقف الحجرة الفارهة، وجسدُه يغوصُ في مَقعدِه الجلدي الوثير، يُجاهد كي يتذكّرَ أبناءه، ولا ينسى منهم أحدًا.

يتذكرهم وفق زوجاتِه، ويوزع ثروتَه عليهم استنادًا إلى ما يحمله قلبُه تجاه أمهاتهم، حتى إن "عادل" ضحك رغمًا عنه وهو يطلب منه أن يكتب مبلغًا صغيرًا لبنات زوجته الأولي "حمدية":

- كِفاية عليهم كِده ولَاد الولّية المَفشُولة دي.

يستطردُ وهو مُستمرٌ في مداعبة شاربِه، ويبتسمُ بخجل طفوليّ لا يليق بكونِه مُجرمًا عتيدًا:

- هَدِّت حِيلي بنت الإيه؟.

يشرد "عادل" ويتذكر حياته، وكيف انقضت كل تلك السنوات دون أن يُنجب طفلًا واحدًا.

يبتسمُ بسخريةٍ وهو يُقارنُ بينه وبين المعلم الجالس أمامه.

يملكُ المالَ والسّمعة الجيدة، ولا يجدُ من يرثُهمَا، بينما المعلمُ المُجرمُ- الذي نصحه عشرات المرات بأن يَكفّ عن تجارة المُخدِّرات والاكتفاء بما جَمَعَه من مال حتى لا تنتهي حياته مُعلقًا على حبل المشنقة- يترك ثروته وسُمعته السيئة لبضعة أبناء.

عجائبُ القدر لا يفهمها أحدٌ.. ولا يجد لها تفسيرًا.

انتهى من عملِه، وترك مُساعدَه يُلملمُ أوراق القضايا ويُعدّها للغد، وتحرك بسيارته نحو عوّامة "ذكي" صديقِه المُقرّب العازب، عاشق السهر وليالي الحظ.

السَّهر بصحبة أصدقائه ورفاقه كل ليلةٍ أصبح عادته اليومية التي لا يتخلّف عنها مهما كانت الظروف.

يُلقي سترة بذلته السوداء، ويفتحُ أكثر من نصف أزرار قميصه، ويترك جسده يستجيبُ لكئوسِ الخمر، بصُحبة رفيقِه صاحب العَوّامَة.

يخترقُ سمعَه صوتُ صديقهما "جلال" الطبيب، مُختلطًا بصوت ضحكات من جَلَبَهُن مِن مُومِسات لزوم السَّهرة.

صوتُ الموسيقى يُغطي على صوت الهَمهَمَة، وهو ينظر نحو أجساد الراقصات بلا حياء أو ملابس مُحكمة حول أجسادِهن.

لم تستهوه مُطلقًا تلك الأجسادُ، ولم يَنصَع لكلام "ذكي" أن يبيتَ معه، ويتذوق لَحَمَهنّ، لا تُعجبه غير "ماجدة"، ولا يشتهي غيرها.

وعلى الرغم من أنه لم يلمسها منذ وقت بعيد، فإنه لم يقبل، ولو مرةً واحدةً، أن يتمدّد بجسدِه فوق مُومِسات "جلال".

فقط يُرضيه ويُرضي شهوته تلك الساعات التي يقضيها، وهُنّ يَرقُصنَ أمام بصره، ويستمع لفجاجةِ ووقاحةِ ألفاظِهنّ.

يشعرُ بداخلِه بأن شهوته نحو النساء خَفتت، ولم يَعُد يرغبُ فيهنّ.

يتناولُ سيجارة حشيش من يد "ذكي"، وينهضُ بخُطواتٍ متعثرةٍ نحو شُرفة العوّامة، وهو يُقاوم ترنح جسده.

يقتربُ منه "جلال" ويضع ذِراعه فوق كَتِفِه وهو يجذبُ من يده السيجارة، ويسحبُ منها نفسًا طويلًا عَميقًا:

- ما قلتليش إيه رأيك في البت منال؟

يستعيدُ مِنه السيجارة، ويسحبُ نفسًا مُتقطعًا على أكثر من مرة:

- منال مِين؟

- البت السّمرا اللي ما شاليتش عينيها مِن عليك من الصبح.

يسعلُ وهو يُلقي عقب السيجارة في النيل ويبصقُ عِدّة مرات:

- أيوه يعني تِطلع مين دي؟

يستند "جلال" بخَصره إلى سُور الشّرفة، وهو يتجرعُ كل كأسِه مرةً واحدةً:

- دِي يا سِيدي بت مُمرضة عندي في المُستشفى، حَملَت من كَام شهر من واحد مِصاحبها، وجَاتلي أنزلها الجنين.

ينتبه بشدةٍ رغم ترنّحه ويسأله باستهجانٍ:

- نزّلت الجَنين؟

- أيوه يا سِيدي، هو أنا بلعب ولا إيه؟

لا ينتبه "جلال" لشُرود صديقِه البالغ، ويستطردُ بزهو وافتخار:

- وأهي جاية ترُد الجِميل يا جَميل.

ينتهي من جُملته، وهو يعودُ للداخل ويتركُ "عادل" شاردًا بوجوم، وهو يُقارن حاله بحال "منال".

إنه القدرُ وعجائبه مرة أخرى، مَن يرجو إنجابَ طفل لا يستطيعُ الحصولَ عليه، ويندبُ حظه وقِلة حيلته، ومَن لا يُريد يأتيه الطفل من عَلاقة عابرة، ويتخلص منه كأنه يتخلص من عقب سيجارة مُنتهية بلا أي أهمية.

يشعرُ برغبةٍ أن يملأ كأسه من جديد، يعود لبطن العوّامة ويقف متجمدًا، وهو ينظر نحو "منال" بتدقيق من قدمِها لرأسِها.

تنظر إليه وتزيد من دلالِها وميوعة رقصِها، وهي تُرسلُ له قبلة في الهواء.

عقله مُشوشٌ بشدةٍ، والصور تتداخلُ برأسِه، ملامحُ "ماجدة" تتجسد فوق وجه "منال".

يُحدقُ فيها بقوةٍ، ويفتحُ عينيه عن آخرهما وهو يرى زوجته أمامه ترقص بثوبٍ رقيع عار، وتتمايعُ بلا أي غضاضة.

التوترُ يتمكنُ منه، والكأس الفارغة تسقط من يدِه دون تركيز، وجسد منال يقتربُ منه وتُمسك معصمه تدعوه ليرقصَ بصحبتها.

الضوءُ الخافتُ ودخانُ الحشيش يُضاعفان الضباب أمامَ عقلِه، ينظر في وجهها برأس مُهتز وهو يتذكرُ رؤيتها أمس ممددةً عارية فوق فراشِهما تدعوه لجسدِها.

عاقبها وعاقبَ نفسَه وتجاهل رغبتها، وقاومَ رغبته وتركها، واختبأ أسفل غِطاء فراشِه.

ممارسة الجنس معها تُدمي قلبه، وتُذكّره بأنهما لا يُنجبان، يرويان الأرض ولم يضعا بها بذورًا، وما فائدة رَي زَرعة لا تأتي بثمار؟

يتحركُ بين يديها دونَ وعي، حتى يشعرَ بجسدِها يتركه ويبتعد، ويراها تتلوى بين ذِراعي "جلال".

يتركُ جسدَه يسقط فوق المَقعد خلفه، ويبحثُ بيده عن كأس ممتلئة يتجرعها دفعة واحدةً، وهو يرى شبح جسدها مستمرًا في الرقص.

الدّوَارُ يجتاحه، والخمولُ يتمكن منه، والعتمة تمنع عن عينيه الرؤية.

يفيقُ على هدوء حي الزمالك، وتختفي العتمة بالتدريج، وتعود قدرتُه على الرؤية وهو يُبصر بنايته.

يُخرجه صوتُ "جلال" من غفوتِه ويُخبره بالوصول، لا يعرفُ كيف طلب المصعد، ووصلَ لشقتِه وفتحَ الباب؟

غرفتُه خاوية دون "ماجدة" أو "منال"، يتلفتُ حوله ويُخيل إليه أنه يراها في كل الأركان، وهي ترقصُ بثوبها العاري، وتضحكُ بعُهر وفجاجةٍ.

لا يشعرُ باقتراب "ماجدة" منه حتى يَجِدَها تقفُ أمامه مُمتعضة من سُكره الشديد، وهو يُلوّح بذراعيه بلا تركيز أو وعي.

يسقط من بين يديها فوقَ فِراشِهما وهو يحاول جذبها نحوه:

- تَعالي يا منال.

نطقَ باسم امرأة أخرى.. سَمِعته زوجته.

تجمّدت مكانها لثوان قبل أن تتركه يقع على وجهه، ويستسلم للنوم، وما زال يُتمتمُ باسم "منال"، وتهرول باكية للشرفة.

تبكي بحُرقةٍ، وقد تأكدت كلّ ظنونِها دونَ أدنى شك.

الثمِل ينطقُ بالأسرار أسهل مِمّن يُوضعُ على رقبته السيفُ.

مصدومة بشُرفتِها مُنكسة الرأس، لا تشعرُ بأن جارها الهَائمَ بها يتابعُ ويبصر حالتها.

المَسافة بين شُرفتها وشرفته معدومة، فقط سُورٌ مُرتفعٌ من الحديد الفورشيه، تسمعُ صوته يعبرُ عقلها:

- مالِك؟

ترفعُ رأسها مرتبكة، وتنظرُ إليه ولا تهربُ ككل مرةٍ.

النظرةُ بينهما ثابتة، والشوق بملامِحِه واللوعة مرسومة على ملامِحِها.

تجهشُ بالبكاء مرة أخرى، وتدفن وجهها بكفها دونَ أن تهربَ منه وتتركَ مكانها.

تشعرُ بشيءٍ يرتطمُ بجسدِها، تنظرُ وتكُفّ عن البكاء، وهي ترى وردةً فوق حجرها.

تنظرُ إليه بخجل وتوتر، ولا تعرف ماذا تقول أو تفعل؟

تسمعُ صوتَه ينسابُ كما تنساب نظراته لها لأول مرة دون مُمانعةٍ أو مُعارضةٍ:

- ما تِزعليش.

لم تنو أن تفعلَها، لكنها وجدت نفسَها تُمسكُ الوردة بأناملِها الرقيقة، وتتوقفُ عن البُكاء.

يتركُ الشّرفة، ويختفي بداخل شقته وسط دهشتِها التي تختفي سريعًا فور عودتِه، وهو يقتربُ ويُلامس بجسدِه السُّور الحديديّ الفاصل بين الشرفتين، ويَمُدّ يَدَه بكأس.

تنظرُ للكأس بتوتر وارتباكٍ ودهشةٍ.

- ما تِقلقيش، دَه ليمون عَشَان يهدّي أعصابك.

عشراتُ الأصوات تتداخلُ بعقلِها وعشراتُ الأصوات تتعاقبُ كالطرقات على آذانِها، وأقواها على الإطلاق صوتُ "عادل" وهو ينطقُ باسم امرأةٍ أخرى.

دونَ أن تنطقَ بحرفٍ تقتربُ منه وتأخذ الكأسَ من يده.

تلحظ نظراته فوق صدرها، تفطنُ حينها أنها طوال الوقت كانت أمامه برداءِ نومِها ضئيل الحجم قليل القماش.

تخجلُ.. وتضطرب.

لكنها لا تتحركُ وتهرول مُبتعدةً عن بصره مثل المرات السابقة، شيءُ ما يجعلها جامدة بطيئة الاستيعاب بلا رد فِعل يُذكر، وكأنها فقدت كل قدرتها على التفكير أو الحركة.

وعلى الرغم من برودةِ الجو، فإنها تشعرُ بحرارة جسدِها ترتفع.

لا يفصلُ بينهما سِوى ذلك السور، الذي لم يمنعه أن يمدّ يده ويلمس شعرها.

قشعريرةٌ تسري بقلبها جعلت جسدَها يرتجفُ وتُغمض عينيها دون إرادتها قبل أن تشعر بأصابعه تتحرك ببطءٍ تحاولُ المرورَ بين خُصلات شَعرها.

تنتبه فجأةً وتنتفضُ وتلقي الكأس بيده، وتهرول مبتعدةً للداخل وتترك جسدها يسقط خلف باب غرفتها، وهي تنظر لجسد "عادل" الثَمِل وتتذكر خيانته لها، وتعودُ للبُكاء من جديدٍ.

١٤٥ ق.م ـ «القصر»

منذ وصلت "أريلا" إلى القصر، وهي لا تفهم شيئًا على الإطلاق مما يحدثُ حولها.

وجَدَت نفسَها وحيدةً دون رفيقتيها، وفور وصولهنّ أدخلوها حُجرةً خاوية لا يوجد بها غير الجدران.

ساعاتٌ طويلة بطيئة، وهي لا تعرف أين تكون ولماذا تركوها هكذا بلا طعام أو شرابٍ أو مُجرد شيءٍ تجلسُ عليه؟ تقفُ وتجلسُ وتتحركُ بعصبيةٍ والمَلَلُ يقتلها والفزعُ يتمكنُ منها. فقط تتابعُ عبر نافذةٍ مرتفعةٍ بأحد الجدران رحيلَ شمس النهار وحُلول الليل.

الظلامُ يقتربُ وفزعُها يزيدُ وطرقاتُ كفّها الرقيق فوق الباب الضخم الموصد تذهب سُدى، ولا يُجيبها أحدٌ.

تتقوقعُ على نفسِها بعد أن أصبح كل ما حولها أسودَ مُظلمًا، لا تستطيعُ رؤية كَفّ يدِها من شِدة الظلمة، وهي تبكي مفزوعة، يكادُ عقلُها ينفجرُ من شدةِ خوفِها ودهشتِها مِما هِي فيه.

لا تعرفُ متى غلبها النعاسُ واستسلمت للنوم، حتى تحرك البابُ وفتحت عَينَيها لترى وجه "ساريتا" أمامها بعد دخول أشعةِ الشمس من جديدٍ.

تنهضُ مُبتهجة لظهور أحدهم بالنهاية بعد ليلةٍ طويلةٍ عصيبةٍ وهي تسألُ بصوتٍ غاضبٍ:

- لماذا تركتموني كلّ هذا الوقت وَحدِي؟

ملامحُ كبيرةِ الوصيفات جامدةٌ صارمةٌ، وهي ترمقها بنظرة غاضبة، وتتحدثُ بثباتٍ بالغ:

- الخَادماتُ لا يُوجّهنَ الأسئلة.

تقعُ الجملة على مسامعِها بالخوف والاضطراب، وتعرف أنها جاءت لتُصبح وصيفة.

ظنتها حظوةً تُمكّنها من البحث عن حبيبها، والوصول إليه، لكن نبرة صوتِ كبيرة الوصيفات لا تُوحي بذلك على الإطلاق.

تتراجعُ للخلفِ خُطوات، وهي تشعرُ بالارتباك والخوف، وترى تبدّلَ ملامح "ساريتا" المُفاجئ وارتسام الابتسامة على وجهها:

- لا تفزعِي هكذا أيتها الجميلة، أنا فقط أخبرك بتقاليد القصر.

تحاول "أريلا" التّماسكَ وهي تُجيب:

- أشعر بالخوف والجوع، طوال الليل هنا وحدي ولا أعرفُ أين ذهب باقي الفتيات؟.

تقتربُ منها "ساريتا" وهي تُداعبُ خُصلاتِ شعرها الطويل الناعم:

- لا يُوجد هنا شيءٌ تخافين منه.

تجذب خُصلات شعرها نحو الفراغ كأنها تقيسُ طوله قبل أن تستطرد:

- كلّ مَن جاء القصر قبلك مِن قومِك لم يجد هنا ما يَخشَاه.

يتهللُ وجهُ الفتاةِ البريئة، وهي تشعر بأنها تقصدُ حبيبها "أوري".

تنتبه كبيرةُ الوصيفات لتلك اللمعةِ بعَيني الفتاة وتقترب منها، وهي مُستمرةٌ بمُداعبة شعرها الطويل:

- يبدو أن الوصيفةَ الجديدةَ تفكرُ بشخص ما.

رقة صوت "ساريتا" والمرسوم على ملامحها من طيبةٍ ومَودّةٍ جعلاها تتحدثُ بحماس وفرحةٍ:

- نعم يا سيدتي، سبقني إلى هنا زوجي القويّ "أوري".

تُقطبُ حاجبيها بدهشةٍ وتسألُ باستنكار:

- زوجك؟

تُجيب بحياءٍ وارتباكٍ:

- أقصِدُ مَن سيكونُ زوجي.

تُومِئ برأسِها، وهي تدورُ حولها وتتفحصُ جسدَها بتركيز:

- بالتأكيد سيفرح "أوري" لقدومِك.

قبلَ أن تنطقَ الفتاةُ يُقاطعهما دخولُ الخادم بابتسامتِه الصفراء، وهو يتفحصها بنظراتٍ حادةٍ ويُشير برأسِه لـ"ساريتا".

- أيّها الخادمُ، الوصيفة الجديدة تستعدُ للزواج من حارس الملكة.

يبتسمُ الخادمُ ويُومئ برأسِه ويقولُ:

- إنه محظوظ بالتأكيد.

ترتبكُ الفتاةُ البريئة من حديثهما، وتشيح ببصرها من فرط شعورها بالخجل.

- عليك إتمام زواجهما بأسرع وقت أيها الخادمُ، قبل أن تنشغل الوصيفة الجديدة بخدمة الملكة.

مشاعرُ الدهشة والفرحة تتداخل بقلب الفتاة رغم شعورها بالقلق من نظراتهما الجديدة عليها.

- دقائق وأحضِر الحارسَ ويتم الزواج.

تبتسمُ "ساريتا" وتتركُ شعر الفتاة، وتربت على كتف الخادم، وهي تغادر بخُطوات قويةٍ متعجلةٍ:

- حسنًا، افعَلها الآن.

الفتاةُ مُضطربة مُتوترةٌ تشعر بوجود شيء مُقلق في حديثهما.

يختفي الخادمُ ويعودُ، وخلفه جنديّ ضخمٌ بجسد عملاق، وملامح غليظة ووجه مُمتلئ بالندبات والجروح الطوليّة المحفُورة بجلدِه.

ينقبضُ قلبُها من نظراتهما إليها، وتتراجعُ للخلف لا إراديًا، وصوتُ الخادم يتسللُ إلى أذن الحارس العِملاق:

- عروسُك تشتاق لرؤيتِك أيها الحارسُ.

تفهمُ وتستوعبُ وتتراجعُ بهلع حتى تُوقفها صلابة الجدار، وتلتصق به وهي تصيح فيهم برعبٍ بالغ:

- هذا ليس زوجي.. زوجي هو أوري.

يتجاهلُ الحارس كلامَها، ويقتربُ منها بفم مفتوح ببلاهةٍ وشهوةٍ واضحةٍ بنظراته، وهو يمد يَدَه العريضة، ويقبضُ على رقبتها يمنعها عن الحركة، وينظر بقوةٍ في عينيها المفتوحتين عن آخرهما بفزع.

يقتربُ منهما الخادم حتى يصبح رأسه الحليق بينهما، وهو يتحدثُ بهدوءٍ بفم ممدودٍ للأمام في محاولة لتقليد طريقة النساء في الحديث:

- انظري جيدًا أيتها اليهودية العاشقة.

يُحرّك أنامله الرقيقة الرفيعة على عضلات الحارس:

- هذا أقوى بكثير، ويبدو عليه أنه يُحبّك بشدة.

في الخارج خلفَ الباب المُوصد تقف "ساريتا" تسمعُ صراخ الفتاة المقهورة، وقبل أن تعبر الباب مرة أخرى تشير للخادم بيدها ويخرج هو والحارس، و"أريلا" تهرول نحوها مُرتعدة:

- أرجوكِ يا سيدتي، هذا ليس زوجي.. زوجي هو أوري.

تدفعها بيدها بعنفٍ وغِلظةٍ وهي تتحدثُ بصرامةٍ وقوةٍ:

- الخادمات لا يتزوجنَ أيتها الساقطة، أنتِ مجرد وجبة باردة أعطيها لِمَن أشاءُ.

تقعُ "أريلا" على الأرض، وهي تلطمُ وجهَهَا بيدها، واللوعة تجعل صرختها تخرج من صدرها على هيئة شَهقة فزع، والبابُ يُوصَدُ عليها، وتعودُ وحدَها من جديدٍ.

يتبادلُ الخادمُ الابتسامات الخبيثة مع كبيرة الوصيفات، ويتحركان نحو الجناح الملكي.

تقفُ "ساريتا" بجوار فراش "أوري"، وقد تَعافى بشكل يكاد يكون مُكتملًا، وتراه وهو يعتدلُ ويجلسُ يرمقها بنظراتِه الغاضبة.

تجلسُ أمامه هادئة مُبتسمة، ثم تتحدثُ بصوتٍ ناعم، راعت أن يبدو رقيقًا:

- لا أعرفُ كيف جاءتكِ القدرة على مُقاومة جسد المَلكة المُفعم بالأنوثة؟، وكل ذلك من أجل حبيبتك تلك، ضئيلة الجسد وكأنها صبية صغيرةٌ لم تبلغ بَعدُ؟

تصعقُه كلماتُها ويَهبّ واقفًا وهو مُحمر الوجه يرجو أن يخنقها بيديه، ولكنه يتمالكُ نفسَه ويكتمُ رغبته بداخلِه، ويكتفي بسؤالها بتوتر وغضبٍ:

- هل تتحدثينَ عن أريلا؟!.. هل رأيتيها؟

تبتسمُ وتهزّ ساقها المُمتلئة باللحم، وتقتله بطول صمتِها، حتى ينفطرَ قلبُه ويقعَ أمامَها على رَكبتيه مُفعمًا بالخوفِ واللَّوعةِ:

- أقسمتُ عليكِ باسم الربّ أن تُجيبيني.

تضع قدمَها فوق فخذِه، وهي تتحدثُ بهمس بالغ:

- أخبرتك من قبل بأن تتوقفَ عن ذِكر الربّ هنا في هذا القصر.

يُومِئ برأسِه مُستعطفًا، وهي تَستطردُ:

هل تشكرني إذا عرفتَ أنني أنقذتُ فتاتك من الموتِ؟

يُجيب بسرعةٍ وحماس:

- نعم.. نعم أشكركِ وأدينُ لكِ بحياتي.

- لكن...

يسألُ بلوعةٍ وهلع:

- لكن ماذا؟

تشيح ببصرها عن وجهه، وهي تحرك قدمها فوق فخذِه:

- تحتم عليَّ التنازل من أجل إنقاذ حياتها.

يقطبُ حاجبيه ويسألها باستغراب:

- لا أفهم.

تُحرك قدمَها لتستقرَ بين فخذيه، وتضغط بقوةٍ وهي تحني جِذعها وتنظر في عينيه بثقةٍ وقوةٍ:

- كان يتحتم عليّ إعطاء رشوة للحارس حامل السيف المأمور بقطع رأسِها.

يقاوم ما يشعرُ به من ألم من ضغط قدمِها، وينهزم أمام الألم الذي يعتري قلبَه:

- أرجوكِ أخبريني بأنّ أريلا بخير.

تنهضُ دون مُقدماتٍ، وقبل أن تُغلق الباب خلفها تنظرُ إليه بسخريةٍ مقيتة:

- بالتأكيد هي بخير، فرغم ضآلة جسدِها، فإنها لن تفشلَ في حمل جسد الحارس فوقها.

تغلق البابَ بقوةٍ على صراخِه ليُصبحَ بابُ "أوري" ثانيَ بابٍ تقفُ خلفه وتسمع الصراخَ والنحيبَ خلالَ دقائق.

١٩٧٠م - «تل اليهودية»

صوتُ الشيخ "غنيم" هادئٌ منخفضٌ، وهو يثبتُ بصره نحو الحَطب المُتراصّ بسقف حُجرتِه، ويقصّ على مسامع "لينان" كل ما يعرفه.

المهندسُ المتحمسُ للمعرفة ينظر للشيخ المُنهك الجسد باحترام وإجلال لأول مرة، وهو يُخبره بسر "التل". لأكثر من ساعةٍ والشيخ يسردُ ما يعرفه باسترسال وإيمان شديد بما يقول. "لينان" يستمعُ بتركيز، وعقلُه مُشتتٌ بين صِدق نبرة صوت الشيخ، وبين رفضه الإيمان مثله بالخُرافة والسِّحر.

اعتادَ تصديقَ الحسابات والأرقام ونتائج النظريات الرياضية.

لم يستطع في نهايةِ حديث الشيخ سوى إعطائه وعدًا بأن يُحافظ على إرث أهل التل. سيقومُ بمهمته ويُرضي جناب الوالي دون المساس بحُجارة التل المُقدسة.

رغبة كبيرةٌ تنتابه لرؤية "نسيم"، يحتاجُ لهذا الهُدوء بين ذِراعيها.

لم يترك أيَّ تعليمات لمُساعده، وأخبره فقط بأنه سيعودُ في الغد، ليتركه ويتجه مباشرةً إلى بيته بالقاهرة.

تنتظره بشوق، وتبكي فور رؤيتِه، تعشقُه مثلما يعشقها وأكثر.

الحديثُ بينهما لا يعترف بالكلماتِ، فقط تتلاقى الأعينُ، ويغرقان في مناجاةٍ لا تنقطع، تنامُ بجواره ويمارسُ طقسه الثابت المحبب بجوارها.

يتأملّ وجهها، ويستمعُ لانتظام أنفاسِها كأنها مقطوعة موسيقية مُحببة.

يشردُ ويتذكرُ حديثَ الشيخ، يجدُ صعوبة بالغة في أن يُصدِّق أن حجرَ التل يُمكنه إعطاء الخير وتحقيق الأمنيات، ولكن الشيخ يُصدّق وأهل التل يُصدّقونَ ويُؤمنون.

قرأ من قبل عن الخُرافات والتعويذات السحرية وسمعَ عشرات بل مِئات القصص في رحلتِه الطويلة لاكتشافِ منابع النيل.

هناك خرافاتٌ كاذبة، وأخرى لها أثرٌ حقيقي يهربُ العلماء من تفسيره أو الاعتراف به.

"الوالي" يبحثُ عن الكنوز المدفونة، وأهل التل يرجونَ البركة من حجارة التل، وهو بينهما يبحثُ عن إجابات مُضيئة لعقلِه، وحل لهذا اللغز الغامض.

كعادتِها وقفت "نسيم" تبكي بِحُرقةٍ ولوعةٍ، وهي تُودّعه وتلحّ عليه في سُرعة العودة مرة أخرى.

جلسَ في خَيمتِه بصحبةِ مُساعديه وأمامهم الخرائط، وهو يشرحُ لهم ما يجبُ عليهم فعلُه على وجهِ الدقة.

كما توصلَّ باستنتاجاته أنه لا بُدَ من وجود ممر أو طريق يؤدي إلى التل.

رسمَ لهم خطوطًا ونقاطًا محددة ليبدأ الحفر، دونَ أن يقتربوا من تبّة التل وحجارته.

كل ما فهمه من الشيخ "غنيم" أنهم يخشون فقط على التبة والحجارة.

أسطورتُهم تتحدثُ عن بركة الحجارة فوق التبة المُرتفعة.

لن يُغضبهم ويحنث بوعدِه مع الشيخ، ويترك فريقه يقترب من التبة.

العمالُ يشرعونَ في العمل بجديةٍ وحماس، وهم آمنون ويَعرفون أن أهل التل لن يستطيعوا الاقتراب والمُعارضة بعد ما وجدوه من بطش جُنود الوالي.

كلما انغرست الفئوسُ تحت الأرض ظهرت لهم تلك الأواني الفخارية، أوانٍ كثيرةٌ لا تكفّ الأرض عن إخراجها.

دوائرُ الحفر تتسعُ وتتلاقى، وأصبحت حولهم مئاتُ الأواني بكل الأحجام. أرسل منها مجموعاتٍ كثيرةً لرئيسه "ريتشي" كدليل له، ولجناب "الوالي" أن المهمة في طريقها للوصول.

أوانٍ قديمة من مِئات السنين، لكنه يعرف تمامًا أنها ليست ما يبحثُ عنه الوالي.

جنابُ "الوالي" عاشقٌ للذهب ولا يَعنيه الفخار، حتى وإن كان من مِئات السنين. نظرتُه للحجارة نظرةٌ قاسية جافة خالية من أي تقدير أو إحساس بالروعة والجَمال. وكيف يهتمُ بالحجارة أو يُقدّرها وقد سمع بنفسه من "ريتشي" أن الوالي فكّر أكثر من مرة في هدم الهرم والاستفادة من حُجارته.

كثيرًا ما سمع منه أنه يُريد بناءَ "سد" كبير ليُمكنه من التحكّم في سريان النيل، ومن أجل "السد" أمر برحلته السابقة لكشف ومعرفة

منابع النيل. يُريدُ فرض التحكم والسيطرة على سريان الماء، واستغلال كل قطرة في توسيع رقعة الأرض المزروعة. يُريدُ دائمًا مضاعفة مكاسبه، والعمل على تعددها واكتشاف كل شيءٍ يجعلها تزداد وتنمو.

الأواني تزدادُ وتصبحُ جبلًا كبيرًا بجوار خيمتِه.

قطعٌ حجرية صمّاء بلا معنى، وأخرى ذات نقش مصري قديم، لكنها أيضًا بلا معنى وكأنها مقطوعة أو مبتورةٌ من شيءٍ ما.

عقله لا يتوقف عن البحث والتفكير ومحاولة ربط الخيوط ببعضها ليصلَ إلى معلومةٍ واضحةٍ.

أكثر ما يُتعبه شعورُه الدائم بالأرق وصعوبة النوم، يخرجُ ليلًا ويدفعه فضوله للسير باتجاه التبة حاملة الحجارة العِملاقة.

القمرُ نصف مكتمل، ويلمحُ من بعيد أشباحًا تتحرك باستكانةٍ نحو التبة من الجهة المقابلة له.

يدفعه فضوله للاقتراب ومحاولة رؤية ما يحدث، رجلٌ وامرأةٌ بملابس تشبه ملابس الشيخ "غنيم".

الرجلُ يسبقها بخُطوة، وهي تغطي وجهها بوشاحها، رغم الظلمة وعدم وجود غرباء.

زاويتُه تسمحُ له برؤيتهما.. دون أن يلحظا وجوده.

يتحركان بثبات وثقة نحو ارتفاع التبة وقبل مرور دقائق قليلة يرى جسديهما وهما يتمددان فوق الحجر الكبير يمرغان جسديهما، ويفركانهما بقوة بالحجر، كأنهما فاقدان عقليهما.

يتقلبان بجسديهما على كل الاتجاهات بعشوائية، ويمرغان الحَجر في جسديهما.

دقائق وهُما يفعلان ذلك حتى انتهيا وهدآ وتلاحما كجسدٍ واحدٍ.

تنتابه الدهشة البالغة؛ أيُعقل أن يكونا مجرد عاشقين أرادا اللقاء في هذا الوقت المتأخر في جنح الظلام؟

لكن لو كان الأمر هكذا، لماذا يفعلانها هنا فوق التبة العالية؟

ينتابه الخجلُ من متابعتهما رغم عدم رؤيته لتفاصيل ما يفعلان، لكنه يدرك تمامًا أن جسد الرجل فوق جسد المرأة. منعه فضولُه من الابتعاد، وظل ساكنًا حتى انتهيا وشاهد الرجل يُمسك يدها ويطوفان بجدية حول الحجر عِدة مرات.

الدهشة تتمكنُ منه ولا يجدُ أيّ تفسير لما يرى، حتى استكانا مرةً أخرى بأحد أركان التبة في نفس الوقت الذي لمح فيه اقتراب رجل آخر بصحبة امرأة أيضًا.

يتحركان بنفس الهيئة والكيفية، توقع الاشتباك بينهم جميعًا عندما يتفاجأون بوجودهم معًا بنفس الوقت.. لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث.

فقط تركا جسديهما للحجر، يتمرغان عليه أيضًا بنفس الجدية والحماس.

بعد انتهائهما، أخرج الرجلُ الجديدُ غطاءً من بين ملابسِه، وضعه فوق جسده وجسد امرأته، وفعلا مثلما فعل من سبقاهما.

دقائق وبدأوا كلهم في الطواف عدة مرات، ست مرات أو سبع، لم يهتموا بالعَد، كل منهم مع امرأته في ركن مُظلم دون حديث أو حركة غير الجلوس بصمتٍ وسكون.

كلمات الشيخ تتخللُ عقلَه وهو ثابت البصر على ساكني التبة.

أخبره بأن حجارة التل يقصدُها المُحتاج، وأن أرضَ التل لأهل التل.

هل كان ذلك ما يقصدُه الشيخ من حديثه؟، وإذا صحّ ذلك، فما الفائدة مما فعلوه أمامه منذ قليل؟

حديثُ الشيخ انصبّ كلّه على أنهم ورثوا الحجارة من أجدادِهم، وأن التل كان ملكًا لقوم قدامى من اليهود.

عاشوا فيه لسنواتٍ طويلةٍ وترك كبيرهم بَركتَه بحجارة التل، وأوصاهم آباؤهم وأجدادُهم بأن يحموا التل وحجارته؛ للجوء إليها وقت الحاجة.

لم يشعر بنفسِه إلا والفجرُ يبزغ ويبدأ النور ينتشر في المكان.

خشى أن يراه سكانُ التبة فتحرّك مُسرعًا نحو خيمتِه، وهو يتابعهم ويراهم من جديد، وهم يطوفون مرةً أخرى قبل أن يتركوا التبة ويرحلوا.

جلس بخيمتِه يعاني من فرط الدهشة مما رأى، ولا يستطيع توقع سبب منطقي لفعلِهم، حتى غلبه النوم، ولم يستيقظ إلا مفزوعًا على صوت صياح العمال، وهرول نحوهم ليرى سبب تلك الجلبةِ الكبيرة.

١٩٧٠م ـ «القليوبية- شبين القناطر»

انتظرَ "دهشان" ليلةَ خفارته برفقة "إمبابي" بفارغ الصبر.

كما يقولونَ دائمًا "الغريقُ يتعلق بقشة".

نصيحة "إمبابي" أصبحت هي تلك القشة التي تعلق بها "دهشان"، تعلّق عقله بأن الحل لمُصيبته وقِلة حيلتِه يكمُن في زيارة أحد الشيوخ؛ لرفع البلاء والعمل السّيئ عنه، وعن زوجتِه.

لم يعُد يستطيعَ البقاء هكذا والسكون بلا تصرّف، خرق سمعَه، منذ أيام، همسُ إحدى الجارات لرفيقتها، وهو يمرّ من أمامهما:

- يا ختي الجدع أد الثور، ومِش عارف يجيب حِتة عيّل؟

أصبحت قصتُه مع زوجتِه حديثَ من حولِه، في الريف لا توجد خصوصية، الخصوصية الوحيدة تنالها بعد أن تختفي خلفَ بابِ قبرك، ويعلقوا للمرة الأخيرة:

"يلا أهُو راح عند إللي خلقه.. دَع الخلق للخالق".

وكيف لا يصبح مادة لحديث من حولهم، وأمّه لا تكفّ عن الوَلولة والشكوى طوال الوقت من قِلة بختِ ولدِها الوحيد.

تلوي فمها بحسرةٍ، وتضعُ كفها فوقَ مقدمة رأسها:

"بَختي لقاني في الطريق بَعرَج.. قالي ارجعي يا خايبة لأرقد".

يُحدّثُ نفسَه ببقايا عزيمة وأمل، إنه لن يجدُ من تعوّض "سِعدة"، لن يجد في كل بنات قريتهم أو حتى القرى المُجاورة من هي أجملُ منها وأكثر منها فتنة وأنوثة.

"سِعدة" كضربةِ حظ لا تحدثُ في العمر إلا مرة واحدة.

لا يستطيعُ أن يتزوجَ من غيرها، حتى وإن ظلت على ذمته، وأصبح- مثل "إمبابي" والعمدة وشيخ البلد وأغلب رجال القرية- متزوجًا من امرأتين.. فكيف يفعلها؟ وهو لم يقدِر على منع نفسِه عنها ليلة واحدة منذ زواجهما؟

حتى في تلك الليالي، وهي تضعُ قطعة القماش المبرومة تسد عنه باب فرجها، لا يتركها ويظل يحملق في حُسن وجهها، ويُقبلها حتى يغلبه النعاس، وهو يرتشفُ من نهدها كطفل صغير لم يعترف بالفطام بعدُ.

مرّ في طريقِه لدوار "العمدة" بمقام "سيدي سعيد"، ولم يشعُر بنفسِه إلا وهو يعبر بابَه ويقفُ أمام المقام، ويطلب من الوليّ الصالح أن يدعوَ له ربَّه أن يرزقه بـ"حِتة عيّل".

لا يطلبُ المستحيل أو يرجو الصعبَ الممنوعَ.

فقط مُجرد طِفل يصبح واحدًا من ضمن مئات الأطفال المنتشرين كالفراشات في دروب قريتهم.

يعرف طريقة كسب ود "إمبابى" جيدًا، ابتاع علبة دخان "مَكنة"، وأَعدّ كنكة الشاي، وجلس في مكانه المُعتاد ينتظر قدوم رفيقه إليه بعد غلق نافذة حُجرة "العمدة"، وغلق مولد الكهرباء إعلانًا أنه اعتلى فراشَه، وترك جسده للنوم فوق سريره النّحاسيّ العالي.

لم يتأخّر رفيقه عليه بعد اختفاءِ صوت مولد الكهرباء المُزعج، وانتشار صوت صرصور الحقل حولهما.

اقترب مِنه وهو يَجرّ بندقيته المِيري خلفه، ويتركها ترسمُ خطًا مُتعرجًا يرسم خلفه خط سيره. سيجارة وكوب شاي ثقيل، وتجشأ "إمبابي" بصوتٍ مرتفع، وبدأ في سرد قصصه وكل معارفه عن الشيوخ وإنجازاتهم الخارقة للمُعتاد والمعروف.

"دهشان" يستمعُ إليه بفؤادِه المفعم بالأمل قبل أذنيه، ويتخيلُ نفسَه مثل هؤلاء مِمّن انحلت عقدتُهم على يَد أحد الشيوخ المُتمكنين أصحابِ القدرةِ والواصلينَ.

مُنصتٌ باستكانةٍ، وفي عقله صور متعددة لطفل صغير يلهو أمام دارهم، ويخطفُ حبات الطماطم من أمام "سِعدة"، ويفر منها وهو يضحك لنجاحه في خداعِها.

يحلم.. يبتسمُ.. يشعر بقرب الأمل.

السعادة لم تعبر لقلبه منذ وقتٍ طويل، وقد اتخذ قراره بأن يُنفذ نصيحة رفيقِه العالم ببواطن الأمور ويذهب لزيارة الشيخ "عبد الشافي" لفك العمل وحل الأزمة.

أنهى خفارته، وتحرّك باتجاه البيت بخُطواتٍ واثقةٍ قويةٍ، مرفوعِ الرأس مشدودِ الهَامَة.

مَرّ على طلبة الجزار، فوجده مُلطخ الوجه والملابس بسبب دِماء الذبيحة الجديدة، وبدأ يُحرك الجنزير بقوة ليُعلق الذبيحة على باب دكانِه، اقترب منه دهشان باعتزاز، وطلب نصف كيلو كبدة طازجة.

بداخلِه رغبة كبيرة في أن يأكل "كبدة"، فشهيته مفتوحة لأقصى مدى.

بصحن الدار، تجلس أمّه بفم مَلوٍ ووجه عابثٍ وهي تتابع "سِعدة" الممسكة بـ"المِقشة البَلح" وتنظفُ أرض الدار بهمّةٍ ونشاطٍ.

يُلقي عليهما التحية، ويضعُ ما يحمله بيد زوجتِه وهو يتحاشى النظر إلى وجهِ أمهِ الغاضبة دائمًا بلا سببٍ:

- قَوَام يا سِعدة، شَوَّحِي لنا حِتِّين الكبدة دُول.

تُمصمصُ أمه شفتيها بسخريةٍ، وهي تتمتمُ بصوت يسمعه بوضوح:

- على ما يسعَد المنحُوس يكون عمره فِرغ.

يتنحنحُ وهو يُحاول كسبَ ودِّ زوجته، وإظهار قوة غير موجودة بالأساس أمامها:

- بتقُولِي حَاجَة يا أمه؟

تنهضُ- بضيق ويأس- وتجذبُ طرحتها تضعها فوق رأسها، وتتخطى جسدَه في طريقها للخروج:

- لأ يا سَبع البُرمبة ما بقولشي، اوعَى كِده خليني أروح أشقر على خالتك.

شَعَر براحةٍ كبيرةٍ لا تقل عما شعرت به "سِعدة" لخروجها، وتركهما وحدهما دون إزعاج أو سلسلة لا تنتهي من التعليقات السخيفة المُحبطة.

خلع البالطو الميري والطربوش ووقف خلفها يستنشقُ رائحة الكبدة بشهوةٍ وتلذذٍ، وهو يُخبرها بقراره المحسوم بزيارة الشيخ "عبد الشافي".

تشعرُ باضطرابٍ وتوتر من فكرة زيارة الشيوخ، لكنها تطمئن أنه يطلبُ منها ذلك بنفسه، ويُهدّئ من روعِها أنها ستكون بصحبتِه.

المرة الأولى التي يُحدثها في أمر كهذا وحديثه مُفعمٌ بالجدية والإصرار.

في كل مرة كانت أمّها من تفعل ذلك، وتبحثُ لهما عن حلول.

هذه المرة هو بنفسِه من يطلب، وتشعرُ من حديثِه بأنه يثقُ في ذلك الشيخ بشكل مُطلق.

يُحدِّثها عن سُمعة الشيخ، وعن قدراته الفائِقة وهو لا يَكفّ عن التقاط قِطع الكبدة قبل طهيها، ومضغِها بصوتٍ مسموع.

من مُدّةٍ بعيدة لم تجده بمثل هذه الحالة من البهجة والتفاؤل، وتشعر في طيات نفسِها بالراحة، لأنه ما زال يُفكّر في حل لمُشكلتِهما.

معنى ذلكَ أنه لم يستجب حتّى الآن لنصائح أمّه بالبحثِ عن زوجةٍ جديدةٍ.

جلسا يتناولان الكبدة- بعد طهيها- بشراهةٍ وسعادةٍ، وهُو يُداعبها، ويضعُ القطع الساخنة ذات الرائحة النفاذة الشهية بفمِها.

لم يُمهلها أن ترفع الأطباق ليُلقي جسدَه فوقها بوسط الدار، وجلبابه مرفوع فوق خَصره:

- لأ يا سِي دهشان، أحسن أمي فوقية تعاود وتشُوفنا.

لا يكفّ عن تقبيلها، وجعل جلبابها على نفس وضعية جلبابه:

- ومالُه يا بت، مِش حَلالي!

يفعلانها لأول مرةٍ بصحن الدار، وسعادتها تصل لعنان السماء، وهي تشعر بقوتِه البالغة، وشهوته المُرتفعة، وتترك ساقيها تلتفان باستماتةٍ ورغبةٍ حول خَصره، كأنهما لم يلتقيا منذ شهور.

١٩٧٠م - «حي الزمالك»

صوتُ شجار عادل وماجدة يرتفعُ بشدة، وهو يُصرّ على أنه لا يعرفُ من تلك الـ"منال"- التي نطق اسمها أمس وهو ثَملٌ- أي شيء على الإطلاق.

قلبُ الحَقائق والأدلة إحدى مهاراتِه الكثيرة كمُحام نابغ ذائع الصيت.

يُحدقُ فيها بقوةٍ وثباتٍ، ويصيحُ بوجهها:

- إنتِ يا سِت هانم إللي أعصابك بايظة وبيتهَيأْلِك حَاجَات من خيالك.

تتلقى جُملته ببركان من الحنق والغضب، وتهتفُ بصوتِها الرفيع الحاد:

- أنا مِش مجنونة يا سِي عادل علشان يتهيألي إني بسمَع حَاجَات من خيالي.

يُشعلُ سيجارة، وقد ارتاح عقله أنه وجد طريقة للانقضاض عليها:

- الظاهر العلاج إللي بتاخديه أثر على عقلك.

صَدَمَتها سُخريتُه من مرضِها وإشارته الفجّة الوقحة؛ لعدم قدرتها على الإنجاب، لتُحدق فيه مفتوحة الفم دامعة العينين، ولا تجد ردًا بذهنها وقد نجح في تحويل شِجارهما من البحث عمّن تكون المرأة التي نطق باسمها، لنِقاش مُنحط حول عجزها عن إنجاب الأطفال.

حمَل حقيبته بيده، وتحرك بثقةٍ وغرور بعد نجاحه في صدِّ عدوانها عليه، ليتركها مُنكسة الرأس غارقة في ألمها، وشعورها البالغ بالنقص والعجز وقِلة الحيلة.

"زينب" تقتربُ منها بعد أن اطمأنت لرحيل صاحب البيت، لتربتَ على ظهرها بتعاطفٍ وشفقةٍ:

- والنبي يا سِتي ما تِقهري نفسك، هُمّا الرجالة كده يا حبيبتي، كدابين وعِينيهم فارغة.

خادمتُها العجوز هي ملاذها الوحيد الدائم، تتركُ رأسها يستند إلى صدرها، وهي مُستمرة في البكاء بحرقةٍ وجزع:

- عادل بيخوني يا دَادَة وبيعايرني إني مابَخلِّفش.

تضمّها بشدةٍ نحو صدرها بعطفٍ حقيقيّ وشفقةٍ في مُنتهى الوضوح، وهي تربت على ظهرها باستمرار:

- يا سِتي ما أم وداد قالت لك معمُول لك عَمَل، هو إللي مَانِع عنك الخِلفة.

تتحدثُ وهي مُستمرة في البكاء، ودموعها تعبُرُ فمها، وتشعرُ بمرارة طعمِها:

- عايزاني ألّف على الدجالين يا دَادة على آخر الزمن؟

تتمكنُ الجدية من "زينب"، والإيمان بقدرات الشيوخ:

- يا سِتي ماتقوليش كِده، ده السّحر مذكورٌ في القرآن والرسول، عليه الصلاة والسلام، كان بيرقِي المحسُودين بنفسِه.

تتوقفُ عن البكاء، وترفع رأسَها عن صدر خادمتِها، وهي تشرد وتحاول تمرير المنطقَ نفسَه لعقلِها:

- يعني مِش حَرام يا دَادة؟

تهتفُ "زينب" بحماس:

- إيه حَرّمه بس يا سِتي، هو هَيعمل لك حَاجة غلط لا سَمَح الله، دَه ياذُوب هَيرقِيكِ ويرفع عنك العَمل البطال.

تضطربُ بشدةٍ، وتشعرُ بخوفٍ بالغ من خوض تلك التجربة.

لكنها بالوقت نفسِه، تتذكرُ كلمات "عادل" وتشعر بغصةٍ بقلبها، وأنه نطق بما يجيشُ بصدره، وعبّر عن استيائه من عجزها، وألقى- بكلماته اللاذعة- اللوم عليها لفشلها، وتأخرها في إنجاب طفل يحملُ اسمَه، ويرث ثروته وصيته الذائع.

لم يستطع "عادل" المُضي بطريقِه نحو مكتبه وهو في حالتِه تلك من الضيق والغضب.

مكالمة قصيرة مع صديقِه الطبيب "جلال"، وكان ينحرفُ بسيارته ليَمُرّ عليه في النادي.

خلف نظارةٍ شمسيةٍ سوداء، يجلسُ "جلال" يتفحصُ كلَّ من يَمُرّ أمامه من نساء، لا يتوقفُ عن وصف النّهود والأرداف ومزايا الحَسناوات.

يتحدثُ كمُعلق رياضي يُعلق على مباراةٍ ساخنةٍ مُشتعلة التنافس، بينما "عادل" يجلسُ بجواره شاردَ الذهن، ويشعر بالندم لقدومِه للجلوس معه ومتابعة شرحه الوافي لمزايا الأرداف البارزة دونَ ضخامةٍ.

فنجانان من القهوة وبجُهدٍ خارق، استطاع "جلال" تركَ مُتابعة الحسناوات والانتباه لصديقِه وسماع شكواه.

تحدثَ "عادل" بسلاسةٍ واستفاضةٍ، كأنه يُحدث عقله، وقصّ على مسامع صديقِه كل ما يُحزن قلبِه ويُفسدُ حياتَه.

أكد له الأطباءُ أنه سليمٌ مِئة بالمِئة، ويُمكنه الإنجاب بكل سهولةٍ، لكنه يخشى جرح كرامة زوجتِه، وحُبّه الأهمّ والأكبر بحياتِه.

لا يقبلُ أن تُمس مكانتُه الاجتماعية ويصبح زوجَ الاثنتين، ولا يستطيع التخلي عن حُبّه لزوجتِه والزواج بأخرى.

"جلال" يستمعُ بإنصاتٍ وتركيز ولا يؤمنُ، مثل صديقه، بكلّ هذه الحساسية المفرطة باسم الحُب والغرام.

لم يجد حلًا سريعًا يلقي به على سمع صديقِه مكسور القلب، لكنه بثقة ذكَر مُخضرم وَعَدَه بإيجاد حلّ بأسرع وقت:

- ما تِشغِلش بالك إنت وسِيب الموضوع ده عليّ؟

جلسَ بعدها "عادل" بمكتبه يتابع عمله بفتور وهو يلومُ نفسَه بعد أن هدأ، لأنه تحدّثَ مع زوجتِه بتلك الطريقة الجافة الحادة.

أخطأ في الهجوم عليها بكل هذه القسوة؛ من أجل الهروب من مأزق تافهٍ كان من السهل إيجاد مخرج له أسهل وألطف مِمّا فعل.

حاولَ استجماعَ شجاعتِه والاتصال بها وتطييب خاطرها بأي شكل، لكنه لم يستطع أن يفعلها وهو مُوقنٌ أنه جرحَها جرحًا غائرًا لن يلتئمَ بسهولةٍ.

تقديرُه في محلِّه، فزوجتُه بالفعل لم تتوقف عن البكاء مُنذ سَماعِها كلماته وقسوتِها. تَشعرُ بالعجز والضآلة، وأنها أقلّ من كلِّ النساء، شيطانُ عقلها يوسوسُ لها أنها أبدًا ليست أقل من أيّ امرأةٍ أخرى.

كيف ذلك؟ وجارُهم رفيقُ الراقصات والفاتنات، مُتيّمٌ بها، ويرابطُ في شُرفة شقتِه؛ منتظرًا خروجها العشوائي لشُرفتها.

حاولَ التقرّبَ منها أمس، وداعبَ شعرها بجسارةٍ وهيام.

إنها امرأة وتعرفُ تلك النظرة التي رأتها واضحة بعينيه، عاشقٌ مُتيمٌ غارقٌ في تعلقه بها لأقصى درجةٍ.

رجفة صوتِه وهو يُحدِّثها بلوعةٍ حقيقيةٍ مفزوعًا من رؤيتِها تبكي، من المستحيل أن تكون فقط مُجرّد اصطناع لجذب ودّها، وخلق مساحةٍ بقلبها.

رغمًا عنها، تقارنُ بينه وبين لوعتِه عليها وبين ملامح زوجِها الجافة الصارمة، وهو يَتّهمُها بالعجز والمرض.

صوتٌ قادمٌ من أعماقِها يلحّ عليها أن تعملَ بنصيحةِ خادمتِها العجوز المِجرّبة، وتستعين بأحدِ الشيوخ.

ما الضررُ في ذلك إن فعلت؟

كثيرًا ما سَمِعَت مِن قبل عن العِلاج بالقرآن، وتعرفُ أنه أمرٌ معروفٌ، وله نتائجُ يحكيها الكثيرون.

الصوتُ بداخلها يرتفعُ وتزدادُ حكمتُه، ويعلو مَنطقه، وهي تؤكد لنفسِها أن مِثلَ تلك الأمور تحملُ الكثيرَ من الصِدق بداخلِها.

"أم وداد" أخبرتها، منذ أيام، بأن هناك امرأة تشغلُ عقلَ زوجها، وقد تأكدت من ذلك بنفسِها أمس.

الحزنُ بداخلها يتبدلُ بسرعةٍ فائقةٍ وتفكيرُها يتجه برُمَّتِه إلى الاستعانة بقارئة الفنجان ورفاقها.

الجوُ دافئٌ؛ وتشعرُ برغبتِها في الجلوس بشرفتها، تخشى مُواجهة جارها بعد ما حَدَثَ بينهما أمس، لكنها تؤكدُ لنفسِها أنها تُريدُ الجُلوسَ بالشرفة؛ بحثًا عن الراحةِ والاسترخاءِ والتمتع بدفء الشمس الغائب منذ أسابيع.

ملابسُها بيتية، ليست بالعارية وليست بالمُحتشمة بشكل كامل.

تتحرك ببطءٍ ورجفةٍ لا تعرفُ مصدرها، وأول ما فعلته بعد عبورها لداخل الشرفة أن بحثت ببصرها عنه في شُرفتِه.

تنهدت ولا تعرفُ هل كانت تنهيدة راحة أنه غير موجود بانتظارها، أو أنها تنهيدة خيبة أمل أنها لم تجده؟

ألقت جَسدَها فوق المَقعد المعدنيّ، ووضعت قدميها فوق الوسادة الناعمة، وشخصت ببصرها نحو السماء.

وَقت ما قبل الغروب يفتحُ قلبَها على شجن يُدغدغ مَشاعرَها.

وقتٌ طويلٌ وهي تجلسُ، كما هي، حتى اقتربت منها خادمتُها لتُخبرها بحضور "أم وداد".

فعلتها دونَ استئذانِها، وطلبت من العَرافة الحضور، بالتأكيد فعلت ذلك عند نزولها لشراء طلبات البيت.

استقبلتها بقليل من ودّ، وقد اختفى قلقها وتوترُها من وجودِها بشكل كبير.

لم تنتظر سؤالها، لتُخبرها على الفور بأنها تأكدت من كلامِها، وعرفت أن زوجَها مُتعلقٌ بامرأةٍ أخرى:

- نِسِي نفسه إمبارح وقالي يا "منال"، أكيد دي البنت بتاعته.. العَايب بتاع السّتات.

ابتسامة انتصار تعلو وجه العَرافة المُغترة بقدراتِها وهي تقول:

- ومن سِمعك يا سِت هانم، الرجالة مُعظمهم بقى كِده.

لم تَقبل "زينب" الجلوسَ بلا دور، واقتحمت حديثهما، وهي توجه عباراتها للعرافة بجدية وعزم:

- شُوفي بقى يا أم وداد، بقى سِتي كده اسم الله عليها ويحفظها من كل سوء، لا بد وألف بُد معمُول لها عَمل، ومِش بعيد تكون اللي اسمها منال دي هي إللي عملاه؛ عَشَان تِخطف منها سِي عادل.

العرافة تَهزّ رأسَها بتركيز، وتمسحُ البَلل مِن جوانب شَفتيها، وتنظر لـ"ماجدة" بتَحديق وقُوّةٍ:

- قلت لك دَه عَمل ومحسُودة من سَابق.

صاحبة البيت تستسلمُ لحديث السيدتين، وتُسلِّمهما عَقلها بكل أريحيةٍ ورضا، وتتنهّد بحسرةٍ وحزن:

- والعَمل إيه يا أم وداد؟

تمسحُ البللَ مرة أخرى وتضربُ ظهر يسارها ببطن يمينها بحزم وثقةٍ:

- ولا يكُون عندك هَمّ يا سِت الستات، من بُكرة ننزل سوا على الدرب الأحمر، ونروح للشيخ "خليفة" يقرأ عليكِ، ونرُدّ كيدها، خطافة الرجالة.

تجزعُ "ماجدة" من فكرة الذهاب بنفسِها إلى منازل الشيوخ في الأماكن الشعبية الفقيرة، وتهتفُ بخوفٍ صادق:

- لأ، درب أحمر إيه وأخضر إيه؟

تشعرُ بضيق يتضحُ على ملامح السيدتين من جزعها، وتعاليها على منطقة سكنِهما، لتقلل من حدّة صوتِها وتستطردُ بابتسامةِ ودّ مُصطنعةٍ:

- أقصد يعني أنا أتكسف أروُح لِحَد عنده، وحَد يشُوفنى، خلّيه هو ييجي هنا أحسن، وهَا أدّيله إللي هو عايزه وأكتر كمان.

ترفعُ "أم وداد" حاجبيها بحَيرةٍ:

- ما أعرفش بَقى يا سِت هانم، أنا ما سمِعتش قبل كده إن مولانا راح لِحَد بيته، بس هَفوت عليه وأقوله جايز يطاوعني، ويجيلك بنفسه هنا.

تنهض "ماجدة"، وتتحركُ نحو درج المكتبة وتجلب عدة ورقات نقدية من الفئة الكبيرة وتضعها بخجل بكف "أم وداد"، وهي تبتسمُ لها برجاءٍ:

- أكيد يعني مِش هَتِغلبي معاه يا أم وداد، وحلاوتك كبيرة طبعًا.

السعادة تملأ وجه السيدة التي تنهضُ وهي تتفحصُ الأوراق المالية بسعادةٍ وحماس.

تجذبُ جلبابَها وتُنقذه من التعلق بين أردافِها المُمتلئة، وتُعيد ضبط طرحتها فوق رأسها:

- ولا يكُون عندك هَمّ يا سِت هانم.

تتركُ خادمتها توصلها إلى الباب، وتجلسُ لتهنأ براحةٍ؛ لنجاحها في جعل العرافة تعِدُها بإقناع الشيخ للحضور بنفسه.

غضبُها من زوجها يجعلها تقبلُ فعلَ أي شيء يضمنُ لها الاحتفاظ به، ومنع غيرها من الوصول إليه وأخذه منها.

تظنه غارقا في حُب المدعوة منال، ولا تعرفُ أنه يجلسُ مُضطربًا ينتظر انتهاءَ يوم عمله، ليعرفَ خطة صديقِه الطبيب لحل مُشكلتِه. لم تنطفئ السيجارة بين أصابعه طوال اليوم من شدة تفكيره وشتاتِ عقلِه، حتى انتهى وهرول بسيارتِه إلى عيادة "جلال" يلحق به قبل أن

يتوجّه إلى العوّامة. بالتأكيد لا يريدُ أن يفتحَ مثل هذا الموضوع بوجود باقي الرفاق وفتيات الليل.

بغرفة الكشف جلس أمامه يُشعل السيجارة المِئة ويضغط عليها بشفتيه جاعلًا مقدمتها شديدة الاشتعال:

ـ عِملت إيه يا جَلال؟

يضحكُ صديقه بسخريةٍ، وهو يرى حالة الاضطراب المُتمكنة منه:

- هو إيه إللي عِملت إيه؟ يا بني ده أنت لِسّه سَايبني من كَام ساعة.

يَنتهي من سيجارتِه في أقل من خَمسة أنفاس مُتلاحقةٍ، ويَدفنُها مع باقي رفاقها في الطفّاية المُمتلِئة أمامه:

- إنت قلت لِي هَتقولي على الحَل بالليل.

يشعرُ "جلال" بالإحراج من دُعابتِه السمجة فيُقطبُ حاجبيه، ويتحدثُ بجديةٍ:

- شُوف بقى، أنا مِش هتكلم كَدكتور، هكلمَك كصاحب وبس.

يكتمُ "عادل" غضبَه وحُزنَه على سَماع الحَل:

- يا عَم كَلمني بأي طريقة؟

يلوي "جلال" فمه، ويُكمل حديثه:

- بُص يا سِيدى، إنت هَنجَوِّزك واحدة بورقتين عُرفي، تِكتبهم إنت بنفسك، وتجيبلك العَيل إللي مجِنّنك دَه، وتِدِّيها قِرشين، وتاخُد العَيل وتِدّيه لمراتك، ويتكِتب باسمكم، ولا من شَاف ولا مِن دِري.

لا يَستطيعُ "عادل" كَتمَ غيظِه، ويصيحُ في وجهِ صديقِه بصوتٍ مُرتفع:

- مِش مُمكن.. مِش معقُول؟؟

يغضبُ "جلال" من ردّة فعلِه، ويشيحُ بيده بضيق:

- تِصدق أنا غلطان أني بحاول أساعدك أصلًا.

يضعُ "عادل" سيجارة جديدة بفمِه، ويتحدثُ بكلماتٍ يفهمها صديقه بصعوبةٍ، وهو يتكلمُ قبل أن يُخرجها من فمِه:

- وهِي فين السِّت إللي هَتِقبَل تبيع ضَنَاها، ثم مِين قالك إن ماجدة مُمكن تِقبل حَاجة زي دِي؟

يرد "جلال" وهو يخلعُ البالطو الأبيض، ويرتدي بِذلتَه ويستعدُ للخُروج:

- والله أنا قلت لك إللي عندي، وإنت بقى براحتك، إنت ومراتك اعملوا إللي يريحكم.

لم يُمهله فرصة للردّ ليتحركَ- وهو يتبعه مُنكّس الرأس خائبَ الأمل- ويتوجها إلى عوّامة "زكي".

بعد كل ما مَر به طوالَ اليوم، هُو بحاجةٍ مُلحّة لكئوس الخمر وسيجارة الحشيش.

١٤٥ ق.م - «ليونتوبوليس»

لا شيء يُريح القلبَ والعقلَ أكثر من رد الأمانات وزوال هَمّ ومَشقة حملِها.

"أونياس" يشعرُ بتلك الراحة كلما جلسَ بخشوع أمام مَعبدهم الجديد، يُتابع أبناءَ قومِه المخلصينَ الأنقياء، وهُم يعرفونَ معنى الأمان والهُدوء وينعمُون بتلك المَعيشة الخالية من أي خوفٍ أو جزع.

لبّى أوامرَ حارس "سليمان"، وأتمّ البناء وشيّد الهَيكَل كما أراد وطلب.

لا يشغله غير تنفيذ ما وعد به "صاحب الأرض"، لم يستغرق الأمرُ وقتًا طويلًا، وكانت كل نساء قومِه يَتبعنَ زوجته في صفوفٍ عشوائيةٍ، ويقِفن أمامه ينتظرن تعليماته.

الكاهنُ الكبيرُ لا يُسأل لماذا ولِمَ؟

فقط يُنفذنَ ما يأمرهن به دونَ نِقاش أو تساؤل.

يعلمنَ ويثِقن أن الربّ من يُوحي إليه، ويأمره وهو ينقلُ لهن أوامر الرب.

يتبعنه بتقدير وإجلال، حتى توقف بجوار الحجر الكبير، وأشار لزوجتِه وأفهمها ما عليها فِعله كي يقلدها باقي النساء.

تسمعُ مِنه وتستوعبُ ما يُريدُ، ثم تتمدد فوق الحجر وتمرغ جسدَها به عِدة مرات.

النساء ينظرن إلى زوجةِ الكاهن، وبعد انتهائِها يُقلدنها الواحدة تلو الأخرى بتطابق تامّ.

وبينما يفعلنَ ذلك، كان يحملُ فوق ظهره قِربة كبيرة من الماء، ويسكبُ ما فيها فوق قبر "الحمير"، وكأنّ الماء يسقط في ثقوب، بمجرد أن يصل الماءُ لسطح الأرض، سُرعان ما يختفي وكأن الأرض تمتصه بكل قوة.

أتمّ رَي المقبرة، وأتمت النساء عملهن ومَرغنَ أجسادَهن بالحجر.

الحجرُ كبيرٌ وثقيلٌ لا يستطيع الرجال الأقوياء تحريكَه بسُهولةٍ.

ومع ذلك، كان يعرفُ أن هناك من يتابعهن دون أن يرينه، ويَعلمُ أن المُساعدة حتمية لا شك فيها.

أشار لهن أن يَجررن الحَجرَ الكبيرَ الثقيلَ ليُصبحَ أمام المعبد بالمُنتصف تمامًا.

يدفعنه بأيديهن الرقيقة، وهو يستجيبُ ويتحركُ بدفعِهن، كما لو كان حَجرًا من المطاط الخفيف.

يجلسُ خاشعًا يُصلي ويبكي حتى تبتلّ لِحيتُه بعد أن أتمّ ما وعَدَ به "صاحب الأرض".

الكاهنُ العابدُ مُعتاد تنفيذ الأوامر الفوقيّة بكل رضا وخُشوع.

تعلم ذلك من والده الكاهن الأكبر ومُعلِّمِه الأول، لم يُوقفه شيءٌ عن تنفيذِ ما يراه أمرًا قادمًا من السماء.

حتى وهو يأمرهم ببناء الهيكل، وصُنع المذبح الجديد، لم يلتفت لهؤلاء من عارضوه واستهجنوا بناء الهيكل بتلك الرقعة.

فقط كان يبتسمُ بهدوءٍ، ويُجيبُ غضبهم بكلماتِه الخالية من أي عنفٍ أو عداءٍ:

- الربّ يعلمُ ويأمرُ وعلينا الطاعة والتنفيذ.

قومُه من الأنقياء الطيبين، يُعارضونه فقط لهذا الحَدّ الذي يسمحُ لهم بالنهاية أن يصمتوا ويقبلوا ما يأمرهم به باسم الرب وحارس الملك "سليمان".

وكيف لا؟ وهو يَحملُ بقلبه أسمى مَعاني الإخلاص والأمل في النجاة.

يُؤلمه التفكيرُ في أمر من أخذهم الملكُ المُغتر بنفسِه لينضموا لجيشِه الكبير.

لو أنّ الأمرَ بيده لما قبل ذلكَ، ولا ترك أيًا منهم ينضمُ للجيش ويحمل السلاح.

كان يُريدهم جميعًا من المُصلين العابدين في خدمة الهيكل والربّ.

لكنه يعلمُ جيدًا أن تنفيذ أوامر الملك لا نِقاشَ فيه لضمان حياةٍ مُمتدةٍ هادئةٍ مستقرةٍ لكل قومه، فأن يُعاني فردٌ أو عشرة خير من أن يُعاني كلّ قومِه ويفقدوا المأوى والأمان.

علينا التضحية من أجل غيرنا، كي نضمنَ رضا الربّ.

يعلمُ ذلك ويُؤمنُ به كما يُؤمنُ به تلميذه "أوري"، نضحِّي من أجل غيرنا كي يرضى عنا الربّ ويقبلَ صلاتنا.

يجلسُ مُهشّمَ الروح في حُجرته الصماء، يُفكّر في ذلك في كل لحظةٍ.

مَن منهم يُضحي من أجل الآخر؟،

هل يُضحي من أجل إنقاذِ حبيبتِه الرقيقة "أريلا"، أو هي مَن تفعلها؟

والدليل أنه يُدرك الآن أن "ساريتا" رأتها وتعرفها وتعرف أنها حبيبتُه، وسبب ما حدث منه تجاه الملكة في حُجرتِها.

تعافى جسدُه بشكل كبير، وعادت إليه صحتُه وقوتُه وبرغم ذلك يجلس كما هو في حُجرته لا يُغادرها تنفيذًا لتعليمات ذلك الوغد الوضيع خادم الملكة الأملس.

النارُ تأكل قلبَه، والحَيرة تُدمي عقله ولا يستطيع الجلوس هكذا، وهو لا يعرفُ شيئًا واضحًا مفهومًا عن حبيبتِه.

يُتِمّ ارتداءَ ملابسِه ويخرجُ من حُجرتِه يبحثُ عن كبيرة الوصيفات أو حتى الخادم الأملس، يُريدُ أن يفهمَ، يبحثُ عن المعرفة والاطمئنان عن "أريلا".

يتجه نحو الردهةِ الُموصلةِ للجناح الملكي،

لا أحد يَستوقفه أو ينتبه له حتى وَجَدَ الخادمَ أمامه بابتسامتِه التي تشعلُ عنده تلك الرغبة العارمة في فصل رأسِه عن جسدِه:

- إلى أين يذهبُ الحارسُ اليهودي؟

يصمُت.. يخشى الإجابةَ الخاطئةَ، يتلعثمُ بتوتر:

- لم أعُد أطيقُ الجلوسَ بحجرتى، أريد العودة لحراسة حجرة الملكة.

يضحكُ الخادمُ بصوتِه الحادِّ المقيت، وهو يضعُ يده فوق كَتِفِه، ويُدير جسدَه لطريق العودة:

- هل تظن أنك صاحبُ القرار في ذلك أيها اليهوديّ المغرور؟

الحماسُ يفتر بقلب الشاب الملتاع، وهو يفطن إلى ما يرمي إليه الخادمُ الخبيثُ:

- أنا.. أنا.. أنا فقط أردت أن أعـ...

يُقاطعه الخادم، وهو يُصدر ذلك الصوت من مقدمة فمِه:

- لستَ هنا لتفعلَ ما تريدُ أيها الحارس، أنت هنا فقط لتُنفذ ما تُؤمرُ به.

الهمّة تختفي والحماسُ يذبُلُ واللوعة تتضاعفُ بقلب "أوري":

- ولكن...

يُقاطعه مرة أخرى، وقد وصلا لحُجرته من جديدٍ.

- ولكن يُمكننا دائمًا محو الأخطاء.

يصيح "أوري" بحماس، وقد وَجَدَ منفذًا للأمل من جديد:

- نعم.. نعم أريدُ ذلك.

- إذًا عليك أولًا انتظار سماع الأمور، لا تفكر مرة أخرى في البحثِ عنها، فقط انتظر سَماعها.

أنهى جُملته وتَركَه بعد أن أغلقَ باب الحجرة عليه، كأنه حيوانٌ أتم وضع الطعام له في حظيرتِه.

بالطبع تحتّم على الخادم الذهاب لكبيرة الوصيفات ليقصَّ عليها ما حَدثَ.

تستمعُ إليه بتركيز وتعي أن الحارسَ خرج من أجل البحث عن حبيبته بعد أن ألمحت إليه أمس بوجودها، وتركته دونَ إجابةٍ واضحةٍ شافيةٍ.

خُطتُها تسيرُ بنجاح وفق ما خططت له.

يتركها الخادمُ في حُجرتها شاردةً تفكر فيما يحدث بكل جوارحها.

اللعبة القديمة البدائية.. تضعُ أمامه ما يُحفزه ويلهبُ عقله ويجعله يُطيعها.

تعرفُ ذلك الشعور باللوعة جيدًا، تعرفُ ما هو حال المشتاق على من يُحب ولا يعرف عنه شيئًا، وكيف لا تعرفُ وقد ذاقت شُعورَه من قبل؟

الحزنُ يتمكنُ منها، ولا تستطيع منعَ دمعة تنساب ساخنة فوق وَجنتها المُمتلئة.

تتذكرُ ابنتها الصغيرة عندما أخذوها من بين ذِراعيها فور وصولها للقصر.

صرخت.. بَكَت.. لم تشعر بتلك السياط الساقطة بعنف وغلظة فوق جسدها، وهي تتوسل إليهم أن يتركوا لها ابنتها.

أخذوها منها بلا رحمةٍ أو شفقةٍ، وظلت تتذوقُ ألوانَ العقاب والألم حتى استسلمت بالنهاية، وتركت لهم جسدَها يأمرونه ويُطيع ويخدمُ الملكة الأم "كليوباترا الأولى".

فقط عليها القبول أنها مُجرد جارية وخادمة في بلاط المَلكة.

الخادماتُ لا يحملنَ الأطفالَ ولا يعتنين بأحدٍ غير المَلكة وأبنائها.

لسنواتٍ ظلت تبحثُ عن ابنتِها، وتوقنُ أنها ستجدها في يوم ما.

دفعت من ذهبها ومِمّا تسرقه خفية من ذهب الملكة، وأحيانًا من جسدِها، كي تعرفَ طريق ابنتِها.

الوحيدُ الذي يعرفُ كل ذلك عنها، هو ذلك الخادمُ الأملس الذي يُعاونها مرة، ويخذلها ألفَ مرة.

تُوقنُ أنهم عندما نزعُوا عنه خصيتيه، نزعوا معهما قلبه ومشاعره.

وحدَه يعلمُ سِرّها، ويعلمُ أنها لا تكفّ عن البحث عن ابنتِها، ولم تفقد أملها لحظة أنها ستصلُ إليها.

دفعت ثمنَ معرفتِه الكثير والكثير؛ لضمان صَمته وحفظِ سِرها.

لو أن الملكَ عرفَ بذلك لأمرَ بقطع رقبتِها.

ولاءُ الوصيفات يكونُ فقط للجناح الملكي، لا يَحقّ للخادمات أن يحملن بقلوبهنّ وعقولهنّ ما يشغلهنّ عن خِدمةِ سكان تلك الحُجرات المزينة بالذهب.

ابنتها الآن بعُمر "أريلا".

أخفت تلك الانقباضةَ بصدرها عند رؤيتِها وتذكر ابنتها المفقودة منذ سنوات.

تلك الانقباضة التي تولّدت بداخلِها، وهي تسمعُ أمرَ الملكة بقتل حبيبة الحارس اليهودي.

تذكّرتها وتذكرت تلك اللحظة وهي تصرخُ ملتاعة وتفارق بصرها من وقتِها.

تخدمُ الملكة بكل إخلاص، لكنها تحمل ذلك البغضَ الكامنَ بقلبها نحوها ونحو كل عائلتِها.

كانت تجلسُ بجوار الملكة الأم تُمسِّد لها قدمَها وتراها وهي تُداعبُ "كليوباترا الثانية" ابنتها الصغيرة، والحَسرةُ تُدمي قلبَها.

حُرمت من ابنتها، وجعلوها تجلسُ هنا تداعبُ وتلاطف طفلة أخرى تنعم بصحبة أمها والنوم بصدرها.

مئاتُ المرات فكّرت في قتل نفسِها، والتخلّص من هذا الألم الذي يحرقُ فؤادَها.

لكنها تتراجعُ وتُحدثُ نفسها أنها لا بد أن تلقاها من جديدٍ، وتأخذها وتهرب من هذا القصر الملعون وسكانِه مُنزوعي الشفقة والرحمة.

أقنعت الخادم والحارس بالإبقاء على حياة "أريلا" للضغط بها على الحارس المُتدين المخلص، وجعله ينفذ رغبات الملكة.

فعلتها وهي تشعر بأنها بذلك تنتقمُ لنفسِها ولابنتِها المفقودة، ولا تترك للملكة المفتونة بالحارس فرصة للاستحواذِ على عقلِه وقلبِه.

لسنواتٍ استطاعت أداءَ دورها باقتدار، وهي تُخفي عن الجميع حقيقة مشاعرها وما يحملُه قلبُها.

فقط تلك الدموع الساخنة في خلوتها تسقط من عينيها رغمًا عنها.

إذا استطاعت أن تلبّي رغبة الملكة، وتجعل الحارس اليهودي يُسعدها في فراشِها حينها تستطيع أن تطلب منها الذهاب إلى قصر الجنوب والبحث عن ابنتِها المفقودة.

تُعيدُ ضبط هيئتها وتتوجه بقوة وصرامة ووجه الشر إلى حُجرة "أوري".

الحلّ هناك، في حجرة الحارس.

ترسمُ على ملامحِها القوة والصلابة، وبداخلِها تدعو بكل حرقةٍ ولوعة أن يُطيعها الحارس، ويُنفذ ما تريده الملكة كي تجد طريقها نحو قصر الجنوب.

١٩٧٠م - «تل اليهودية»

الجلبة الكبيرة جعلت "لينان" يستيقظ مفزوعًا ظنًا مِنّه أن جنودَ "الوالي" عادوا من جديد للنيل من الفلاحين.

العُمالُ يلتفون حول حفرةٍ كبيرةٍ صنعتها فجأةً ضرباتُ الفئوس المتكررة. يُشير إليهم بالتراجع، ويتحركُ وحدّه ليرى الحفرة العِملاقة، وقد انفتحت بغتة لتكشف عن تلك البوابة العِملاقة المُؤدية لمر مُظلم، يظهرُ من اتّساعه أنه طويلٌ وممهدٌ.

درجاتٌ لأسفل من الحجارة الصلبة تُشبه حجارة التبة، يخطو بحرص وفضول لأسفل، يتبعه مُساعدُه "شوكت"، ويصيحُ على أحدهم لجلب شُعلة إضاءةٍ.

المَمرّ طويلٌ ممتدٌ، لا تحمل جدرانُه أي نقش أو بروز، مُساعدُه يطلب منه بقلق ألا يتمادوا في السير؛ خشية أن ينهار فوقهم سقفُ الممر. "لينان" يجدُ وجاهة في مشورته، ويعودون للخارج مرة أخرى.

يُوجّهُ تعليماته أن يستمر العمال في الحفر بمنتهى الحرص والتركيز؛ لرفع سقف الممر حتى نهايته.

يتوجه نحو دار الشيخ "غنيم"؛ لا يستطيعُ الانتظار ويُريد إجابات، الشيخ ما زال بفراشِه يحملُ جسدُه المُنهك الكثيرَ من الضمادات الملوثة بدمائِه.

يتناولُ كوب "الحلبة باللبن" من يد زوجته العجوز، ويقصّ على مسامع الشيخ كل ما رآه أمس بالتفصيل.

الشيخُ مُقتضبُ الوجه، يستمعُ بصمتٍ وسكونٍ، "لينان" يَلحّ عليه في سماع الإجابة، ويخبره عن أمر الحفرة والممر، وهل كان يعلم بوجودهما.

التوترُ يظهر على وجه الشيخ، ويتحدثُ وفوق وجهه شبحُ خوفٍ من شيءٍ ما:

- سيدي المهندس، أخبرتك من قبل بأن أرضَ التل لأهل التل.

يمتعض المهندسُ وهو يلوي فمه، ويرد بتعجل كي يتجاوزا تلك النقطة التي مَلّ من سماعِها:

- وهَل خذلتُك مُنذ وعدتك؟

- لا، لم يَحدُث.

يربتُ عليه، وهو يُحاولُ أن يبث به مَودّةً لم تكن هي الأهم بأي حال من الأحوال وسط كل حَيرتِه، ويستطردُ لجَعلِه يطمئنُ ويتحدثُ:

- هل تعرّض أيّ من أهل التل لأيِّ سُوء؟

يبتسمُ الشيخُ بهدوءٍ:

- أنت في طريقِك لذلك.

يرفعُ حاجبيه بدهشةٍ، وهو لا يعي قصدَ العجوز المُنهك:

- كيف ذلك؟، لقد وعدني قائدُ جنود الوالي ألا يعود إلا إذا طلبتُ مِنه ذلك بنفسي.

- مَن أدراك أنني أقصد الجنود وما يفعلونه؟

يُحاولُ بقوة كتمَ غيظِه من هدوءِ وغموضِ العجوز.

- فسِّر لِي ما تقصده أرجوك.

يسعلُ وهو يُحاول الاعتدالَ بجسدِه، ويتحدث بصوتٍ خفيض:

- أهلُ التل فوق أرض التل وتحتها.

تسقط عليه الجملة كحجر ثقيل فوق رأسه، وهو يحاولُ استيعابَ ما يقصده العجوز:

- ماذا تعني؟

يضعُ كفه النحيل فوق كَتِفِه، ويُقرّبه من وجهه:

- للتل أهلٌ غيرنا يسكنون باطن الأرض منذ قرون.

يلمحُ نظرة الاندهاش بوجه المهندس الشاب، وعدم تصديقه، ليستطرد بالجدية نفسِها:

- أهلُ التل الحقيقيونَ يسكنون أسفل التبة الكبيرة،

أخبرني والدي بذلك، كما أخبره والدُه من قبل، إنهم هناك تحت التبة منذ أكثر من ألف عام، يُخفون السر، ويحفظونه ويُلبّون أمنياتنا، ويُعطوننا البَركة عند السؤال.

المُهندس المُؤمن بالحساب والأرقام يستمعُ لقصة الشيخ الجديدة، وهو يرفضُ أن يُصدّق منها حرفًا واحدًا.

بالتأكيد هي خرافة كاذبة يؤمنُ بها فقط البسطاءُ والجُهلاءُ.

لا أحدَ يعيشُ تحت الأرض لأكثر من ألف عام،

لا يَهبُ الأمواتُ البركة لأحد، وقد فقدوا الحياة وتركوها.

الشيخُ بكل تأكيد عليلٌ أصابت عقله لوثة من ضربات الجُنود القاسية.

يجلسُ وحده بخَيمتِه، يُحاول الهروبَ من ملامح العجوز الصادقة التي تلحّ على عقلِه وهو يُخبره بقصة سُكان أسفل التبة.

كيف يُصدّق أن حجرًا أصمّ يهبُ البركة والذريّة لرجل يُضاجع امرأته فوقه، ثم يطوفُ معها حوله سبعَ مراتٍ، ويمرغان جسديهما به.

إنها مجرد مزحة، أو خرافة قديمة، لم يُفندها عاقلٌ ويكشفُ كذبها.

يطردُ الفكرة من رأسِه، رَأى- وسَمِعَ- الكثير في أرض الشرق منذ قدومِه من "باريس".

الفرقُ بين الشرق والغرب هو شدةُ إيمانِ الشرق بالخُرافات.

تخلفُوا عن مُواكبة العِلم وإعمال العقل منذ سنوات، ولم يتبقّ لهم غير الإيمان بالغيبيات والقوة الخارجة الكامنة بقصصهم مُحكمة السرد والبنيان.

يُخبره "شوكت" بأن العمال مُستمرونَ بالحفر، وقد جهزوا له مجموعة كبيرة من الأواني الفخارية والحجارة ذات النقوش كي يذهبَ بها إلى القاهرة، كما أمر.

حُجة جيدة كي يعود لهناك، ويُلقي جسدَه بين ذِراعَي "نسيم".

الشوقُ إليها لا يخفت أو يغيب عن قلبه المُحبّ المُشتاق.

"ريتشي" يستمعُ إليه، وإلى ما وصل إليه هو وفرقته بتركيز وإنصات.

بالطبع لم يُخبره بأمر الحصول على البركة أو ذلك الممر؛ فقد وعد الشيخ ألا يُخبر أحدًا، والأهم أنه لا يُريدُ أن يعرف أحدٌ أيّ شيءٍ قبل أن يُتمّه بنفسِه ويدرسه بإتقان.

يستعدُ للرحيل والذهاب لمنزلِه قبل أن يُفاجئه رئيسُه مُتجمّد الملامح بأنه يريدُ منه الذهاب معه إلى قصر جناب "الوالي".

لم يفعلها من قبل ويقابل "الوالي" وجهًا لوجه، الطلب مُملّ وقاسٍ على رجل مُشتاق إلى الذهاب إلى زوجتِه. لا مَفرّ من الطاعة والذهاب لقصر "الوالي"، يُقابله لأول مرةً، رغم سنوات عملِه في خدمتِه منذ وصل لمصر.

لديوان "الوالي" هيبة كبيرة تقع على القلوب، يجلسُ منفردًا بالمنتصف فوق وسائدِه الكثيرة الناعمة، والكلّ تحته بدرجتين على الأقل على الجوانب ينتظرون أوامره، أو الإجابة عن أسئلتِه التي لا تتوقفُ أو تنتهي.

يتبعُ "ريتشي" بخطوة وهو يقفُ أمام "الوالي" ذي اللحية الكبيرة البيضاء، وملامحه تظهر وتختفي خلف سحب دخان نرجيلته.

يقصّ عليه بعباراتٍ مُحددةٍ وقصيرةٍ ما وجَدُوه بأرض تل اليهودية، وهو مُنصتٌ بلا رد فعل واضح فوقَ وجهه.

يُشيرُ بيده كي ينزاح "ريتشي" بجسدِه ويُصبحُ بمواجهةِ الشاب الواقف يُتابع كلّ التفاصيل من حوله بانبهار:

- أخبرني أيّها المهندسُ النشيط، هل تُحب الذهبَ؟

يُباغته بالسؤال حتى إنه يصمُت عدة ثوان قبل أن يستجمعَ أفكاره، ويُجيب بصوتٍ ثابتٍ يحاول أن يكسبه قوة وثقة:

- بالطبع أحبّه يا جناب الوالي.. فقط إذا كان مِلكي.

وجهُ "ريتشي" ينفجرُ بحُمرة الفزع، ويبتلع ريقه بصوتٍ يسمعه "لينان"، بينما "الوالي" ينظرُ بحدّة وثباتٍ وبوادر غضب نحوهما، قبل أن يضحك فجأة بصوتٍ مُرتفع، يسقط على قلب "ريتشي" بالطمأنينة بعد أن جفّ حلقه من رعونةِ ردِّ مُساعدِه:

- أنت ذكيّ أيها المهندس، ولعل ذكاءك يُخبرك بالتأكيد بأن كل ما يُوجد بباطن الأرض من ذهب هو مِلكي بكل تأكيدٍ.

على الرغم من تهلل وجه "الوالي" بالضحك، فإن "لينان" الذكي بالفعل يَفطنُ لما تحمله تلك الضحكة من غضبٍ شديدٍ مُختفٍ خلفها،

ليردّ بسرعةٍ في محاولةٍ وفرصةٍ أخيرة ليؤكد له أنه يقصدُ ويعني الإساءة إليه:

- بالتأكيد هو كذلك يا جناب الوالي، لذا أنا هناك أبحثُ بجديةٍ عن ذهب جنابك المفقود بأرض التل.

يبتسمُ "الوالي" من حُسن الإجابة هذه المرة ويقول:

- دَعنِي أصدِّقُ ذلك وأتيقن منه برؤية لمعةِ الذهب أيها المهندس، في المرة المقبلة عليك أن تأتيني بما أحب، فلا أحبّ تلك الأواني التي لا تصلح إلا لحَمل ماء الدجاج في بيوت الفلاحين.

- بالتأكيد سأفعلُ يا جناب الوالي.

فور انتهاء لقائهما بالوالي، هرولَ "لينان" إلى بيتِه قبل أن يترك نفسَه لتوبيخ ولوم رئيسِه وتعبيره عن استيائِه من فجاجة ما قاله لجناب "الوالي".

يشتاقُ بشدَّةٍ إلى رؤية "نسيم" ووضع رأسِه فوق صدرها.

تبكي كُلما غادر.. وتبكي كلما عاد.

بمُجرد أن تراه أمامها تنسابُ دموعُها وتهرولُ ناحيته تُلقي جسدَها بين ذِراعيه بشوق وحُبّ.

لا يجدان فرصة للحديث وتبادل العبارات، وشِفاهُما مشغولة بالقبلات الحارة.

القبلات بينهما تُخبر كلًا منهما بما يجيشُ بصدر الآخر بكل صدق وتفصيل.

لم يَنَم مُنذ الليلة الماضية، وكل ما حدث بها.

في فراشِه وبجوار "نسيم"- وهو يستنشقُ رائحتها- الهدوءُ والسكينة يملآن قلبه ووجدانه، وينعس وهو يضع رأسَه بهدوءٍ وهيام فوق صدرها.

١٩٧٠م ـ «القليوبية– شبين القناطر»

"دهشان" لا يتخلى أبدًا عن البالطو الميري والطربوش الأحمر.

هُما بطاقتُه وعنوانُه أينما ذهبَ.

للبالطو الميري وَقعٌ بنفوس مَن يراه، موظف حكومة، ويحملُ بندقية ميري مُرخصة.

يمشي مُختالًا بنفسِه، وخلفه "سِعدة" تتبعه بخُطوة بجلبابها الأسود المُحتشم، وطرحتها التي تُمسك طرفها وتغطي به فمَها.

بيتُ الشيخ عبد الشافي في القرية المجاورة، عليهما قطع الطريق الطويل بمحاذاة التّرعة حتى بيته.

يشعرُ بأنه سيجدُ الخلاص هناك على يد الشيخ ذائع الصيت.

أخبره صديقه "إمبابي" بأن الشيخ لا يُخيِّب رجاءَ مَن قَصدَه.

"سِعدة" تُحاول تجاوزَ كلّ الصور المُزعجة التي تلحّ على عقلها، سمعت الكثير والكثير عن قصص الشيوخ وكيف يُعالجون المَمسُوسين والمَلبُوسين.

سمعت أن الشيخ يضربُ المَلبوسَ بكل قسوةٍ وغِلظةٍ حتى يخرجَ الجنّ من جسدِه.

ترتجفُ وهي تتابع السّيرَ بهرولةٍ خلفَ زوجها لتواكبَ بَرجلَ سَاقيه الكبيرتين.

بالتأكيد لن يضربها الشيخُ "عبد الشافي"،

هي فقط مَحسودة، لم يُخبرها أحدٌ من قبل بأنها ملبوسة، وبداخلِها جن أو مَاردٌ.

بلا وَعي تمدّ أناملها المُرتعشة، وتحكُمُ الإمساكَ ببالطو زوجها الميري. وجودُه معها يُطمئِنُها ويجعلها قادرة على طرد كل تلك الصور المُفزعة من رأسِها.

بيتُ الشيخ بجوار التّرعة مباشرةً، بيتٌ كبيرٌ له بابٌ ضخمٌ من الخشب الثقيل، وخلفه حوشٌ كبيرٌ تمرحُ فيه الدَّجاجاتُ والماعز بحُريةٍ بلا أيِّ قَيدٍ.

بالتأكيد لا يُمكن للماعز الفِرار من سطوة الشيخ صاحب العزم.

يَتنَحنَحُ "دهشان" بقوةٍ وجديةٍ بمدخل الحوش وهو يضربُ بكفيه بقوةٍ ويهتف بأدب:

- يا مولانا.

صبيّ صغيرٌ يقودهما للقاعةِ البحري، حيث يجلسُ الشيخ فوق وسادةٍ عريضةٍ وبجواره "قلة" ماء وبراد شاي نحاسي، نِصفُه السفلي مُغطى بسواد النار، وراكية نار صغيرة في إناء عريض من الحديد المُتآكل.

يهرولُ نحوه "دهشان"، ويُقبّل يَدَه وهو يُلقي عليه السلام، وزوجته تنزوي في ركن المجلس فوق الفرشة الصوف.

الشيخُ يبدو عليه ضعفُ النظر البالغ، وهو يُحركُ أهدابه بسرعةٍ فائقةٍ متكررةٍ، وهو يرحب بهما بحفاوةٍ ومَودّةٍ بالغة، ويملأ البراد من ماء القلة.

يملأ بطنَ يدِه بحفنةٍ من الشاي الأسود الخشن من كيس أخرجه من أسفل فرشته، ثم يُلقيه بالبراد ويضعه فوق راكية النار أمامه:

- مَالَك يا بني كَفى الله الشر؟

يخلع "دهشان" الطربوش، ويفركُ رأسَه ثم يتنهد ويبدأ في قصّ كل شيء على مسامع الشيخ المُنهمك بشدةٍ في دفع جمرات الفحم حول البراد.

ينتهي من سَرد القصة، ويتناولُ من يد الشيخ كوبَ الشاي الثقيل ومِثله لزوجته.

يطلب منها الشيخ بعد رشفةٍ من كوبه بصوتٍ مرتفع ومَصمصة بتلذذ لمذاقِه أن تقتربَ وتجلسَ عن يمينِه.

حركة أهدابه تزدادُ سُرعة وتلاحقًا، وهو يمدّ شفتيه للأمام بشدةٍ ويُثبت بصره على الحائط أمامه، ويقرأ القرآن بسرعة، وكَفه فوق مقدمة رأس "سِعدة" التي تشعر بسخونة كَفه، وتشعر بأنه يضغط نوعًا ما على رأسِها.

وقتٌ طويلٌ من القراءة لا يُقاطعه سوى شهقةٍ تتكررُ من صدر الشيخ بين الحين والآخر.

ينتهي من القراءةِ، وهو يمسحُ وجهه بكفيه حتى صدره عدة مراتٍ ويربتُ على ظهرها دونَ النظر إليها:

- الدم بينزل عليكِ يا بنتي؟

تُبهَت من سؤالِه وتُحدّقُ بوجه زوجها وهي لا إراديًا تُعيد طرحتها لتُخفي فمَها ونصف وجهها، وتردّ بخجل واضطراب:

- أيوه يا مولانا.

يفركُ يديه بلا سبب، وهو يقولُ بابتسامةٍ واسعةٍ:

- عَال عَال بإذن الله وكرمِه.

الفضولُ يتمكنُ من "دهشان" الذي يُغيرُ جلسته المُريحة فوق الفرشة الصوف، ويجلس على ركبتيه بتحفز:

- شايف إيه يا مولانا؟

يربتُ على كَتفِه بمودّةٍ وعطف، وهو يرشفُ جرعة كبيرة من الشاي، ويُمصمصُ شفتيه بصوتٍ وإعجاب:

- خير يا بني اطمِن.

يزداد ظهرُ "دهشان" تقوّسًا، وهو يُقرّبُ رأسَه من الشيخ، ويسألُ بسعادةٍ واضحةٍ:

- يعني سِعدة هَتِحبَل يا شيخ عبد الشافي؟

تنفرجُ ابتسامة الشيخ ويزيدُ من فرك يديه:

- "وفي السّماء رزقكم وما تُوعدون"، كله بأمر الله يا بني، ارم تُكالك على إللي خلقك.

- ونِعم بالله يا مولانا، أمانة عليك تِطمِّني يا شيخنا.

يرشفُ آخر ما يَحمله كوبه، ويضرب به في الهواء يُفرغه من بقايا الشاي المغلي:

- اطمَن يا بني، وخَلي ثِقتك بالله كبيرة.

يعتدلُ "دهشان"، ويتخلصُ من شَد عضلات جسده، وهو يرفعُ يديه للسماء، ويدعو بخشوع وتضرّع:

- اكتب لنا الخير من عندك يا ربّ.

يتنحنحُ الشيخ مرتين متتاليتين، ويتحدثُ بجدية:

- بعد ما الدم ينزل، وتِتطهر سِت الستات، تاخُدها وتروح على التل.

يُقاطعه "دهشان" بتساؤل وهو يُقطب حاجبيه:

- التل؟

يتابعُ الشيخُ على المنوال نفسِه:

- أيوه التل، تل اليهودية جنب "كفر الشوبك".

- أيوه.. أيوه عارفه.

- بعد ما تِتطهر بليلتين تروحوا التل بعد العِشا طوَّالي، تِطوُفوا حواليه سبع مرات، وفوق الحَجر العالي تِفرش فرشتك وتجَامِع مِراتك.

الخجلُ والدهشة يتمكنان من دهشان، بينما "سِعدة" تزيدُ من تغطيةِ الباقي من وجهها بطرحتِها:

- تجَامِعها على أد ما تِقدر، مرة.. اتنين.. تلاتة

لِحَد ما تِسمَع أذان الفجر، تِمرمغوا جسمكم انتوا الاتنين على الحجر لِحَد ما تحِس بنور ربنا سَطع في المكان.

تِطوفوا من تاني سبع مرات، وتسأل ربك الرزاق الكريم يرزقك الخِلفة والوَلد.

الخُطوات أبطأ بكثير في طريق العَودة من بيت الشيخ "عبد الشافي".

"دهشان" يسترجعُ كلمات الشيخ، ويشعرُ بخجل شديدٍ بأن يذهبَ بزوجتِه للتل ويُجامعها فوقه.

سمع عن التل مِئات المرات من قبل، لكنه لم يتخيل قط أن يزوره ويفعل كما يفعل غيره هناك.

كان يظن قبل حديث الشيخ أن الملبوسين فقط من يذهبون للتل، ويطلبون بركة حجر اليهود.

كل ما جال بعقلِه قبل تلك الزيارة أن بعضَ الآيات من الشيخ فوق رأس زوجتِه ستُخلصها من العين الحقودة، وترفع عنها عَينَ الحسد المانعة للخلفة والولد.

"سِعدة" خلفه بثلاثِ خُطواتٍ أو أربع.

لا تُصدِّق أن زوجها سيُنفذ ما أخبرهما به الشيخ، ويأخذها ليُجَامعَها فوق حجر التل المكشوف.

زوجُها صاحبُ حياءٍ مُرتفع، لم يُجامعها في دارهما من قبلُ وهو يعلمُ أن أمه مُستيقظة قد تشعر بما يفعلان.

لم ينبس أحدُهما بحرفٍ واحدٍ للآخر حتى أوصلها لدارهما، وتركها وذهبَ لدوار العمدة.

ليست ليلته في الخفارة، لكنه بحاجة للحديث مع "إمبابي".

اشترى علبة دخان جديدة، ألقى بها بيد صديقه ولم يجد به من التركيز ما يجعله يصبر حتى يعطيه بنفسه سيجارة تلو الأخرى.

ما أسوأ تلك المنفعة المختبئة خلف مُسمى الصداقة!

قصّ عليه بتوتر ما طلبه منهما الشيخ، وهو يعبر عن توتره وقلقه من أن يفعل ذلك، ويجامع "سِعدة" فوق حَجر التل المكشوف.

"إمبابي" لن يقبل بأي حال من الأحوال أن يبدي اعتراضه على وصية الشيخ، وهو بالأساس صاحبُ المشورة بالذهاب إليه.

ظل ساعات يلحّ على رفيقه المتوتر أن يفعل كل ما أخبره به الشيخ، وينفذ تعليماته بدقة وقبول.

قصص كثيرة متعددة من محض خياله، ارتجلها ببراعة على مسامع "دهشان" كي يشجعه على الموافقة والتنفيذ.

أولُ الشجرة بذرة.

هكذا حدّث "دهشان" نفسه، وهو يهزّ رأسَه بشرود، ويُخبر رفيقه الناصح العارف ببواطن الأمور إنه سيفعلُ.. ويذهب للتل.

١٤٥ ق.م. «القصر»

خلفَ نافذة ردهةِ الجناح الملكي، وقفت "ساريتا" تتابعُ ببصرها خروجَ الخادم الخبيث نحو الجانب الآخر من القصر، حيث يقضي الملكُ ليلته بصحبة جواريه وراقصاته العاريات.

لا تطمئنُ أبدًا إليه، وتعلمُ أنه خائنٌ لا يُؤتمن.

الملكة تناولت جرعتها اليومية من الخمر، وغطت في النوم بعد أن استمتعت بأصابع وصيفتِها، وهي تتراقصُ فوق جسدها.

تحركت بثباتٍ وهدوءٍ نحو حجرة الحارس الملتاع الجالس بلا أمل يُقاوم انفجارَ رأسِه من شدة التفكير.

هَبّ واقفًا بمجرد أن رآها أمامه وهو ينتظرُ أن يسمعَ منها حرفا واحدًا يُطمئنه على "أريلا".

العاشقُ يكفيه فقط سماع اسم عشيقته كي يهدأ ويطمئنَ قلبُه.

تُخفي مشاعرها الحقيقية، وتُحدّثه بوجه الوصيفة الشريرة مُتجردةِ العواطف والمشاعر، وتُخبره بأنها استطاعت إقناعَ الملكة أن يعودَ للوقوفِ مرة أخرى لِحراسة باب حُجرتها.

يتهللُ وجهُه وهو يسمعها، وينفض عن عقله نظراتها الشريرة المتحدية، فأول الغيث قطرة.

أن يعودَ هناك مرة أخرى مَعناه أن العقابَ قد رُفع عنه، ويُمكنه بعدها أن يُنقذ حبيبته.

تطلب منه بهدوءٍ وعدم اكتراثٍ أن يقف أمامها ويخلع ملابسه.

لم يعُد يخجل من فِعل ذلك أمامها، ليُطيعها على الفور، ويقف أمامها بكامل العُري وهي تتفحصُ جسده كطبيب خبير قبل أن تلوي فمَها وتُشير لعَانتِه، وتطلب منه أن يُزيل عن جسدِه كلّ ما تبغضه الملكة ذاتُ الجلدِ الحَساس الرقيق.

يُومئ برأسِه بلا ترددٍ، وهو يفتحُ فمه ويغلقه دون البوح بما يريد؛ لتشعر به وبحاجته للسؤال عن "أريلا".

تنهضُ بابتسامة انتصار وهي تُشير له بطرف إصبعها:

- كلما أسرعت في إرضاء الملكة أبعدتَ بذلك الحارسَ الغليظ عن حبيبتِك الصغيرة.

لم تُمهله فرصة الرد لتتركه وتذهب.

الأملُ يعودُ من جديدٍ ليسكنَ قلبه ويسكنَ فراغ حُجرته.

على الأقل، يعرفُ الآن ويتأكد أن "أريلا" بخير ولم يُصبها سُوءٌ بَعد.

إنها بالفعل، ما زالت بخير، لم ينزع ملابسَها الحارسُ القبيحُ، لكنها تجلسُ بذلك القبو مُرتجفة تبكي بلا توقف من شِدة الفزع والخوف.

تشعر بمرارة تُدمي قلبها، وهي تتخيل أن يكون قد وقع سوءٌ بحبيبها "أوري".

لا يشغلها وضعُها المُفزعُ وسجنُها القاسي بقبو مُظلم، وكل ما يشغلها هو خوفها على "أوري"، وأن يكون قد تعرضَ لسوء.

تُصلي وتدعو الربّ أن يُنقذها، ويُنقذ حبيبها وتنادي بلوعةٍ وصوتٍ مكتوم على "أونياس" لعله يسمعَ نِداءها، ويأتي لإنقاذهما.

"ساريتا" بحُجرتها تتخلصُ من ملابسها، وتلقي بها على الأرض، وتستسلم لأصابع وصيفتها الشابة وهي تُمسّد لها جسدَها في مسبح حجرتها.

لكلِّ صغير مَن هو أصغر مِنه، قبل دقائق كانت تفعلُ الأمر نفسَه بجسد الملكة كخَادمة مُطيعة، والآن خادمتها تُعيد الكَرّة فوق جسدِها الأكثر بدانة وسُمرة.

الحَشرات تأكلها الفئران.. والفِئران تأكلها الأفاعي.

تنتهي وتُغلق بابَ حُجرتِها، وتُخرج من بين صندوق ملابسها رداءً قديمًا مُتهالكًا لطفلةٍ صغيرةٍ تضعه فوق أنفِها، تستنشقُ رائحته بلوعةٍ، وتضمه لصدرها وتنام.

"أوري" حليقُ الوجه والجسد بملابس جديدة نظيفة تنبعث منها رائحة العطر الجميلة، يقف مشدودَ الجسد أمام حجرة الملكة.

للأمل سَمتٌ وملامح تظهر جليّة على وجه من يُؤمنون به، ويشعرونَ بوجودِه.

تتفحّصه "ساريتا" برضا قبل أن تَدلفَ لداخِل الحُجرة، وبعد دقائق تطلّ برأسِها وتطلب مِنه الدخول.

الملكة العاشقة الواقعة بغرام حارسِها تتمدّدُ على بطنِها؛ تتحاشى رؤية وجهه.

بحلقِها غصة، وبقلبِها ضيقٌ وعقلها لم ينسَ بعدُ خيانته.

صوتُ وصيفتِها يأمر الحارسَ- المُستسلم لما يحدث ولا يتحاشى النظر لجسدِ الملكة الواضح من تحتِ غطائِها الرقيق الشفاف- أن يَمدّ يديه ويُمسّدَ للملكة جسدَها.

أصابعُه أكثرُ رقة وهدوءًا.

تَعَلم ما يُرضيها ويفعله بإتقان، وهو يحدث نفسه أن ما يفعله الآن هو طريقه لإنقاذِ حبيبتِه.

ما كان يَعُدّه جُرمًا وخطيئة من قبل، يفعله الآن وهو مُوقن أنه فعلُ خير وتضحية من أجل إنقاذ البريئة السجينة "أريلا".

ثلاثة أجسادٍ بثلاثة عُقول شاردةٍ في شيءٍ منفصل عما يحدث الآن داخل جدران الحجرة الملكية.

الملكة.. تتذكرُ حبيبَ طفولتِها عندما كان يثقل عليها في اللعب، ويتركها تسقط وتتسخ ملابسها وتخاصمه ساعات، حتى تسامحه بالنهاية وتعود للعب معه.

ساريتا.. تُفكّر في ابنتها وتتابعُ حركة أصابع الحارس المُتقنة، وترجو أن يُسعد الملكة ويُرضيها كي تسمح لها بزيارة قصر الجنوب، والبحث بين خدمِه وجواريه عن ابنتها.

أوري.. يتحركُ بنعومةٍ وسلاسةٍ بأصابعه فوق جسد الملكة، وهو يتحدثُ بعقلِه لحبيبته "أريلا" ويطلب منها أن تسامحه على ما يفعل، وتتفهمَ أسبابَه في ذلك.

جسدُ الملكةِ المحرومُ من العِشق والدلال يستجيبُ لأصابع الحارس الشاب، وتتلوّى برفق بين يديه.

استجابتُها قريبة، وعندما تتمكن منها الرغبة لا تستطيعُ التحكمَ بها وحَجبَها.

يَدُها تتحركُ بهدوءٍ وتجذبُ الغِطاء الرقيق من فوق جسدِها لينسال من عليه، وتتعرّى بالكُليّة.

الخَادمة الفاهمة تُشيرُ للحارس، وهي ترمقه بنظرة ذات معنى أن يخلع ملابسَه.

يبتلعُ ريقه؛ وهو يشعر بأن ما بين فخذيه يستجيبُ بعد تمام العُري.

رغم ما تحمله القلوبُ، فإن الأجساد يبقى لها رأي آخر.

الجَسدُ يَتمدّدُ فوق الجسد، وفمُ الحارس يتجولُ فوق سفح ظهرها الأبيض ليتذوقَ بهدوء مذاقَ جلِدها المرطب بالزيوت والعطور.

تَئِن وتتنهدُ وهي تفسح لجسده الوصول لما بين ساقيها.

الجسدان يتناغمان ويَلتحمان قبل أن تُحركه "ساريتا" ليستلقى على ظهره ويُصبح وجهًا لوجه أمام عَيني الملكة الهائمة بمتعةٍ.

لا يملكُ الخطوة الأولى أبدًا.

تنسى خيانته، ولا تتذكرُ أي شيء غير ما تشعر به من مُتعة، وهي تتراقص وتتلوى بجسدها البض فوق خَصره.

تفعلها وتُغمض عينيها، وتترك شفتيها بين شفتيه، ويَغيبان في قبلة حارة طويلة، تختلط فيها الأنفاس.

دقائق عادت فيها العقول الثلاثة من شرودها، وغرقوا كلهم في سِحر ومتعة ما يحدث، حتى إن الخادمة تركت أصابعها تفعل بجسدها ما يفعله الحارس بجسد الملكة المنتشية بسعادة.

لم تخجل الملكة بعد أن ابتلّ بطنها بماءِ حارسِها أن تجذبه من يده نحو مسبح حُجرتها.

لم تفعلها أبدًا من قبل مع كل من أوقعهم حظهم لتنفيذ رغباتها، وسدّ جوع جسدها.

الخادمة تحقق غايتها، وهي ترى وتتأكد أن الملكة وقعت في غرام الحارس بالفعل، وأنه ليس مجرد رغبة أو نزوة عابرة.

تلامس وتلاصق الجسدين بالمسبح يفتحُ الطريق من جديد لتكرار ما حدث فوق الفراش.

لا أحدَ يشبع بسهولة من التهام الأجساد الفاتنة الشهية.

بينما الملكة تتمتع بحارسها الوسيم وما يحدث داخل حجرتها، كان عقل الخادم الأملس لا يتوقف عن التفكير.

يُزعجه أن يحدث شيءٌ بداخل القصر بعيدًا عن خططه ومشاركته.

بلا عاطفةٍ وبلا مشاعر إنسانية غير مشاعر الخبث والشر.

كأنهم نزعُوا من قلبه الرحمة والشفقة، وهُم ينزعون خصيتيه.

لا يثقُ في كبيرة الوصيفات، بل لا يثقُ بأحدٍ على الإطلاق.

ظل يراقبُ من بعيد باب حجرة الملكة المغلق حتى حلّ الليل، وانتشر الظلام بالردهات ووقف بجوار باب حجرة "ساريتا" ينتظر عودتها لحجرتها بعد يوم شاق طويل من كتم شهوتها، وهي بين جسدين عاريين تمسح عنهما العرق، وتنثر العطر من القارورات الصغيرة.

لم تشعر بوجوده قبل أن يظهر أمامها فجأة بابتسامته الخبيثة، وصوته الرفيع يشبه احتكاك نصل السكين الحاد على سطح من النحاس:

- أرجو أن تكون ملكتنا العظيمة قد استمتعت بوقتها.

تخطت فزعها بسرعة، وهي تخفي عنه ما وقع بها من خوف جراء ظهوره المُباغت، وهي تعبر باب حجرتها، وتحاول أن تبدو ثابتة غير مهتمة بحديثه:

- يمكنك سؤالها بنفسك.

يُغلق باب الحجرة بقدمِه، وهو يدور حولها ويتحدث بصوت خفيض:

- لقد بذلت مجهودًا كبيرًا طوال اليوم لمنع أبناء الملكة من زيارة حجرتها.

كان أمرًا بالغ الصعوبة، خصوصًا مع الصغيرة "ثيا" التي كانت تبكي وتلح لتذهب لأمها.

يتفحصُ رد فعلها على ملامحها بتركيز، وهو يستطردُ دون أن تغيب ابتسامته:

- كما تعلمين، الصغار لا يحبون أبدًا الابتعاد عن أمهاتهم.

الألم يغلبُ ادعاءها وتظهر على ملامحها تلك النظرة البائسة.

تعلم أن الخادم يعرف أمر ابنتها الصغيرة، لكنه بأي حال من الأحوال لا يعرف ما تفكر فيه وتخطط له:

- يبدو أن الخادم يفكر بشيءٍ ما.

تنفرج ابتسامته بشر مُطلق، وهو يقترب منها بأنفه ويشم جسدها بصوت:

- رائحة الجنس تفوحُ من جسد كبيرة الوصيفات.

تمتعض وتقطب حاجبيها، وهي تبتعد عنه بخطوة للخلف قبل أن يستطرد:

- أعرفُ ذلك الشعور جيدًا، أن تشمّي رائحة الجنس، ولا يمكنك تذوق طعمه وممارسته، كَمَن يقف في معركة ولا يحمل سلاحًا.

تجدها فرصة للانقضاض عليه، وقلب الموقف لصالحها:

- أشفقُ عليك كثيرًا وأنت بلا سلاح يجعل لك مكانًا في أي معركة.

يضحكُ بصوتٍ مرتفع، وهو يدور ويصبح خلفها، ويده تمتد عنوة بقوة ويقطع رباط ردائها ليسقط على الفور وتصبح عارية أمامه:

- إنه شعور لذيذ ألا تُحركني رؤية أجساد النساء ومفاتنهن.

تضرب رداءها بقدمها، وهي تتحركُ وتجلس مُمددة بنصف جسدها فوق فراشِها:

- الألذ أن أجلسَ أمامك عارية، وأنا أعرف أنك لا تستطيع فعل أي شيء على الإطلاق.

يبتسمُ بهدوء، وهو يقتربُ ويجلسُ بجوارها، وكفه تتحرك ببطء فوق فخذِها الممتلئة:

- أخبركِ بشيءٍ يا عزيزتي، أحيانًا كثيرة أفكر في ذلك الأمر، وأرجو لو كنتُ مثل الحارس اليهودي، أملك بين فخذيّ ما يُلهب مشاعري ويجعلني أطارد الحسناوات مثل الملك وأخيه، لكنني أعودُ وأخبر نفسي بأنّ خيرًا لي ما أنا عليه.

ينظر لها وهو يُحرك لسانه فوق شفته السفلى ويدّعي التأثر الكاذب ويستطرد:

- لو أنني مثلهم لكان لي ابن أو ابنة، لا أعرف مكانها ولا أستطيع الوصول إليها.

كلماته تنزل عليها كضربات السياط، وهو يُصر على أن يذكّرها بابنتها المفقودة، ويفتح عليها مشاعر الألم والاشتياق.

- معك حق، بالتأكيد لو أن لك أبناء، لكانوا يَلعنُون أنفسَهُم أنك والدُهم.

يضحك مرة أخرى بصوت مرتفع وهو يقف ويعدل ثيابه فوق جسدِه:

- لا يُعجبني بقاء تلك اليهودية ذات الشعر الأحمر بذلك القبو.

تنتبه لحديثه وتهبّ واقفة تسأله بريبة:

- ماذا تعني أيها الخادم؟

يبتسم لجعلها تنتبه وتتخلى عن ادعاء القوة والثقة أمامه:

- كما تعرفين الملكُ يُحبّ ذلك النوع من الفتيات، أصحاب الأجساد النحيفة والملامح البريئة.

تحدقُ فيه بقوة وغضب وتقول:

- هل تُريدُ إرسالها لجناح الملك؟

- وماذا في ذلك؟

يُحرك إصبعه بالطول بين ثدييها العظيمين:

- على الأقل أجعل ضميري يشعرُ بالراحة، والملك يفعل بها ما يفعله حبيبُها بالملكة.

يهم بالمُغادرة قبل أن تُمسك ذراعه وهي تحدثه بصوتٍ ضعيفٍ مُفعم بالضعف:

- أرجوك لا تفعل، لا أريد أن يعرف أوري ذلك ويكف عن إرضاء الملكة وطاعتِها، إنه شابٌ أحمق مُتغطرس، إذا عرفَ بضياع حبيبته قد يتصرف بجنون، ولن يهمه حتى إن قتلوه.

ينظر لها من أعلى لأسفل بفم مَمدودٍ ليُشعرها بأنه لا يكترث:

- وماذا تَدفعينَ لي مُقابل ذلك وأنا كما تعلمين لا أملك سلاحًا يجعلني أبحثُ عن خوض المعارك بين أفخاذِ النساء؟

تهرول للجانب الآخر من الحُجرة، وتُخرج من صندوقٍ خشبيّ أسفل ملابسها ثلاثَ قطع من الذهب ذات الحَجم الكبير وتضعها بيده:

- أعرفُ أن ذلك ما تحب.

يُحرِّكُ يَدَه في الهواء يُثمّن قِطع الذهب وهو يبتسمُ بانتصار:

- يا لكِ من امرأةٍ خبيثةٍ يا ساريتا، دائمًا تَخدعينني وتعرفين كيف تجعلينني أطيعك، وأتصرف بطيبة مع مَن لا يستحق.

تشعر براحةٍ وهي تَطمئنُ أنه أخذ ما يُريد، ولن يُؤذي الصغيرة "أريلا".

الكلّ في هذا القصر يبحثون عن مكسبِه الخاصّ، الملك يُريدُ الحصول على كل شيءٍ وأي شيءٍ، ويُريدُ أن يُحكم قبضته على شَمال المملكة وجنوبها حتى منابع النيل، ولا يَكفّ عن بناء المُعسكرات هنا وهناك.

وأخوه "بطليموس" لا يَكفّ عن صنع المؤامرات كي يصل للجلوس على العرش.

تشعر بأن الوقت قد نفد، والاصطدام أصبح وشيكًا ولن يرحمها أحدٌ، ولن تصل لابنتها إذا بدأ الصراعُ بوضوح بين "فيلومتر" وأخيه.

طريقها الوحيد الآمن هو تلك الهائمة العارية دائمًا بلا ملابس فوق حرير فراشِها.

الملكة بالفعل كذلك.. كما تراها وصيفتُها.

لأول مرةٍ منذ وقت طويل تشعر بذلك الشعور بالرضا والمُتعة.

المُحِبّ يَغفرُ ويَتجاوز، غفرت لأوري خطيئته وسامحته، وتركت لنفسِها العنان أن يُداعبها وتداعبه، وتشعر بين ذِراعيه بالحُبّ والسعادة.

أنجبت من "فليومتر" أربعة أبناء، لكنها أبدًا لم تشعر ليلة واحدة معه بالرضا والانتشاء.

فقط تتجرعُ عشراتِ الكئوس من الخمر حتى تشعر بالخدر بعقلها وجسدها، وتنتظر انتهاءه وابتعاده عنها برائحتِه الكريهة.

الملوكُ أيضًا يدفعونَ ثمن تلك الحياة.

الملكُ "محب أمه" تزوجها دون مشورةٍ أو استئذان، فقط احتاج أن يعرف أنه وريث عرش أبيه ليرتدي تاجه، ويأخذها زوجة له.

هي فقط لاستكمال مراسم التنصيب واعتلاء العَرش.

لا تختلفُ عن تاجه أو سيفِه أو ردائِه المصنوع من خيوط الذهب.

زوجة الملك وجليسة عرشه وأم أبنائه تمتلكُ ببطنها رَحِمًا أتى له بذريةٍ ووريثٍ لعرشِه. ملابسُها من الحرير والتاج فوق رأسِها، وحُليها التي تُغطي ذِراعيها، كل ذلك لا يمنعُ أنها مُجرّد رَحِم ينتفخُ بالأجنّة، ويأتي بالذرية وملوك المستقبل.

جميلة رقيقة كانت تستحقُ أن تتذوّقَ طعمَ الحُبّ ولحظات المُناجاة، وسماع الموسيقى من عزف الوصيفات والجواري.

لا أحدَ من العشرات حولها يعرف بماذا تشعر وماذا تريد، فقط يرونها تلك الملكة جليسة العرش ومُرتدية التاج.

عالقة في سنوات مرت، وهي ما زالت طفلة صغيرة لا تعرف معنى التيجان والعروش.

الصغارُ لا يُغريهم بريق الذهب.

دميتها الصغيرة كانت أحبّ إليها من تلك القلادات اللامعة التي كانت تزين رقبتها، لهوُها مع الصغار في حديقة القصر كان أحب إليها من الجلوس بجوار زوجها على العرش.

شعرت بـ"أوري" يُقبلها بحُب، نعم شعرت بذلك عشرات المرات، وامتصت لعابه ورحيق فمه بسعادةٍ واستمتاع.

لا يُمكنها أن تخطئ الشعور، لو أنه يفعل ذلك رغمًا عنه لشعرت بذلك وتجسد بعينيه.

رأت تلك اللمعة بعينيه، وهو يُلثم شفتيها بحُب ورغبة، لو أنه فعل ذلك مرغمًا لما دبت الحياة مرات ومرات بين فخذيه في النهار نفسه.

أوري مثلها، جلسَ بحُجرته الصغيرة يسترجع المشاهد بشرودٍ واستغراب.

كان معها فوق فراشِها وفي مسبحها، وهو مُستمتع يشعر بفتنة جَمالِها.

لساعات غاب عقله وتخلى قلبُه عن الاشتياق لحبيبته.

يُؤنبه ضميره ويصرخُ بداخل رأسه لا يعرفُ كيف حدث ذلك.

كيف ينسى "أريلا"، ولم يشعر بشيءٍ غير رغبتِه المُتجددة المستمرة لجسد الملكة، لم يختبر شهوته من قبل في ظل بقائِه الدائم بصحبة الكاهن.

لم تتخطّ شهوته أبدًا مشاعر حُبه في وقت وجوده بجوار "أريلا"، حُبّه لها كان مختلفًا، حتى وهي بين ذِراعيه يرتشفُ من فمها حلو المذاق.

الفرقُ كبيرٌ بين امرأةٍ وفتاةٍ.

"أريلا" تشبه الملائكة، وتتحركُ وتجري مثل الفراشات.

أما "كليوباترا" فتتحرك كالطاووس، خُطوات هادئة مُتناغمة مع حركة جسدها المُفعم بالأنوثة.

أنينها المكتوم تحت جسدِه كان يفعلُ به ما لم تفعله "أريلا".

نظراتها بعَينيها الناعستين أنسته كلّ شيءٍ، ولم تترك له فرصة غير التمتع بها، ولعق رقبتها البيضاء.

تحولت مشاعرُه من البُغض والكراهية لها، إلى الفتنة والاشتهاء.

يتذكرُ تعليمات الكاهن وكلماته الرنانة، وهو يُعلمهم كتمَ شهوتِهم والتغلب عليها. قالها الكاهنُ وهو بعيدٌ عن جسد ملكة جميلة فاتنة، لها جسد ذات رائحة تخطف القلوب.

ما أسهلَ أن نؤمنَ بأشياء لم نُختبر في شهوتها بعد!

قلبُه يشتاقُ لحبيبتِه، وجسدُه يشتاق للملكة.

سُحقًا أيها الكاهن، لم تخبرنا ونحن نجلسُ أمامك مُنصتين أن للشهوة سُلطة أكبر من رغبتنا في طاعة الربّ.

الآن يشعرُ بقبول عقاب الملكة، ماذا يضره في عقاب بالنهود والأرداف؟

وَعَدَته "ساريتا" بأن توصله لحبيبته، ويُنقذها إذا أثبت قوة، وأرضى الملكة في فراشِها. سيفعلُ.. نعم سيفعلُ وعندما يصل لـ"أريلا"، حتمًا سيجدُ الطريق للهروب من أسوار القصر.

١٩٧٠م ـ «حي الزمالك»

تستيقظُ "ماجدة" وتتثاءبُ وهي ترى ذلك الفراغ بفراشها لتعرف أن زوجها قد سبقها، وغادر دون أن يُوقظها كما اعتاد في الفترة الأخيرة.

تتقلبُ في فراشِها بضيق، وعقلُها مُضطربٌ من زيارة الشيخ.

يقعُ بصرُها على ذلك البرواز الخشبيّ لصورة زفافِها، تتأملُ بشجن مظهرَ الفرحةِ بملامحِها وملامح زوجها.

الأيامُ السعيدةُ لا تدوم.

مَن كان يتصورُ أن يتحوّلَ حُبهما الكبير إلى كل هذا الفتور وتلك الفجوة الكبيرة بينهما التي يزداد اتساعُها يومًا بعد يوم؟

الأصابعُ مُتشابكة، والأعينُ لامعة بفرحةٍ صادقةٍ، إنها جميلة، جميلة جدًا، استحقت الزواج من "عادل" الشاب الناجح الطموح، سليل العائلة الكبيرة.

لا عَجبَ أن يُعجب بها جارُهم الفنان، عازف المُوسيقى والألحان.

جلست بشرفتِها كما تُحب تحتسي فنجان قهوتها، قبل أن تسمعَ صوت جرس الباب وتقترب منها خادمتُها العجوز تخبرها بقدوم "أم وداد" بصحبة الشيخ "خليفة".

قلبُها يَدُقّ بقوةٍ وتسارع، والخوفُ يتمكنُ منها والتوترُ يظهر في صوتِها المُتعثر، وهي تطلبُ منها تقديمَ القهوة لهما.

لم تفعلها من قبل، وتستقبلُ ببيتها رجلًا غريبًا دون علم زوجِها، حتى إن كان شيخًا حضر بصحبة سيدة أخرى.

بخطواتٍ مُضطربةٍ تتوجه لهما وتلمح الشيخ بجلبابه الواسع الفضفاض، وذقنه الكبيرة حول وجهه، والسّبحة العاجية كبيرة الحبات بين أصابعه.

ظنته أكبرَ من ذلك، من هيئته يبدو بالكاد في الخمسين من عمره.

العرافة المتمرسةُ تُهيِّئُها بكلماتِها الودودة قبل أن تُلقي عليهما السلام.

تجلسُ أمامهما مُضطربة لا تعرف ماذا تفعل أو تقول، وتتحاشى النظر لوجه ضيفها الشيخ.

تذيب "أم وداد" الجليد، وتبدأ في مدح الشيخ الجالس مُبتسمًا بهدوءٍ، وهي تشرح كيف أنها تعبت كثيرًا لإقناعه بالمجيء بنفسِه لبيت صاحبة العِلة.

- شكرًا يا مولانا.. كتّر خِيرك.

نطقتها "ماجدة" بصعوبة لشكر الرجل على صنيعِه، وإظهار الذوق والترحيب به وبقدومه.

وضعت أمامهم "زينب" فناجين القهوة، وجلست بجوار "أم وداد" تسمعها مثل سيدتها، وهي تقصّ على الشيخ الهادئ الوقور ما تمر به صاحبة البيت من أزمة مع زوجها وعجزها عن الإنجاب.

يستمعُ بتركيز دونَ أن ينظر لها أو لأي وجه من وجوه النساء الثلاث من حوله.

فقط يهز رأسه بتمعن وتركيز، ويحتسي من فنجان قهوته كل حين وآخر.

فورَ انتهائِها من سرد كل ما تعرفه على مسامع الرجل، ينظرُ لها للمرة الأولي لتقع نظرته عليها بالتوتر، وهي ترى ثبات مُقلتيه المخيفتين كأنهما لتمثال جامد صلب.

يطلب منها الوقوف أمامه، تنقل بصرَها بين وجهي المرأتين، ولا تجد سوى ابتسامةِ تشجيع.

تقفُ بالمُنتصف أمامهم جميعًا.

ملابسُها تقليدية، جيب متوسط الطول يغطي ركبتيها، وقميصٌ بأكمام طويلة وصدر مُغلق، ورغم ذلك فإنها شعرت بأنها عارية، ونظرات الرجل تتفحصها بلا مواربة من رأسِها لأخمص قدميها.

الرجفة تتمكنُ منها، والشعور بالحرج يملأ عقلها، ودّت أن تهرب من أمامه ومن أمام نظراته الحادة القوية ورفض كل ما يحدث.

لكن مجرد نظرة سريعة خاطفة على وجه خادمتها العجوز، تجعلها تكتم توترها وتنتظر القادم وهي تخبر نفسها بأن ذلك من أجل الحفاظ على بيتها وزوجها، مجرد نظرات من شيخ جاء لعلاجها.

يشيرُ لها بيده لتقتربَ وتجلسَ على الكنبة بجواره.

تطيعه ولا تجد مبررًا لرفض طلبه، وتجلسُ بجواره دونَ النظر إليه.

يَضعُ كفّه فوق رأسها، ويبدأ في الهمهمة المُتلاحقة بكلماتٍ غير مفهومة.

إحساسُها بكفه فوق رأسها وصوته ذي الوتيرة الثابتة يجعلها تُغمض عينيها، وتشعر ببصيص مشاعر راحة وهدوء بعد توتر دام لدقائق.

الصوت لا يتوقف وكفه أيضًا لا تحتفظُ بثباتها، ويبدأ في الحركة من رأسها حتى منتصف ظهرها.

ودّت أن تفتحَ عينيها لاستطلاع رأي خادمتها من وجهها، لكنها لم تستطع فتحهما لتظل مغمضة وهي تخبر نفسها بأنها فعلت من قبل عشرات المرات، وتمددت شبه عارية للأطباء يتفحصون بطنها.

كفّه تتحركُ صعودًا وهبوطًا وهمهمته لا تتوقفُ أو تخفت.

أصابعها متشابكة فوق فخذيها، وصوت الشيخ يتوقف ويهتف دون مقدمات:

- حَيّ.

تفزع من صوتِه المُفاجئ، وتنتفضُ وتفتح عينيها وجسدها يهتز بقوة.

يربتُ على ظهرها بتودد يجعلها تقشعرُ، وهي تتحركُ بلا وعي بخَصرها لتبتعد عن مرمى يده.

- اطمني يا بنتى، خير إن شاء الله.

تشعر براحةٍ، وهي مستمرة في التراجع بخَصرها لتصل لآخر الكنبة العريضة.

- يعني في أمل يا سيدنا الشيخ.

تُسارعُ "أم وداد" بالرد بحماس قبل الشيخ:

- أيوه، أومّال إيه يا سِت هانم، هو في حاجة تستعصي على مولانا.

يبتسمُ بزهو، ويثبت بصره على السبحة وحركة حباتها المتتابعة بانتظام:

- كله بأمر الله.. إحنا يادُوب خُدام.. حَيّ.

لا تشعرُ بأنها تفهم شيئًا من حديثه، تريد منه روشتة ودواءً كما يفعل الأطباء.

تنتظرُ أن يُخبرها مباشرةً بالعلاج وموعدِه:

- عايزه أخلّف يا عَم الشيخ.

قالتها بمزيج من حزم وخجل، وهي تثبت نظرَها لأسفل، وتهربُ من رؤية ردّة فعلِه.

- ومَالُه يا بنتي، بإذن الله يتمّ المُراد وييجي العَيل.

يَتَهللُ وجهُها بشدّةٍ من ثِقة الشيخ وحديثِه، كأن الأمر سهلٌ لا ريب فيه.

تتحدثُ "زينب" وتُؤازرُ سيدتها:

- سِتي إيديها فِرطة يا مولانا ومن جنيه لألف، بَس هِمّتك معانا يرجع سِي عادل لفرشته والبيت يتملي بصراخ العِيال.

ينتبه لحديثها ويُقطب حاجبيه، ويسأل صاحبة البيت:

- هو الأفندي مِش موجُود في البيت؟

- في الشغل.

يبتسمُ لجعلِها تهدأ ويخفت توترها الواضحُ:

- لا أقصد بيات معاكِ، في فرشتِك عَدم المُؤاخذة؟

تفطنُ للهدف من وراء سؤاله لتتمكنَ منها رجفة الخجل من جديدٍ، وتعود للنظر لأسفل وهي تُجيبه بتلعثم وحرج بالغين:

- مِن مُدة وهو مجَاش ناحيتي.

يهزّ رأسَه وتتسارعُ حركة حبات السبحة بين أصابعه:

- حيّ.

ينطقها بقوةٍ تجعلها تنتفضُ وتنظر لأم وداد بلوعةٍ واضطرابٍ، التي تشعر بما يدور بعقل صاحبة البيت وتحدث الشيخ برجاءٍ:

- يا مولانا عَشمنا فيك كبير تِنصف سِت الستات وتحل المربُوط.

يصمُت للحظات ورأسه يهتز لأعلى وأسفل، ويتبعه جسده قبل أن يهتف بتتابع:

- حي.. حي.. حي.

تفركُ "أم وداد" وجهها بكَفيها، وهي تهتفُ بالمِثل وسط توتر "ماجدة" وشعورها بالخوف:

- بركَاتك يا مَولانا.. بركاتكم يا آل البيت.

السبحة تستكينُ في قبضتِه، وهو ينظرُ لها بتحديق ويُحدّثها بصوتٍ يبدو أغلظ من صوتِه بقليل:

- البذرةُ هَتِتحَط فوق التل ولازم وحتمًا جوزك يكون معاكِ ويحُط بنفسه البذرة.

لا تفهم حرفًا واحدًا من حديثِه لتنظر لقارئة فنجانها بتساؤل وحَيرةٍ:

تَهزّ "أم وداد" رأسَها، وتمسحُ البللَ من جوانب فمِها:

- قَصدك تل اليهودية يا مولانا؟

- هُو تمام.

تلوي فمَها، وتشير برأسِها لصاحبة البيت العاجزة عن فهم حديثهما وتستطردُ:

- ماخبّيش عليك يا مولانا، سِت الستات مِش مِعَرّفة الأفندي حَاجة، ولامُؤاخذة كده وعلى بلاطة عايزين هِمّتك معانا من غير ما ياخُد خبر.

تلمع عيناه، ويفركُ السبحة بقوةٍ وعنفٍ تكاد تُفرط حباتها:

- حي.. حي.. حي.

تفشلُ "ماجدة" في إخفاءِ فضولِها، وبحثِها عن تفسير لتسأل عرافتها بشَوق:

- أنا مِش فاهمة حاجة يا أم وداد؟!.. إيه تل اليهودية ده؟

قبل أن تُجيبها، يتحدثُ الشيخ بلا اهتمام بسؤالها وهو يُوجه حديثه لأم وداد:

- كله بأمر الله، وأمر الله نافد والزيارة واجبة والطواف معلوم.. حي.

قبل أن تفتحَ أي من السيدتين فمَها، كان الشيخ يقفُ بجسدٍ مشدودٍ، ويتحركُ باتجاه الباب، يُوقِفُ "أم وداد" بإشارةٍ من يده، ويُغادر وحدَه وتشعر صاحبة البيت بالراحة لرحيلِه.

تجذبُ "أم وداد" من يَدِها، وتُجلسها بجوارها تسألها تفسيرَ ما قاله الشيخ.

تسمعُها بفم مفتوح وقلبٍ مفزوع وهي تخبرها بمشورة الشيخ.

عليها زيارة منطقة "تل اليهودية"، وقضاء الليل فوق حجر التل، والطواف حول حَجره، وتمريغ جسدها عليها؛ حتى تنحلَّ عقدتُها وتدب الحياة برحِمِها.

تسمعُ مشدوهة غير مُصدّقة أن الشيخ يظن أن تفعلَ ذلك، وتذهبَ لهذا المكان البعيد النائي، وتفعلَ ذلكَ فوق حَجر مكشوفٍ، حتى إن وافقت، كيف يُمكنها طلب ذلك من زوجها؟

بالتأكيد سيُطلّقها لو سمعَ منها هذا الهراء.

"أم وداد" تُوسوسُ لها أن الشيخ قد عرف أنها تريد أن تفعل ذلك دون عِلم زوجها.

تسألها بدهشة: كيف دون زوجها؟

تُجيبها وهي تُحاول تهدئتها أن مولانا حتمًا ولا بد يعرفُ طريقة ما حِيال ذلك.

بالتأكيد هناك طريقة لِمَن هي مِثلها، ولا تستطيعُ إخبارَ زوجها بذلك.

يتمكنُ منها اليأسُ وتُودِّعُ "أم وداد" وهي مُصرّة على أنها لن تفعلَ وتذهبَ لهناك.

بعد أن ظنت أنّ الحلَ اقتربَ، يَصدِمُها طلبُ الشيخ ولا تجدُ حاجة لُمجرد التفكير فيما قال.

من رابع المُستحيلات أن تفعلَ ذلك لأيِّ سببٍ من الأسباب.

زوجُها رجلٌ معروفٌ ومشهورٌ، رجل قانون يعترفُ بالأدلةِ والبراهين والدوافع والإثباتات. رجلٌ مثله مُستحيل أن يقبلَ أو يُسلّم عقله لخُرافات شيخ يصيحُ من الحين للآخر بلا سبب.

هي أيضًا ليست من تلك النساء اللاتي يذهبنَ لأرض خاويةٍ وحدها بحثًا عن علاج.

تهربُ من يأسها بدفن وجهها بوسادتها وتنام، تفعلُ كما يفعلُ "عادل" ويهرب من ضيقه ويأسه في إنجاب ولد بالعمل بلا راحةٍ أو توقف، وتلك السهرات كل ليلة، وهو يحتسي كئوسَ الخمر وتدخين الحشيش.

يتشاجرُ مع صديقه الطبيب ويصفُ حَلّه بالفاشل والطفولي.

"جلال" يستمعُ إلى سُخريته بلا مُبالاةٍ، ويكتفي بين كلَّ ثلاثة جُمَل أن يُخبره بهدوء:

- عَنّك.. اخبَط رأسك في الحِيط.

لا يهتمُ كثيرًا بإيجاد حلِّ يُرضي صديقه، ولا يكترث لشتائمه وتهكّمِه عليه وعلى فكرتِه.

هو بالأحرى لا يهتمُ بأي شيءٍ على الإطلاق، حتى مَرضاه لا يهتمُ بهم.

يُؤدِّي عَملَه برتابةٍ ونَمَطيّةٍ بلا أدنى تعاطفٍ أو مشاعر.

ينتظرُ حُلولَ الليل بصبر نافذ كي يَتركَ ذلك الدّخانَ الأزرق يُغيِّب عقلَه، ويُخدِّر جَسدَه.

يريدُ الهروب من واقعِه، وهو يدفعُ نصفَ ما حصّله بالنهار لُومس تُسمعُه تلك العبارات الكَاذبة عن جَمَالِه ووسَامتِه وفحولتِه المهولة.

يدفعُ الكثير لسماع تلك العبارات من أفواهِهنّ ويُساعده الحشيشُ على أن يُصدِّق أنها عباراتٌ صادقة يقصِدنها، ويَقصِدن معناها.

رفضته "سُمية" منذ أعوام طويلةٍ، وسخِرت من طلبه الزواج منها فورَ تخرّجهما، وأخبرت زُملاءَهما بأنه فقيرٌ "ساكن في حارة".

فَضّلت عليه ابن الدكتور "فريد"، شاب من سكان الزمالك، ويعملُ بمستشفى خاص مِلك والدِه.

جَرحَت قلبه بكُلِّ بُرودٍ، وجعلته قصة تحكيها الألسنة عن الشاب الفقير ابن الحارة الذي حلُم بأن يتزوج بنتَ السلطان.

يتذكّرها كلما رأى "عادل"، وهو لا يُفكر في زوجتِه ولا يراها إلا أنثى يجب عليها أن ينتفخَ بطنُها، وتأتي له بالولد.

سكان الزمالك كلهم واحد.

إذا أنجب "عادل" سيُصبح ابنُه يومًا ما مِثلَ ابن الدكتور "فريد"، يملكُ ثروة كبيرةً، لا يعلم من أين وكيف أتت؟

سيتزوجُ من جميلةٍ تركت خَلفَها عاشقًا فقيرًا لا يستطيعُ شِراءَ بيت بحَيّ الزمالك، حيّ الأثرياء. يرى بوجه "عادل" وجهَ غريمِه وراثِ المُستشفى الخاص.

الدّمُ يغلي في عروقِه، ويتغلبُ على مِئاتِ الأنفاس من الحشيش، لينفجرَ فيه بلا وعي، ويَسبّه أمام الجالسينَ والمُومِسات، وهو يُخبره بأنه لا يستحقّ زوجتَه ولا يستحقّ حُبَّها.

أنانيّ مُفرط الأنانية لا يبحثُ عن شيءٍ غير وريث يحملُ ثروته بَعده.

ماذا لو أنه كانَ صاحبَ العِلّة والمرض؟

هل كان سيقبلُ أن تتخلى عنه زوجتُه وتبحثُ عن ذكر غيره قادر على التخصيب؟

كلماتُه لاذعة مُوجعة، جعلت "عادل" يُغادرُ دون النطق بحرفٍ واحدٍ. عقلُه لا يتوقفُ عن التفكير، ما قاله صديقه زلزل كيانَه، وأشعره بضآلة حجمِه وأنانيتِه.

مُنذ تمكّنَ منه التفكيرُ المُتواصل في إنجاب ولد ومِن بعد زيارة الطبيب الإنجليزيّ وانقطاع الأمل، وهو يَشعرُ بجفاءٍ لا نهائيّ تجاه زوجتِه.

لم يَعُد يَجِدُ بقلبه تلك المشاعرَ التي طالما حَملها لها من قبلُ.

الحُبّ يهربُ ويختفي إذا أحاطته الشروط، يسُبّ "جلال" في سِرّه ويَسُبّ "ماجدة" ويَسُبّ نفسَه، كُلهم مُخطئون يَظنّونه غليظ القلب بلا مَشاعر.

ما العيبُ في أن يحلم بالإنجاب؟

كُلّ الذكور يَحلُمون بالذريّة والأبناءِ، الحيوانات والحشرات وحتى النباتات تتكاثر.

لا يَعيبه أن يُريدَ مِثلما يُريد الجميعُ.

مَن مِنهم جميعًا تزوّج ولم يَعنِه أن يُنجبَ ويَحملَ أبناؤه اسمَه ويرثوا مَالَه وسُمعَتَه، ويُلاعب أطفالهم في كِبره وهو عجوزٌ بظهر مَحنيّ ينتظرُ سماع صوتِ ضَحِكاتِهم من حولِه.

يخلعُ ملابسَه دونَ أن يهتمّ بإلقاءِ مُجرّد تحيةٍ جافة عليها، يتحاشاها وتتحاشاه. لا يُريدُ أن يتجاذبَ معها الحديثَ وتعودَ وتسأله مَن تكون "منال"؟

تترك له الحُجرة وهي تشعر بأنه إذا دقق النظر بوجهها لعَرفَ أن غريبًا دخل بيتَه في غيابِه ووضعَ كفّه فوق ظهرها، وطلبَ منها الذهابَ لتمريغ جسدِها فوق حجر صلب في العَراء.

تهربُ منه لشُرفتها لتجد جارهم في انتظارها، مُقابلة "ممدوح" أَرحمُ بكثير من مُواجهة "عادل"، تجلسُ مُهتمة بإحكام معطفها فوق جسدها؛ هربًا من نظراتِه المُتلصصة التي تعرفها جيدًا.

يقتربُ من الحَاجز المَعدنيّ الفاصل بين الشرفتين، يُلقي عليها التحيّة بلا خوفٍ أو اكتراثٍ أنها زوجة وقد يكون زوجُها بالداخِل:

- إزيك.

تبتسمُ له بشبح مودّةٍ، وهي تشيحُ عنه ببصرها وتظنّه سيشعرُ بالحرج، ويعودُ أدراجه ويكفّ عن الحديث.

يُفاجئها بجذب "جيتاره"، وهو يَسألها بلا ذرةِ خوف:

- مُمكن آخُد رأيك في لحنِي الجديد؟

تنظرُ له نظرة طويلة حائرة؛ مُندهشة من جُرأتِه ولا تعرف لماذا يظنها تلك المرأة التي قد تقعُ في حب جارها، وتُبادله الهَمس في جوفِ الليل؟

تلوي فمَها، وتتركه يقفُ وَحدَه وتعودُ للداخِل، تبحثُ عن خادمتِها في المطبخ لتُؤنِسَ وَحدتَها وتجدها نائمة وصوت شخيرها يختلط بصوت الثلاجة المُرتفع.

تتذكر ما قاله الشيخُ، الشيخُ يُريدها أن تنامَ مع زوجها فوق الحجر المكشوف، ويُضاجعها على ضوءِ القمر.

التخيّلُ يُشعلُ شهوتَها، النذل "عادل" لم يَلمِسها مُنذ وقتٍ طويل.

جسدُها يشعرُ بالجُوع الشديدِ لدرجةِ أن شَهوتها اشتعَلت لمُجرد خيال أساسُه الخوفُ والدّهشة. تشعرُ بمحنةٍ وأنفاسُها تعلو وتتضاعَفُ، وتشعرُ بأنّ صدرَها لا يستطيعُ حَملها كُلها.

يُحدِّثها شيطانُها أن تعودَ للشّرفة مِن جديدٍ، مجرد كلمات وبضع نظرات من جارها المفتون بها قد تُقلل من حِدّة شهوتِها.

الوسوسة تزيدُ وتذكّرها بما حدث بينهما من قبل، شاهدها قبل ذلك بملابس نومها، وأغلب جسدها واضحٌ ومكشوفٌ أمام عينيه.

الحرارة ترتفع بجسدها، وأنفاسُها تدخلُ وتخرج من صدرها بسرعةٍ وصعوبةٍ.

تشعل سيجارة وتضعُها بين شفتيها المرتجفتين، وتتحرك بخطواتٍ غاية في البطء نحو الشرفة من جديد.

تقفُ مترددة قبل أن تعبرَ بابها، ما زال ضميرُها يقظًا بدرجةٍ ما، ويُخبرها بألا تفعل.

تعرفُ أنه ينتظرها وتعرف نِيته جيدًا، ولا تُخطئ فيها.

تسحبُ نفسًا طويلًا يملأ صدرها، وقبل أن تتحرك تسمعُ صوتًا آخر غير "ممدوح".

تنصتُ بريبة، وصوت دقات قلبها يرتفعُ بقوة.

- إنتَ لِسّه بَرضُه مِعلّق نفسك بجارتك إياها دي؟

صدمة مدوية تسقط فوق رأسِها، وتلك الجملة تعبرُ لعقلها على لسان صاحب الصوت الغريب.

تتجمدُ مكانها لتسترقَ السمع بدهشة وعدم فهم:

- أعمل إيه بس، السِّت دِي طالعة من عِينى.

- يا عم سِيبك منها دي شكلها عَاملة فيها بنت ناس ومُحترمة.

- مش من قِلة الستات يعني.

- هَجِيبها يَعني هَجِيبها، مَفيش "مَرَة" تِستَعصى على ممدوح.

دموعُها تنسالُ بغزارة، وهي تسمع حوارهما المُبتذل.

تعودُ للخلف وهي تكتمُ فمَها حتى لا يسمعَ أحدُهما صوتَ بكائِها.

حتى من ظنته عاشقًا في محراب حُسنِها، اكتشفت أنه مجرد نذل شرير، لا يُريد شيئًا غير الوصول لجسدِها كي تصبح إحدى تلك النساء اللائي يتباهى بصيدهنّ.

تلقي جسدها فوق الكنبة، تبكي بحُرقة، وجسدُها يهتزّ بلا توقف.

زوجٌ ثمِلٌ يَغطّ في النوم، وجَارٌ وقحٌ بقلب قبيح يُريد النيل من جسدِها.

لا يوجد أمامها غير حل وحيد، أن تكسبَ زوجَها وتُعيده لذِراعيها كما كان من قبل، عاشقا مُتيمًا بحُبها.

وَعَدَها الشيخ أن الحل مُمكن بإذن الله، لن يضرها شيء في الذهاب لذلك التل، مُجرد خُطوة تفعلها لتعود إليها حياتها.

كانت ستُصبحُ صيدًا سهلًا لمغرور وقح، لولا أن القدرَ جعلها تسمعُ كلماتِه وتكشف نِيته.

تتوقفُ عن البكاء وتمسح وجهها بيدها، وتجلسُ بهامةٍ مرفوعةٍ متحمسة وهي تتخذ قرارها بأن تذهب للتل، وتُخلص جسدها من لعنة الأرض البور.

١٨٢٥م - «تل اليهودية»

الفضولُ دفع "لينان" أن يظلّ طوال النهار يتابعُ بنفسه إزاحة الحجارة والصخور من فوق وحَول الممر.

عشرات، بل مِئات الأواني الفخارية، لا تكفّ فئوسُ العمال عن الاصطدام بها، وإخراجها من الأرض.

أصبح عدد الأواني كبيرًا وضخمًا، وصنع مِنه العمالُ جبلًا كبيرًا بجوار الممر المكتشف.

عقلُ المهندس الشاب لا يتوقفُ عن التفكير، مُشتتٌ بين ما يراه بعينيه وبين ما قاله الشيخ المريضُ.

أهل التل الحقيقيون أسفل التل.

هل سيقبلُ جناب "الوالي" ألا تعود الحملة له بالذهب والكنوز كما يُريد؟

هل حقًا تملك تلك الصخور مَنحَ البَركةِ لزوارها؟

صياحٌ مُرتفعٌ من حنجرة أحد العمال، يُهرولُ ناحيته بصحبة مُساعدِه "شوكت".

فك كبيرٌ مُمتد يظهرُ بين الرمال، يجثو على رُكبتيه ويُحركُ الرمل بيده ببطء وحِرص.

إنها جُمجمة حِمار، صلبة وقوية كأنها حديثة الدفن.

يأخذها معه لخَيمتِه ويضعُها أمامه ويشرد من جديد.

لا بد أن هناك خطًا رابطًا بين كل تلك الأشياء، لا يمكن أن تكون كل تلك القصص هي مَحّض عبث لا قيمة له.

التعبُ يتمكنُ منه، وهو يجلسُ يعاني من الحَر والعَرق وارتفاع الرطوبة.

الذبابُ اللعين لا يتوقفُ عن الطنين حول رأسِه، يُشتتُ تفكيرَه.

يسكبُ إناءَ الماء كلَّه دفعة واحدة فوق رأسِه ويُغمض عينيه.

الصورُ تتداخلُ في منامِه، ظلامٌ تام، ثم ضوء خاطف براق، ثم عودة للظلام.

سيداتٌ بملابس سوداء يتمرغنَ فوق الحجر المبارك.

الشيخُ العجوز يقفُ بجوار الحجر، حجمُه كبيرٌ وضخمٌ بشكل مُفزع. أذرعُه طويلة بنفس نحافتها، ويُحركها في الهواء، كأنه طاحونة هواء.

العمالُ يسيرونَ في صف مستقيم مُنتظم، ويختفون داخل الممر.

أطفال حديثو الولادة مُلقون بعشوائية حول الحجر المبارك.

صوتُ بُكائهم مُرتفع يجعل جسدَه يرتجف بشدةٍ ويشعر بخوف مجهول المصدر.

جمجمة الحِمار تدبّ فيها الحياة، حمار بابتسامة وشعر أسود حالك، صوتُ نهيق مُتداخل لعشرات الحمير.

الحمارُ يبتسمُ وينظر له بتحديق وتركيز، يحاول أن يفيق ويخرج عقله من ذلك الكابوس.

أقدامُه مَغروسة في رمل أرض التل لا يستطيعُ تحريكَها.

رأسُ الحِمار يقترب منه، وهو لا يتوقفُ عن محاولة الحركة، وإجبار سَاقيه على إطاعتِه، يُريد الصراخ.

صوتُه محبوسٌ مكتومٌ لا يستطيع عبور فمِه، الحِمار يضحك بقهقهةٍ عاليةٍ.

المسافة بينه وبين رأس الحمار صغيرة للغاية، بالكاد يرى فمَه الضخم ونظرته الحادّة الثابتة، يتوسلُ إليه أن يتركه، يشعرُ- وهو يرى فكّه وأسنانه الغليظة- بأنه سيلتهمُه.

الحِمارُ لا يتوقف عن القهقهة.

يرتجفُ جسدُه بالكامل، وهو يُحاول أن يُجبر حنجرته على الصراخ. يقعُ من فوق مَقعدِه وهو يلهثُ بفزع، ونظره ثابت على الجمجمة، يشعرُ بأنها ما زالت تضحكُ وتُحدق فيه.

يتراجعُ بخوف للخلف، وهو لا يعرفُ: هل كان ما يراه كابوسًا أو حقيقة مَرّ وشَعَر بها؟.

إنه الغروب، مُساعده "شوكت" يقف أمامه، وهو مندهشٌ من هيئتِه، ويُخبره بأن العمال انتهوا من عملهم، وذهبوا للراحة.

يهزّ له رأسَه، وهو غير قادر على الحديث، ويُحاول الوقوف وتنظيف جسده من الرمل العالق بملابسه المُبتلة من الماء والعَرق.

مُساعده يشعرُ بريبة وقلق عليه:

- هل كل شيء على ما يُرام يا سيدي؟

يُهندمُ ملابسه ويقفُ مُحاولًا الظهور أمامه بشكل لائق:

- نعم.. نعم، كل شيء على ما يُرام.

يتركه بمفردِه بصحبة الجُمجمة مرة أخرى، يجلس أمامها، يُحدق فيها ويشعر بأن بها حياة،

الوقت يَمرّ والظلام يفرض سطوته على المكان،

يُشعل مصباح خيمتِه، ويشعر بأن عليه التخلص من الجُمجمة، لا يُريدها معه بخيمتِه.

قبل أن يَمدّ يده نحوها، ينتابه من جديد الشعور بأن بها حياة.

شَعر بنظرة غضب وحزن منها وهو يهمّ بإخراجها من خيمتِه، يتراجعُ بخوفٍ ويجذبُ مصباحه ويخرج من الخيمة.

الفضول يدفعُه للذهاب إلى الممر، استطاع العُمال إزالة كميةٍ كبيرةٍ من الرمال والصخور.

المَمرّ مُنحدرٌ لأسفل، يبدو أنه طريق لمكان ما بالأسفل.

صوتُ نهيق خافت يخترقُ سمعَه، يتراجع بفزع،

صوتُ النهيق يأتي من جوفِ الممر المُظلم، يُحدّث نفسه ليطمئنها، إنه فقط مجرد تخيّل بسبب ما رآه في الكابوس.

شيءٌ ما يدفعه للاستمرار في السير حتى نهاية الممر.

بنهايةِ الممر حجرٌ ضخمٌ من الصخر يشبه الحجر المبارك فوق التبة.

يرفعُ المِصباحَ بجوار وجهه.

فوق الحَجر نقشٌ مُتعددّ الأشكال، بعضها مِصريّ قديم وبعضها غير مفهوم لم يرَه من قبل، يُحركُ أنامله فوق النقش.

صوتُ النهيق أصبح مُعتادًا له، غير مُخيف، يتحركُ بالمِصباح ولهيبه يكشف له النقش الذي يتجمعُ بالمُنتصف تمامًا عند نجمة كبيرة محفورة بحِدّة داخل الحَجر.

يَضغط عليها بكفه، يُحرّكُ خنصره في تجويفها،

يتوقف صوتُ النهيق، يرتفع صوت أزيز الصخر،

يتراجع بفزع حتى إنه يسقط أمام الحجر الكبير الذي بدأ في الحركة.

الحَجر يتحركُ لليسار، إنه مُجرد بوابة، أراد التراجع والابتعاد.

فضوله يُجبره على المُضي والتحقق مما يوجد خلف الحجر.

يتحركُ معه بسهولة بدفعةٍ صغيرةٍ من يده، نور مِصباحُه يُساعده على الرؤية، سلالم مُتعرجة لأسفل.

فجأةً يجد نفسَه وسط قبو كبير، جدران عالية فوق أغلبها نقوشٌ غير مفهومة لم يرَ مِثلها قبل ذلك.

صناديق مُترّاصّة بجوار الجُدران بدقةٍ وعنايةٍ، كتلة كبيرة من الحجر بالُمنتصف تمامًا، يطوفُ حولها ولا يعرف ماذا تكون.

صوتُ النهيق يعودُ من جديدٍ، خافتٌ هادئٌ كأنه أنين أو مُناجاة.

يفتحُ أولّ صندوق، تصدِمُه رؤية الذهب اللامع، الصندوق مُمتلئٌ بالذهب، الصندوقُ الثاني والثالث حتى مَلّ من فتحِها.

كلها مُمتلئة بالذهب والحُليّ الثمينة بديعة الهيئة والصُنع، عُملات كثيرة ذهبية لم يرَ مِثلها من قبل في كتب التاريخ.

يضعُ المِصباح فوق أحد الصناديق، ويُحاولُ الصعودَ فوق الكُتلة الكبيرة بالُمنتصف.

فوق قمتِها تابوتٌ كبيرٌ مُحكم الغلق، يُحاولُ تحريكَ غطاء التابوت، صوتُ النهيق يَرتفعُ ويُشعره بالفزع.

يُقاوم فزعَه ويُحاول دفعَ الغِطاء وفتحَه، مُحكم الغلق، تَنزلقَ قدمُه، ويسقطُ من فوق الكتلة الكبيرة، يختفي صوتُ النهيق فجأة.

يسمعُ صوتًا قويًا، يصدُر من كل الزوايا في وقتٍ واحدٍ، يرتعد.. يُحاول النهوض والفرار، يُوقفه الصوتُ بحسم وصرامة:

- ماذا تُريد؟ ولماذا تعبث بكنز الأجداد وكنز سليمان؟

يتلفتُ حوله بفزع يبحث عن مصدر الصوت، ويصيحُ بخوف ودهشة:

- مَن أنت؟

- أنا حارسُ الكنز وحامِي الهيكل.

يتراجعُ ويحتمي بالجدار خلفه، وهو يُحاول رؤية من يُحدِّثه:

- لم آخُذ شيئًا.

- لماذا تَدع رجَالكَ يُفتّشونَ ويَحفرونَ؟

- إنها أوامر "الوالي".

- وماذا يُريد "الوالي"؟

- الذهب.

الصناديق تُغلق من تلقاء نفسها بصوت قوي وغليظ، الصوتُ يزدادُ حِدّة وقوة:

- لا تفعَل.. مَن يفعلها ويقترب من كنز "سليمان" لن يجدَ مِني أيّ رحمةٍ.

يَختفي الصوتُ، ويعودُ صوتُ النهيق أشد قوة وعشوائية.

تطيعُه قدماه ويهرول وهو يتخبط بالجدران حتى يصلَ لأعلى مرة أخرى.

يلهثُ بقوة وفزع وهو يرى بعينيه الحجرَ يعود مرة أخرى كأنه لم يُفتح من قبل.

الجوُ مُظلمٌ من حولِه، يتلفت حوله ولا يرى غير الظلامَ والسكون.

يَعود لخيمتِه، لا يجد الجُمجمة.

يفتش عنها بجنون لعلها وقعت خلف فراشِه، لا يجدُ لها أثرًا على الإطلاق.

يُفكّر في الذهاب إلى بيتِ الشيخ العجوز، يتذكّرُ حديثَ الصوتِ المجهول، يتركُ جسدَه يسقط فوق مَقعدِه.

كلامُ الشيخ يعلو بداخل عقلِه.. أرضُ التل لأهل التل.

يستريحُ ويهدأ ويُفكر بتركيز.

بالأسفل كَنزٌ كبيرٌ لا يتصوره عقلُه، عشرات الصناديق مُمتلئة بالذهب والحُليّ والعملات، كنز لن يُصدِّقَ جنابُ "الوالي" أنه وصل إليه.

الخرائط القديمة والمخطوطات تتراصّ بعقلِه ويراها من جديدٍ بشكل مختلف.

أرضُ التل مسحورة، لا يُصدِّق بالسحر والأرواح والخرافات، لكنه رأى بنفسه ما لم يتصوره عقله من قبل.

معبدٌ مِصريّ قديم لإله الخصوبة، ومسكن ومعبد لليهود، وأرض بحجارة مباركة لا يعرف أحدٌ سرَّها، وهل هي بالفعل مباركة أو أن الباحث عن المعجزات يصورها له عقله بهذا الشكل؟

القوة الخفية مجهولة المصدر، موجودة حتى إن لم نرَها بأعيننا، قرأ من قبل عشرات الكتب عن تلك القوة.

هل يُوجد سحرٌ بالحجارة أو لا يوجد، لا يهم إن كان هناك من يُؤمن بذلك ويُصدِّقه.

الشيخ يُصدِّقُ ذلك، ومن رآهم من أزواج بصحبة زوجاتهم فوق الحجر المبارك يُصدّقون ويُؤمنون.

"الوالي" يبحثُ عن الذهب، وأهل التل يبحثونَ عن تحقيق الأمنيات وانتظار المُعجزات.

وحدَه لا يعنيه الذهبُ، ولا ينتظر المعجزة، ملابسُه مُتسخة من تراب "الهيكل"، وعقله مشوش وقلبه لا يتوقف عن الضربات السريعة المتلاحقة.

عليه أن يحسمَ الأمر وينتهي: هل يذهبُ بالذهب لجناب "الوالي"، أو يترك التل لأهل التل؟

١٩٧٠م - «القليوبية- شبين القناطر»

عقلُ "دهشان" لا يتوقفُ عن التفكير، كلامُ الشيخ واضحٌ ولا لبث فيه، عليهما زيارة التل والطواف وفعل كل ما أمرهما به حتى تحمل "سِعدة" وتأتي له بالولد.

لم يستطع البقاء بفراشِه تلك الليلة، خطف نظرة على جسدِ زوجتِه وخرجَ يبحثُ عن نسمة هواء خارج حوائط الدار.

الجلوسُ ليلًا على شاطئ التّرعة يُفزعه، قد تخرج له "الجِنيّة" وتجذبه معها للأعماق وتمصّ دمَه، أو قد يسمع صوت "النّداهة" ويسقط في سِحر صوتِها ويتبعها نحو نهايتِه.

وعلى الرغم من ذلك، فإنه جلس متقوقعًا في الظلام وهو يقذف بالحجارة الصغيرة في ماء الترعة الرّاكد، ويُتابع بلا تركيز تلك الدوائر التي تصنعها الحِجارة.

يُصدر الحجر صوتًا ثم يختفي، ويفور الماء وتتضح الدائرة وتتسعُ ثم تختفي، ويعود الماء للركود والثبات.

كل الأمور تحدثُ واضحة، ثم تختفي، وكأنها لم تحدُث على الإطلاق.

عقله يُخبره بأن كل ما يحدث؛ بسبب الحسد، الجميع حسدُوه على "سِعدة"، حتى رفيقه "إمبابي" قالها مرة وهو يضحكُ وجسده البدين يهتز:

- مِش كفاية يا وَلَا مِتجوِّز لهطة القشدة دي، كَمَان عَايز عِيال يا طِفِس؟

يستكثرون عليه أن يَسعدَ كل السعادة، ويَرون أن زواجه من أجمل فتاة بالقرية على الإطلاق حظ كافٍ، ويجب ألا يطمع في أكثر من ذلك.

لهم جميعًا ذرية وأولاد، لكنهم يرونها "فراغة عين" مِنه أن يحلم بذلك.

لا.. ليس من المعقول أن يرضى بذلك، هناك الألوف من الرجال غيره متزوجون من حسناواتٍ بارعات الجَمال.

يجبُ عليه ألا يستسلم ويرضى بقِلة البخت، الوجومُ يسيطر على "سِعدة" منذ عودتها من زيارة الشيخ.

لا يتوقف عقلها عن تخيّل وجودِها بصحبة زوجها فوق حجر التل المبارك.

ترتعدُ من مجرّد التخيّل، تخشى أن يلبسها جنّ أو مارد، وتفقد عقلها وتصبح مجنونة، يقذفها الأطفال بالحجارة مثل "نعيمة" جارتها التي أصابتها لوثة بعد أن لبسها جن عند سقوطها بأرض المرحاض.

حتمًا الجن والعفاريت موجودة بالتل، وسترى ما سيحدثُ بينها وبين زوجها. الست "شربات" قصّت أمامها من قبلُ أن في الجن ذكورًا هائجين مِثل رجال القرية، تفتنهم النساء ويرغبون فيهنّ.

قالت ذلك وهي تُوصيهن ألا يتأخرن في المرحاض وألا يدخلنه بالليل للاستحمام، والجن مُتيقظ.

الليلة المنشودة تأتي، و"دهشان" يخبر أمه المترصدة بهما بأنه سيذهب مع "سِعدة" لزيارة سيدنا "الحُسين".

تكتفي دائمًا بالتعليق على تلك الأشياء بجُملة واحدةٍ وثابتةٍ:

- بَلا وَكسَة.

تحركا بعد صلاة العشاء، كما أخبرهما الشيخ "عبد الشافي"، تمشي خلفه برهبة وخوف، وهي تمسكُ البالطو الميري، وتتشبثُ به بقوةٍ وعصبيةٍ.

الظلامُ ساترٌ كما أخبرهما الشيخ، والقمر غائب ولا أحد بالطريق، التبة تظهر من بعيد، تتشبث به بقوة أكبر وتلتصق بجسده بشدة.

يَلمحان شبحَي جسدين مثلهما يتحركان من بعيد، بخُطوات مُتعرجة بطيئة.

هناك كثيرون غيرهما يبحثون عن الذرية من بركة وسِحر الحجر.

الحجرُ عريض يفترشُ التبة بالكامل، يقتربان منه ويقترب منهما شبحا الجسدين.

زوج وزوجة مثلهما، وكل زوجة تخفي وجهها بغطاء رأسِها.

يطوفان في صمتٍ متباعدين سبع مرات، كما أخبرهما الشيوخ.

ينتهيان ويصعدان فوق الحجر العريض، يخرج "دهشان" من تحت البالطو الميري ملاءة كبيرة ويفرشها فوق جسديهما.

كلهم فعلوا مثلما فعل، وساعدهم الظلام في الاختباء.

"سِعدة" بين ذِراعيه، تختبئ أسفلَ جسدِه، يمدّ يده ويرفع جلبابها فوق خصرها، يشعرُ برجفتِها وهي تمسكُ رقبته وتدفنُ رأسها بصدره.

يُحاول البدء، لا يشعرُ بأي استجابةٍ لما بين فخذيه، الموقف مشين وغريب، جسدُه لا يستجيبُ، يبحث عن ذكورتِه ولا يجدها.

يُحاول ويحاول وهي ترتعدُ ولا تساعده، يُحاول الهدوء واستجماع شجاعته وحماسه.

ينظر حوله، يشعر بجَسدي شريكيه يتحركان في الظلام، نجحا في البَدء. أول مرة يرى عن قرب رجلًا يُجامع زوجته، لا يرى جسديهما، ولا يلمح التفاصيل، لكنه بالفعل يراهما.

صوتُ الأنات من أفواه النساء يصلُ لمسامعهما هو و"سِعدة".

يبدأ جسدُه في الاستجابة، تُفسح له المجالَ بين ساقيها، يلتهمُ فمَها ويبدأ في جماعِها، الأصواتُ تتداخلُ وتختلط، والأجساد لا تتوقف عن الحركة، فعَلها وألقى ماءَه برحِمِها.

هَدآ واستكانا، وبعد ساعةٍ أو أكثر عاد الجسدان للحركة، هذه المرة الأصوات أعلى وأكثر وضوحًا، الحركة فوق الحجر أصبحت صاخبة يغلبها الانفعال، الأغطية تسقط من فوق الجسدين بفعل الاندماج والحماس، ولولا غياب القمر لانكشف الستر لأعين الجيران.

قبل أن يسمعا صوت أذان الفجر كانا قد فعلاها ثلاثَ مرات، عاد جلباب "سِعدة" يغطي خَصرها وساقيها، وأخذا يمرغان جسديهما فوق الحجر.

كُلّ من فوق الحجر يفعلون ذلك ويمرغون أجسادهم، الأجساد تقترب دون تركيز، وساق "سِعدة" تصطدم بساق إحدى جاراتها، ويتحاشى كل منهما النظر للأخرى.

أشعة الشمس تتخلل السماء، يتوقفون ويتحركون جميعًا لأسفل.

طواف أخير حول الحَجر المبارك، ويكثرون من الدعاء؛ أملًا في حدوث المعجزة.

انتهت الزيارة، اختفى جيران ليلتهما عن أبصارهما، يشعران بالطمأنينة والهدوء، لم يعرفوا وجهيهما، وهُما بالمثل لم يريا منهم أيّ ملامح.

عادا وهما مُبتسمين فرحين، تمشي خلفه منتشية مُبتسمة.

يدها خلف ظهره تتحسّسه بحُب وسعادة، فعلاها ثلاثَ مراتٍ مُتتالية، لم يفعلاها ثلاث مرات في ليلة واحدة منذ وقت طويل.

لم ينظرا في وجه "فوقية" أثناء التطهر بدارهما.

في المساء قبّل جبينها، وارتدى البالطو الميري والطربوش، وهندم شاربه، وحمل بندقيته الميري وتوجه لدوار العمدة.

تركها بعد أن ودّعها بابتسامة غابت عنه كثيرًا، تركها لتجلسَ فوق فراشِها تسرح وتهذب شعرها الناعم الطويل، مبتسمة متفائلة تفكر في اسم المولود.

تشعر بداخلها بأن الحملَ سيحدث، وأن حَمَاتها ذات الوجه العبوس ستتوقفُ عن تهكّمها ومعاملتها بحنق وضيق.

تضع كفيها فوق بطنها، وهي تنظرُ من نافذة حُجرتها للسماء، وتدعو برهبةٍ وتوسّل:

- اجبر بخاطري يا رب لأجل حبيبك النبي.

تبكي رغمًا عنها، وهي تتخذ قرارها قبل أن تنام بأنه في الغد ستصنعُ حلة كبيرة من الفول النابت، وتفرقها على الجيران.

لن يخذلها النصيبُ هذه المرة، حتمًا سيُجبر الله بخاطرها، وتأتي بالمولود.

١٤٥ ق.م - «ليونتوبوليس»

الشعيراتُ البيضاء بذقن "أونياس" تزدادُ يومًا بعد يوم، هكذا الشيب.. عندما يزورنا لا يتوقفُ عن الإعلان عن وجوده.

زوجتُه المُحبة بإخلاص وصِدق، لا تتوقفُ عن النظر إليه وهو نائمٌ. وحدَها تشعرُ به، وبما يجيشُ بصدره، حتى وإن بدا لها مُبتسمًا هادئًا.

تعرفُ وحدها، بمشاعرها المُحبة الصادقة، أنه يعاني من الداخل ويُصارع من أجل الثبات والصمود.

عابدٌ مُخلصٌ لا يهمه شيء غير طاعة الرب والإخلاص في دعائه وصلاته. كل ما حدثَ له وواجَهه لا يُريده أو يرتاح إليه قلبُه.

ضريبة أن تقودَ قومَك، أن تفعلَ ما لا تريدُ من أجل سلامةِ الجميع.

رؤية رجال من قومِه بملابس جنود الملك أمرٌ غير مُستحب له، لكنه لا يستطيع الرفض أو الاعتراضَ. عليه حِراسة أرض التل وحماية قومه، وإرضاء الملك صاحب الأرض.

حارسُ الهيكل أخبره بأنه يحمي جنود "باشت" الذي سمح لهم ببناء الهيكل، ودفن التوابيت والصناديق.

هُم ضيوفُ الإله الكريم مانح البركة والخصوبة، يعتني كما أرادوا منه، بمقبرة الحمير، يحمي الهيكل والكنز والتابوت والصولجان.

يحمي قومَه ويقودهم للدعاء والصلاة.

الحملُ ثقيل، لكن يجب عليه حملُه والثبات والإخلاص.

أصبح لهم مسكنٌ ومأوى وهيكل ومذبح، النساء والأطفال لا يتوقفون عن صنع الأواني الفخارية، لا أحدَ يجلسُ دون عمل يقوم به، حتى إن ولَدَيه طلبا الانضمام لجنود الملك، ملابس الجنود تفتن الشبان.

نظرة واحدة على وجوه الأطفال وهم يمرحون ويضحكون بسعادة تجعله يَهدأ ويطمئن، ويشكر الربّ ويحثهم على الاستمرار في الدعاء والصلاة.

الدّعاء هو مَلاذ الضعفاء والطامعين في رحمة الربّ.

"أريلا" في محبسِها لا تتوقفُ عن الدعاء، يكاد يقتلها اليأسُ كل يوم وكل ساعةٍ، لكنها فقط تتذكر "أوري" لتتشبث بالحياة.

لا بد أن يأتى، لا بد أن يُنقذها، أخبرها بذلك من قبل وأقسم عليه.

كبيرة الوصيفات لا تتوقف عن زيارتِها وسؤالها إن كان الخادم فعل معها شيئًا أو أخبرها بشيء، فقط تسألها باهتمام، ولا تجيبها عن شيءٍ على الإطلاق.

تتركُها كلّ مرة في حَيرتِها، دونَ أن تُطمئنها بكلمةٍ واحدةٍ عن "أوري"، تترك لها قطعًا صغيرة من الخُبز وإناء لبن وقارورة ماء.

مرة واحدة ابتسمت لها وطلبت الانتظار، فقط الانتظار، وسيصبح كل شيء على ما يُرام.

"ساريتا" صَادقة، كل ما يعنيها أن تصلَ للجنوب، تصلَ لابنتِها وتُرجعها إليها، بات الحُلمُ وشيكًا وقريبًا من التحقيق.

المَلكة تضحكُ وتبتسمُ وتتزينُ كل صباح، لم تفعل ذلك من فترة بعيدة، حارسُها القويّ البنيان، صاحب الملامح الجميلة، لا يتركها يومًا دون إمتاع، يفعلُ ذلك كل يوم، وهو لا يعرفُ لماذا يفعل؟

هل أصبح مفتونًا بجمال الملكة أو أنه يفعلُ ذلك من أجل إنقاذ حبيبتِه؟

الحديث بينه وبين "ساريتا" أصبح واضحًا ومكشوفا، أخبرته بذلك بنفسِها بعد شعورها بالخوف والقلق من تصرفات الخادم الخبيث.

مُقايضة عادلة لا ينقصها سوى التنفيذ، يُساعدها على الوصول للجنوب وتُعيد إليه حبيبته، وحدَه يستطيعُ أن يفعلها كلما تمكن من امتلاك مشاعر الملكة.

الملكة المُشتاقة لتلك الأحاسيس والشعور بالعشق والهيام تعلمُ أن زوجها مَشغولٌ عنها، ولا يُفكر بشيءٍ غير حماية عرشه من أخيه الطامع في المُلك.

الصراعُ بينهما جعل أروقة القصر مضطربة متوترة، لا أحد يجهر بالعداء، كلهم بداخل القصر يتحلّون بوجه الخادم الخبيث، يبتسمونَ بوجوه بعضهم بعضًا، بينما تحمل القلوب عكس ما تُظهر وجوههم.

إذا انتصرَ زوجُها، ظلت الملكة العظيمة مُرتدية الحُلِيّ والمجوهرات، وإذا انتصر أخوه الأصغر "بطليموس الثامن"، ستُصبح زوجته وتتعرف عن قرب إذا كان مثل أخيه لا يهتم برائحة فمه، أو مثلها يُحب الروائح الجميلة.

يذهبُ ملكٌ، ويأتي ملكٌ وتظل هي كما هي دائمًا، بملابس ناعمة وملامح جميلة وتاج فوق رأسِها يُعطيه الشرعية ويُمكّنه من إتمام المراسم.

الكُل داخل القصر يبحث عن شيء ما، هي وحدها تبحثُ عن شيء تجهله، ولا تعرف ماذا يكون؟

كل ليلةٍ تسأل نفسها السؤال ذاته: هل تُحب حارسها حقًا؟ هل يسكنُ عقلها وقلبها، أو هو مجرد جسد يُشبعها ووجه مبتسم وسيم يُذكّرها بما مَضى.

تُغمض عينيها قبل أن تصل لإجابة، لا يهم إذا كان هذا أو ذاك، فقط يكفيها أنها تعيشُ تلك اللحظات وتتمتع بها.

هو أيضًا يجلس بفراشِه كل ليلة بعد يوم طويل من تلاحم الجسدين والشِّفاه، كيف تغيب "أريلا" عن رأسِه وهو يحمل الملكة بين ذراعيه، ويرتشفُ من رحيق حُسنِها؟

يبكي بندم وحزن كل ليلة وهو يتذكرُ أنه ينسى حبيبته بالنهار، صورتها تزوره في أحلامِه، تضمه وتربتُ على ظهره بحب وحنان.

تفهمُ ماذا يحدثُ له وكيف يخضعُ هكذا لرغبات الملكة.

الخوف أحيانًا يجعلنا نتصرفُ بجنون، ويُصيبنا بالعمى، ونحن مفتوحي الأعين، لا يهم أن تمتلك جسده لبعض الوقت.

هي وحدَها تسكن فؤادَه وعقله، وتملك ذلك القلب النابض دائمًا بحُبِّها.

تهديدُ الخادم أصبح واضحًا مُعلنًا، يخشى الخروج من دائرة المُنتفعين، وجود كبيرة الوصيفات والحارس بصحبة الملكة في حجرتها طوال اليوم يُفزعه ويُشعره بالخوف من ضياع المكسب والحظوة.

أمانُه الوحيد في وجود تلك المسكينة الباكية في محبسها بالقبو أسفل القصر، لا يتركها تغيبُ عن مراقبتِه ليل نهار، ولولا انشغاله بخدمة الملك، ما تركها لحظة واحدة.

"أوري" يهمسُ للملكة وهو يضمها في مسبح حجرتها، يريدُ الإذنَ بالذهاب لقصر الجنوب لجلب زهور "النرجس" من هناك، يُخبرها بصوت عاشق مُتيم أنه يريد أن يهديها زهور النرجس.

زيارة سريعة لبضعة أيام.

"ساريتا" تُساعده وتهمس للملكة أنه لا ضرر في ذلك لبضعة أيام، لن تستطيع فيها الملكة ارتداء ملابسها الخفيفة، والغطس بالمسبح واللهو فوق خصر حارسِها.

الأمرُ يتحول بعكس خطة كبيرة الوصيفات،"أوري" يذهبُ وحده للبحث عن ابنتها في الجنوب.

في حُجرته وقعت أمامه مهدودة، وهي تبكي وتتوسل إليه أن يجدَ لها ابنتها، إنها فرصتها الأخيرة.

تخلت عن قوتها وصرامتها، وبكت مثل الأطفال وهي ترجوه أن يعيد إليها ابنتها.

البحث عن ابنة "ساريتا" رغبة مشتركة بينهما، هي تذكرة وصوله لحبيبته وإنقاذها، تُطمئن نفسَها أنه سيفعلُ من أجل الوصول لحبيبته.

تتركه يستعدُ لرحلته، وعند خروجها تلمح شبحًا يختفي في نهاية الطرقة، تهرول خلفه ولا تلحق به.

إنه هو بلا شك، الخادمُ الخبيثُ، لا أحد يخيفها ويُهدد خطتها غيره، لا تستطيعُ النوم والانتظار، كلمة واحدة منه ويضيعُ كل شيء ويضيع رأسها معه.

تذهبُ وتبحثُ عنه.

في حجرته تجلسُ وتنتظره في ركنها المظلم حتى يعبرها وخلفه حارس من أصحاب الأعين الضيقة والقامة القصيرة والبشرة الصفراء.

لا يريانها وهي تقفُ جامدة في الركن المظلم، الخادم يتدلل ويخلعُ رداءه، وهو يفركُ جسدَه بجسد الحارس المبتسم ببلاهة.

قبل أن يفعلاها، تضحكُ بصوت مرتفع وهي تتحرك وتصبح في مرمى نور الشعلة المضيئة، يفزع الخادم ويُعيد رداءه فوق جسدِه بعجالة ويطلب من الحارس الخروجَ.

لا يهمه أن تراه في هذا الوضع، بالتأكيد تعرفُ ذلك عنه من قبل.

- كبيرة الوصيفات تعلمت التلصص ودخول الحُجرات دون استئذان.

تضحكُ وهي تقتربُ منه، وتحرك يدها فوق ردائه تهندمه فوق جسده:

- إنها مهاراتٌ صغيرة اكتسبتها منك يا رفيقي المُخلص.

يبتعد عنها خطوتين، وهو يمد يده نحو كأسه ويتجرعها كلها مرة واحدة.

تبتسمُ، وهي تراه ينتهي من احتساء الكأس ويقذف بها بعيدًا في محاولة للظهور بثبات وثقة.

تُخرج من ثوبها قطعة متوسطة من الذهب تضعها أمامه وهي تحدثه بلين مُفتعل:

- شعرت بأن حُجرتك لم يزرها الذهب منذ وقت طويل.

ينظر نحو القطعة الذهبية بشراهةٍ، ويبتسمُ وهو يفهمُ ما ترمي إليه:

- سمعتُ أن صديقك اليهوديّ سيذهبُ للجنوب في الغد.

تصب له كأسًا جديدة، وتضعها بين يديه، وهي تتحدثُ بنفس اللين:

- إنها أوامر الملكة يا عَزيزي، استيقظت في الصباح، وهي تشتاقُ لرائحة النرجس.

يتناولُ الكأس دفعة واحدة مثل المرة الأولى ويجلسُ على حافة فراشه:

- كم هو غريب أمر المُلوك والملكات!، يرغبون في الأشياء بسرعةٍ كبيرةٍ، ويتخلون عنها بسرعة أكبر.

تُحرك يدها فوقَ استدارة خصرها وهي تتلوى بدلال:

- لكنها لم ولن تملّ مِني أبدًا.

قبل أن يتحدثَ، تشير له مودعة وهي تضحك بصوتٍ خافت وتغمز له بعينيها:

- هل أرسلُ لك حارسَك مرة أخرى؟

يلوي فمه، وهو يفهمُ تهكمها ويملأ كأسه مرة أخرى.

تقفُ متسمّرة خلف الباب، تستند برأسها إليه، يأتيها بعد قليل الصوت الذي تبحث عنه، صوت أنين الخادم وتألمه، تحكم يدها فوق مقبض الباب، تقاوم حركته في فتحِه، وهي تتمتعُ بصوت صراخه المختفي في ضخامة وسمك الباب.

دقائق طويلة حتى توقف الصوتُ، وانتهت محاولاته لفتح الباب، تبتسم بانتصار وراحة، وتذهب لحُجرتها، تنتظر بأمل عودة "أوري".

في الصباح كانت تبكي، وهي تخبر الملكة بأن الخادمَ قد قتل أمس بجرعة سم قوية.

تخبرها، بحزن مُصطنع، بأن المؤامرات داخل القصر أصبحت مُفزعة وكثيرة، بلا شك قتله أحد أعوان "بطليموس" لإغضاب "الملك".

هكذا تكون المعاركُ والصراعاتُ داخل القصور، يروح ضحيتها الخدم والمساعدون، الملكُ يغضبُ بشدة، ويأمر بالبحث عن قاتل

خادمه، لكنه سُرعان ما ينشغلُ بأعماله ومتابعة أخبار جواسيسه عن أخيه الأصغر الطامع في العرش.

يذهب الخادمُ ويأتي خادم، لا يتوقف أحد عند خادم قتله السم في جوف الليل.

الرحلة للجنوب طويلة، قطعها "أوري" بلا توقف، يهرولُ بجوادِه بصحبة بعض الحراس بجدية وحماس.

أخبرته "ساريتا" بأن يسألَ هناك عن الخادم العجوز "تاليس"، ويُخبره بأنه قدِم من عندها ويسأله عن ابنتها.

الخادمُ العجوز يخبره بأسًى بأن ابنة "ساريتا" قد رحلت منذ سنوات، أهداها الملكُ هي وأخريات هدية لأحد ملوك الجنوب.

لم تعد موجودة بالمملكة، لا أحدَ يعرف أين تكون، فقط رحلت واختفت ولم يعُد لها وجود.

عاد منكسَ الرأس، يحملُ زهور النرجس والخبر المشئوم.

"ساريتا" لم تبرح نافذة القصر، كل مساء تقفُ تنتظر وصولَ الحارس وابنتها.

تلمحهم وقلبُها يخفق والرجفة تسري بكل جسدها، لا وجود لابنتها بصحبتهم، فقط يحملون زهور النرجس.

ترتعدُ.. تنتفضُ.. تبكي.

وقف أمامها مَنكس الرأس وهو يخبرها بما أخبره به الخادمُ العجوز.

يُقسم لها إنه حاول معرفة أين ذهبت دون جدوى، تتوتر وتهيج وتنتابها هيستيريا مُفزعة وهي تصرخ وتضربه بكل قوتها فوق وجهه وصدره:

- أين ابنتي؟.. أين ابنتي؟

لا يمكن أن ينتهي الأمر هكذا بكل هذه البساطة،

لا تُصدِّقه، ترفض أن تصدق ضياع ابنتها للأبد، بالتأكيد الحارس خانها ولم يجلب لها ابنتها.

تصرخُ بجنون، وهي تلطم وجهها وتخبره بأنها ستنتقم منه.

الجنونُ تمكن منها بلا رجعة، تهرول نحو القبو، الحراسُ والجنودُ يتابعون ما يحدث بدهشة ولا يفهمونَ سبب ما يرونه بأعينهم.

يهرول خلفها ويعلم أنها ستوصله لمكان "أريلا"،

تأمر الحارسَ بفتح الحجرة المظلمة، تسحب خنجره وتندفع نحو المسكينة الصغيرة التي تلمح "أورى" أخيرًا يظهر من الخلف، يعميها الشوقُ عن رؤية نصل الخنجر بيد كبيرة الوصيفات الهائجة بجنون.

صرخة "أوري" توقفها في مكانها مفزوعة، يُمسك جسد "ساريتا" من الخلف قبل أن يصل نصل الخنجر لقلب حبيبته المفزوعة، يقع وتقع فوقه ساريتا.

يسيل الدم من بين جسديهما، سكونٌ تام و"أريلا" تقفُ مُرتعدة تحدق في وجه حبيبها العائد بعد غياب.

يبتسمُ لها بتلك الابتسامة التي تحفظها عن ظهر قلب.

فقط ينظرُ لها مبتسمًا، تترك "ساريتا" جسدها يقع من فوق جسد الحارس المبتسم، لتري "أريلا" الخنجر الساكن بقلب "أوري".

تصرخ وتصرخ وتصرخ.. وتجذبه نحو صدرها، فقط ظل مبتسمًا ثابت النظرة.

مات الحارسُ الوسيمُ، مات وهو يبتسم لها كما كان يفعلُ دائمًا.

مات وقد أوفى بوعده لها وأنقذها، الأيادي تجذبها وترفعها عن جسده، لا أحد يتعاطف مع بكائها وصراخها على حبيبها، كلهم يهرولون نحو "ساريتا" يحاولون مساعدتها.

كبيرة الوصيفات المفجوعة تقاومهم بقوة وعناد وتظل تصرخ وتصيح، وهي تنادي ابنتها بلوعة وجنون.

تهرول نحو جناح الملكة، لا معنى للحياة بعد اليأس التام، ستنتقم ممن أفقدوها ابنتها وأملها في الحياة.

الجنودُ يهرولونَ خلفها، تفتح باب حجرة الملكة وهي تصرخُ وتصيح، هيئتها تُفزع الملكة وهي تراها بهذا الشر والجنون والرداء الملطخ بالدماء.

تندفع نحوها تبتغي الانتقام، يخترقُ ظهرها رمحٌ صلبٌ طويلٌ، تتسمّر مكانها ويخرج الدم من فمها.

تقع على ركبتيها، وهي تنظر لوجه الملكة المفزوع الشاحب، تلفظ نفسها الأخير وهي ما زالت تنادي ابنتها.

لا أحدَ ينتقمُ من الملوك.. للملوك حراسٌ على درجة عالية من اليقظة، القصر كله في حالة جلبة كبيرة ويعج بالحركة وصياح الملك الغاضب مما يحدثُ بداخل قصره وتعرّض زوجته لخطر كبير.

"أريلا" غائبة عن الوعى، تتشنج وهي مغمضة غير مُدركة ما يحدث حولها.

الحُراس يُخبرون الملكة بأمر الفتاة المكلومة على الحارس اليهوديّ المقتول، حبيسة القبو المظلم.

تبكي الملكة مصدومة، وهي لا تستوعبُ ما يحدث حولها.

لا تعرفُ لماذا قتلت "ساريتا" الحارسَ أو لماذا حاولت قتلها؟

لكنها تعرف وتوقن أن الفتاة المتشنجة بالقبو، هي بالتأكيد حبيبة حارسها التي أمرت بقتلها من قبل.

لا تعرفُ مَن خانها بالضبط؟

قتيلة لم تُقتل، وحبيب قتل قبل أن يضع أمامها زهور النرجس، وخادمة لم تعد مُخلصة وحاولت قتلها.

صورة "برت" حبيب طفولتها تلح على عقلها، لماذا لم تستطع حمايته والإبقاء عليه بجوارها؟

الفتاة المتشنجة تبكي حبيبها مثلما بكت هي "برت" من قبل.

رائحة الدم تزكم أنفها، يُخبرها قائد الحرس في محاولة لكسب الود والحظوة بأن الملك أمر بقتل الفتاة حبيسة القبو.

تنظرُ إليه شاخصة مقهورة بجمود، كل الصور تتداخل برأسها، تتحركُ نحو النافذة، تشخص ببصرها وتشرد وهو ينتظر ردّها.

تنظرُ إليه بهدوءٍ، وتطلب منه إحضار زهور النرجس.

ينتظرُ أن تخبره بأمر آخر دون جدوى، يهم بالحركة قبل أن يُوقفه صوتها الخافت المتألم، تطلبُ منه الاقتراب.

تقتربُ من أذنه وتهمسُ به بصوتها المفعم بالحزن والأسى:

- اتركوا الفتاة تذهب، وأخبروا الملك بأنها بالفعل قتلت.

١٩٧٠م- «حي الزمالك»

العُمالُ يعملونَ بجديةٍ ونشاطٍ وهُم يُعلقون الحَاجزَ الخَشبيّ العَريضَ بينَ شرفةِ شقة ماجدة، وشرفة شقة جارها العربيد.

لا تريدُ ترك أيّ مجال بينهما لمزيد من التواصل ومُحاولاته المستمرة في مُلاحقتها.

الحاجزُ يمنعُ عنه رؤيتها، واختراق خصوصيتها، يكفيه ما يعرفه من نساء في سجله العريض من مُغامراته وبطولاته النسائية.

"زينب" خادمتها الدءوبة تخبرها بموعد زيارتهما للشيخ "خليفة" كما طلبت منها، اتخذت قرارها بلا رجعة.

ستفعل أيّ شيءٍ يُعيد إليها زوجها وحياتها ويضمنُ لها الإنجاب.

المنطقة الشعبية تعج بالبشر، يتفحصون ملابسها بإعجاب وتُخفي عنهم جَمالها بقبعة كبيرة يتدلي منها قطعة من القماش الشفاف تغطي وجهها.

بيتُ الشيخ فقيرٌ مُظلمٌ بداخله عددٌ لا بأس به من النساء المتشحات بالسواد الجالسات في انتظار زيارته.

ورقة كبيرة من النقود جعلتها تسبقهنّ في الدخول.

جلست أمامه ضعيفة منكسرة وهي تطلب منه المساعدة وفعل ما يراه مناسبًا كي ينتفخ بطنها بالولد.

يتأملها بابتسامة وثقة وهي تتحدثُ باكية وتتوسل إليه، يُلقي حبات البخور في موقد النار أمامه وتغلفها سحابة الدخان ذات الرائحة القوية النفاذة.

لا تعرفُ متى ترك مكانه قبل أن تشعر بكفه فوق رأسها، وهو يُتمتم بكلامه المبهم ويحركها لليمين ولليسار.

يأمرها بالوقوف والتخطية فوق الموقد، نظرة "زينب" لها مُطمئنة وهي تشجعها بحماس، على طاعة الشيخ وتنفيذ أوامره.

مَلابسُها متوسطة الطول ساعدتها على فعل ذلك والعبور فوق الموقد عدة مرات متتالية وسط هَمهَمة الشيخ المستمرة بلا توقف.

أجلَسَها وعاد من جديدٍ يضع كفه فوق رأسها وهو يحركه حتى منتصف ظهرها.

يقشعر جسدُها من لمس يده، لكنها تصمت وتُمني نفسها بقرب الحل وحدوث المعجزة.

وقتٌ طويلٌ من اللمسات والهمهمة حتى انتهى وعاد لموضعِه وهو يُخبرها بأنه بعد ثلاث ليال سيصحبها لـ"تل اليهودية".

تذكِّره أنها تفعل ذلك دون علم زوجها، ويُخبرها بابتسامةٍ هادئةٍ بأنه يجب عليها إقناعه بأي حجة أنها ستبيتُ خارج البيت.

ليلة واحدة لا تضر في سبيل الحفاظ على زوجها وبيتها وجلب الولد.

هكذا حدّثت نفسها وهي تجلسُ مُضطربة تخشى افتضاح أمرها تنتظر عودته.

لم يستغرق الأمر ثواني، وكان يهز لها رأسه بالموافقة وهي تخبره بأنها ذاهبة لزيارة عمتها بعد ثلاثة أيام، وستقضي ليلة معها.

عقله مشغولٌ يبحث عن حل نهائي لمأساته، هل يقبل وضعه الحالي ويكف عن الأمل في ذرية ووريث لشهرته وثروته، أو يبحث عن حل بديل ويتزوج بأخرى تجلبُ له الولد؟

لا يستطيعُ الوصول لقرار نهائي، وعقله يوسوس له أن يشتريَ رحم "منال" بماله الوفير، وتجلب له الولد وبعدها يُمكنه إقناع "ماجدة" بأن تعتبره ابنها.

يُمكنه الذهابُ لأحد الملاجئ، وتبني طفل من هناك، لكنه يُغالط نفسه ويفكر في منال كأنها الحل الوحيد المُتاح.

يرغبُ في أن يُصبحّ الطفل من صلبه، أو يرغب في تذوق جسد "منال"، لا يهم، ما يهمه فقط أن يُصبح أبًا ويرى وريثه بعينيه.

وضعت "ماجدة" القبعة فوق رأسها تُخفي وجهها وهي تقفُ أمام عمارتها تنتظر وصول الشيخ "خليفة"، كما اتفق مع عرافتها "أم وداد".

سيارة أجرة قديمة تقفُ أمامها وبها الشيخ بصحبة قارئة فنجانها.

تركبُ بعجالة تخشى أن يراها أحدٌ.

المسافة حتى التل طويلة، والطريق مُقفر أغلبه من التراب.

"أم وداد" لا تكفّ عن الثرثرة، ووعدها بأنها "مجبورة بإذن الله"، وصلوا وقت الغروب والشيخ الصامت طوال الطريق يتحدثُ لأول مرة ويُخبرها بأن عليهم المكوث لبعض الوقت في بيت صديقه الشيخ "رحال".

بيتٌ ريفيّ بسيط، ولا يوجد به غير الشيخ الستيني العمر، وامرأة عجوز تخطت الثمانين تمشي بظهر في غاية الانحناء.

يجلسونَ فوق فرشةٍ بسيطة من الصوف.

الليلُ يبدأ في فرض هيمنتِه على السماء، والشيخ "رحال" يقدم لها كوبًا من الينسون، تحتسي وتمتعضُ من طعمِه المُر الغريب.

يبتسمُ لها بتودد، وهو يُخبرها بابتسامة ودودة:

- دِي حَبة البركة؛ لأجل تحلّ البَركة علينا.

تربتُ عليها "أم وداد" وهي تتبرعُ بالتشجيع:

- اشربي يا سِت هانم دي من إيد مولانا.

تهز رأسها بلطف، وتتجرعُ الكوب المُر حتى تنتهي منه.

تشعرُ بأن الجو من حولها به نسمة هواء مُنعشة، تتطلع مُبتسمة لوجهي الرجلين، وتبتسمُ بلا سبب، تخلع قبعتها، وتفرد ساقها فوق الفرشة الصوف.

ملمسُ الصوف يُدغدغ جلدها ويُشعرها بالقشعريرة ويجعلها تضحك بلا إدراك، وهي تشعر ببعض حياء، يد أحدهما تمسك بيدها، ويدعوها للوقوف.

لا تعرفُ من منهما يمسك يدها، وهي تشعر بنفسها خفيفة تقفز في الهواء.

الظلامُ حالك حولها، وهي تتحرك بخطوات منتشية تستند إلى ذراع يلتف حول خصرها.

على الرغم من الظلام التام، فإنها لا تشعر بأي خوفٍ أو رهبة.

فقط تشعر بسعادةٍ ونشوةٍ، ولا تتوقفُ عن الابتسام.

تضحكُ فور ملامسةِ جسدها الحجر العريض فوق تبة التل.

الرؤية أمامها مُتداخلة، وهي تتابع ببصرها افتراش النجوم السماء من فوقها.

ترى وجه "عادل" زوجها، تضحكُ بسعادة وهي تراه يقترب منها بسعادةٍ وابتسام، تصيحُ فيه بشوق وسعادةٍ كبيرةٍ:

- وحشتني يا عادل.

يضمها بين ذِراعيه، ويغيبان في قبلة طويلة محمومة.

يُزيح عنها ملابسها، ويُعريها تمامًا، وتضحكُ بدلال وبهجةٍ، وهي تشعرُ بملمس الحجر البارد أسفل جسدها العارى.

يأخذ مكانه بين ساقيها، وتتأوه بنشوةٍ وسعادةٍ وهي لا تكف عن تقبيل وجهه وتضحك من شعورها بخشونة شاربه وذقنه:

- ربيت دقنك إمتي يا عادل؟

لا يُجيب ولا تتوقفُ عن تقبيله حتى تشعر به يتشنج وينساب ماؤه بداخلها.

تترك جسدها يتمدد ويستريح قبل أن تشعر به يعود من جديد، ويُقبلها بحماس كأنه لم يكن يقبلها منذ لحظات.

تضحكُ وتبادله القبلات وهي سعيدة بسرعة عودتِه.

شعورٌ مُفعمٌ بالسعادة وهو فوق جسدها يتحرك بفحولة، وهي تنظر للنجوم في السماء.

يُمتعها ويبهجها ويشعرها بسعادة كبيرة لم تتذوقها من قبل.

تضمه إليها وتغمض عينيها وتلف ساقيها حول خصره بلذة واستمتاع.

تشعر بوخز الصوف في جسدها من جديد، تستيقظ برأس يكاد ينفجر من الألم والصداع، تجد نفسها مُمددة على الفرشة الصوف ببيت الشيخ "رحال" وبجوارها "أم وداد" تنظر إليها نظرة غير مفهومة.

تتحاشى النظر إليها، وهي تحكم طرحتها فوق رأسها، وتطلب منها الرحيل:

- يلا بقي يا ست هانم خلينا نلحق نرجع قبل الليل.

تنظر حولها تحاولُ الفهم، تشعر بملابسها مبعثرة فوق جسدها، تشعرُ ببلل تحت ملابسها ورائحة العرق تفوحُ من جسدها.

تُغمض عينيها وتحاول التذكر، الشيخان غير موجودين معهما، تتذكر شيئًا بشيء، تفطن فجأة لما حدث، أحدهما ضربها بقوة بمطرقةٍ من حديدٍ فوق رأسها.

ترغب في الصراخ، لكنها سرعان ما تكتم صرختها، وهي تهرول تعدل ملابسها وتهندم نفسها، وتخرج من الدار مسرعة.

"أم وداد" تنتظرها في السيارة الأجرة وتنظر من نافذتها نحو الجهة المقابلة.

ترغبُ في الهجوم عليها والنيل منها، لكنها تتذكر أنها إن فعلت ذلك لافتضح أمرها.

تركبُ في صمتٍ وتكتم غيظها، وهي تبكي بحرقةٍ.

في شقتها تخلعُ ملابسها بعصبية وتلقي بها باشمئزاز وجزع، وهي تبكي وتقع أسفل ماء "الدش"، وهي تلطمُ وجهها.

فعلها من وثقت بهما، وذهبت معهما، نال منها الشيخُ المُحتال الكاذب.

الصورُ تتضحُ وتستوعب أن الرجلين نالا من جسدِها بكل تأكيد.

فعلت مثلما فعل زوجُها، خانته وتركت جسدها لغيره.

ساعات مُكومة تحت الماء المنهمر تبكي، وتبحث عن طهارة جسدها تحته.

وقعت المصيبة، وخدعها الشيخُ الكاذبُ المحتالُ،

تقف في شرفتها تدخنُ سيجارتها الرفيعة بشراهة وهي تنظر للحاجز الخشبي بينها وبين جارها.

تضحكُ بسخريةٍ وسط دموعها وهي تتذكر أنها صنعته؛ كي تهربَ منه.

١٨٢٥م ـ «قصر الوالى»

"ريتشي" يتحركُ بتوتر نحو مجلس "الوالي" ويتبعه المهندس الشاب "لينان" في صمت وثقة، لا يعرفُ بماذا يخبر جناب "الوالي" المشتاق لسماع الأخبار عن الذهب والكنوز.

يُشير نحو "لينان" ويُخبر "الوالي" باضطراب بأنه سيشرح له كل شيءٍ.

"لينان" مُتحمس مرفوع الرأس وهو يتحدث بصوت مرتفع وقوي ويخبر جناب "الوالي" المُنصت بجدية بأن الحملة أتمت عملها، ولم يجدوا هناك أيّ كنوز أو ذهب. يُشير لأحد مُساعديه ليضع أمامه جوالًا كبيرًا من القماش، ويخرجُ منه أواني الفخار وجُمجمة حمار ويمسك بها ويوجهها نحو "الوالي":

- هذا ما وجدناه في تلك الأرض المشئومة، إنها مجرد مقبرة للحمير والشر والفِعل الخبيث.

"الوالي" يستمعُ بإنصات، ويشعُر بخيبة أمل أن حملته لم تحصل على كنز مدفون.

"لينان" يفتحُ فك الحمار بكل سهولة وهو يستطرد:

- أرض ملعونة بسِحر سُفلي أسود، اجتمع بها أناس مطرودون عاشوا فيها يُعانون ويتألمون ويدفنون سحرهم الأسود في أرضها.

جناب "الوالي" يُحرك شاربه بتوتر، يُؤمن بالسِّحر ويُصدّق بوجوده ويخاف من جلب شره.

يأمرُ بدفن الجُمجمة بعيدًا عن القصر ويأمرهما بالرحيل والعودة لعملهما بوزارة الأشغال العمومية.

"ريتشي" يودّعُ المهندس الراغب في إجازة بحنق وغضب.

قلبه يُخبره بأنه يُخفي عليه أمرًا خطيرًا، يتحركُ "لينان" بسعادةٍ وراحةٍ نحو بيته، مُشتاق بشدة لرؤية "نسيم" والنوم فوق صدرها.

يشعر براحةٍ كبيرةٍ بعد أن أزال ذلك الحمل الثقيل من فوق صدره، وكتب في تقريره: "إن تل اليهودية منطقة كان يسكنها اليهود قبل الميلاد في عهد البطالمة، ولم يتركوا خلفهم أي أثر أو بناء غير المئات من الأواني الفخارية".

أنهى تقريره ولم يكتب فيه حرفًا واحدًا عن اكتشافه وجود "الهيكل" وصناديق الذهب والتابوت.

احتفظ بالسر كما وعد الشيخ "غنيم" وحافظ على أن تبقى أرض التل لأهل التل.